



مجلس شورای اسلامی ایران
کتابخانه مجلس شورای اسلامی

در تحلیلی عن حیات و جهاد لائمه الاثنی عشر

دَوْرُ اَئِمَّةِ هَذَا الْبَيْتِ

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

فِي الْحَبَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ



عادل الأديب



آستان قدس



PDF مكتبة نرجس

www.narjes-library.blogspot.com

دراسة تحليلية عن حياة وجهاء الأمة الأشيخ عشر

دور أئمة أهل البيت

عليهم السلام

في الحجة الإسلامية

عادل الأديب

Bu11Star
B2
166.94
.A34
1987ع



الكتاب: دور أئمة أهل البيت (ع) في الحياة الإسلامية
المؤلف: عادل الأديب
نشر: مجمع البحوث الإسلامية، إيران - مشهد - ص ب ۹۱۳۷۵/۳۶۶۳
الطبعة الأولى: ربيع الثاني ۱۴۰۸ هـ.
العدد: ۳۰۰۰ نسخة
الأمور الفنية والطبع: مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدمة

حقوق الطبع والترجمة محفوظة

((محتويات الكتاب))

٩	توطئة
١٠	كيف ندرس تأريخ اهل البيت (ع)؟
١٢	المنهج والاسلوب
١٢	الاول: المنهج التحريفي
١٣	الثاني: المنهج التجزيئي، اعتمد على الأساليب التالية
١٥	الاول: اسلوب السرد الروائي (التأريخي)
١٦	الثاني: الاسلوب المناقبي (التأريخي)
١٦	الثالث: الاسلوب المعجزى او التفسير (الاسطوري)
١٩	الرابع: المنهج الترابطي (التوحيدي)
٢٢	هل المنهج الترابطي يلغي المنهج التجزيئي ؟
٢٤	المنهج التجزيئي عامل اعاقه
٢٥	المنهج الترابطي الاسلوب الامثل
٢٦	خلاصة البحث
٢٩	اخذف من هذه الدراسة

القسم الأول: دور الأئمة «ع» في التاريخ الإسلامي

- الفصل الاول: دور الأئمة اهل البيت في التاريخ الإسلامي ٣٣
- النطاق العملي ٣٧
- المرحلة في عمل اهل البيت (ع) ٤١
- الفصل الثاني: مراحل العمل عند الأئمة (ع) ٤٣
- المرحلة الاولى: مرحلة مجابهة انحراف الحكام ٤٣
- المرحلة الثانية: مرحلة مجابهة انحراف العلماء ٤٥
- المرحلة الثالثة: مرحلة النشاط السياسي ٤٧
- المرحلة الرابعة: مرحلة الغيبة ٥٠
- المرحلة الخامسة: مرحلة ظهور الإمام الغائب وقيام الدولة الإسلامية العالمية ... ٥١

القسم الثاني: دور الإمام علي «ع»

- الفصل الاول: خلافة النبي (ص) ومستقبل الدعوة ٥٥
- اجتماع السقيفة ٥٦
- الرسول «ص» يمهّد لخلافة الإمام علي «ع» ٥٨
- لماذا وقع الخلاف؟ وكيف نشأ الانقسام في الامّة؟ ٥٩
- الفصل الثاني: تعريف بشخصية الامام «ع» ٦٦
- مكانته من خلال الكتاب والسنة ٦٧
- الامام وموقفه من الخلفاء ٦٩
- شخصيته واخلاقه الاجتماعية ٧١
- عبادته ٧١
- زهده ٧٣
- اخلاقه ٧٣
- تواضعه ٧٤
- حلمه ٧٥

٧٧	الفصل الثالث: حياة الامام علي (ع) السياسية
٧٧	مدخل
٧٨	منطق السقيفة
٧٩	مبدأ عمر في العطاء
٨٠	الشورى
٨٢	سياسة عثمان
٨٤	الامام وموقفه من الثورة على عثمان
٨٨	الامام وموقفه من تولي الحكم
٩٠	الامام في الحكم
٩٠	الميدان الحقوق
٩٠	الميدان المالي والاقتصادي
٩٠	الميدان الاداري والسياسي
٩٧	طبيعة موقف الامام (ع) ومعاوية من الصراع
١٢٣	الامام علي (ع) « يختار الكوفة مركزا لخلافته
١٢٦	رفض الامام للمساومات، هل كان عنادا؟!
١٢٧	الدوافع والاسباب
١٢٧	المستوى السياسي
١٢٩	المستوى الفقهي
١٥٤	شهادة الامام علي (ع) في الميزان

القسم الثالث: دور الامام الحسن بن علي (ع)

١٥٩	١ - تعريف بشخصية الامام ونشأته
١٦٠	٢ - مكانته (ع) من خلال الكتاب والسنة
١٦١	٣ - شخصية الامام الاخلاقية
١٦١	اخلاقه مع معارضيه

- ١٦١ سخاؤه
- ١٦٢ ٤ - الحسن (ع) في عهد الخلفاء
- ١٦٤ ٥ - الامام الحسن بعد استشهاد ابيه
- ١٦٥ رد فعل معاوية على بيعه الامام الحسن (ع)
- ١٦٦ ٦ - الامام وظروف استلامه للحكم
- ١٧٤ لماذا قبل الحسن البيعة؟!
- ١٨٢ ٧ - هل كان صلح الحسن مع معاوية تحاذلا؟!
- ١٨٥ مناقشة الاعتبارات الموضوعية
- ١٩٧ كنمة اخيرة عن الامام (ع)
- ١٩٩ مصادر الكتاب

توطئة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآل بيته الأطهار وصحبه الأبرار وبعد:

— ١ —

لقد كان لكتاب «الأئمة الاثنا عشر، دراسة تحليلية» على اختصاره المكثف صدى استحسان لدى القراء الأعزاء، ربما لأنهم رأوا فيه منهجة بحث جديدة في تناول تاريخ اهل البيت (ع) حيث اعتمدنا في دراستنا لتأريخهم (ع) على المنهج المقترح للسيد الشهيد محمد باقر انصدر (رض) في بحثه القيم المنشور بمجلة الأضواء بعنوان «دور الأئمة في الحياة الإسلامية ومحاضراته التي القاها على طلبته في النجف الأشرف، وذلك باعتماد المنهج (التراضي) الشموي الذي يدرس حياة كل امام وتاريخه على أساس النظرة الكلية بدلاً من النظرة التجزئية، والنظر الى الائمة ككل مترابط ودراسة هذا الكل وكشف ملامحه العامة وأهدافه المشتركة، ومزاجه الأصيل وفهم الترابط بين خطواته، وبالتالي الدور الذي مارسه الائمة جميعاً في الحياة الإسلامية».^(١)

١. دائره المعارف الإسلامية الشيعية/ الأمين ج ٢، ص: ٩٤، راجع مقال «دور الائمة في الحياة الإسلامية لشهيد السيد الصدر.

وكان من المؤشرات على اقبال القراء للكتاب هو نفاذ الطبعة الاولى وتشجيع كثير من الاخوة القراء على طبعه وتطويره ونشره بشكل اكثر تفصيلا من الطبعة الأولى، ورأينا وفاء للقارئ العزيز أن نباشر بكتابة تأريخ اهل البيت (ع) على شكل سلسلة «تأريخ أمتنا» «تصدر تباعا وتحمل عنوانا رئيسيا» دور أمة اهل البيت في الحياة الاسلامية تيمنا بالتسمية التي أطلقها الشهيد الصدر (ق-س) على مقالته، أمل من الله تعالى أن يوفقي لإنجازها، وهي امتداد لدراستي السابقة في كتاب «الأمة الاثنا عشر دراسة تحليلية».

— ٢ —

كيف ندرس تأريخ اهل البيت (ع)؟

لقد كتب اهل البيت (ع) التأريخ وصنعه، اما الان وفي هذه المرحلة من سقوط الحكم الاسلامي على اثر الغزو الثقافي والعسكري للاستكبار العالمي، حاول المستكبرون عزل الاسلام واسقاطه عن جميع الحقول، حيث أقيمت بدلاً عن الاسلام قواعد فكرية أخرى تصوغ حياة المسلمين على أساسها، وضمن اطار محاولاتهم الدؤوبة والمدرسة لتحطيم الكيان التاريخي والاجتماعي والسياسي للأمة الاسلامية دأب المستكبرون الغزاة على التأكيد على الجوانب الفردية ودفع وتشجيع النظرة التبعية في فهم الاسلام.

ولكن بعد أن صحت الامة الاسلامية على صحاح روادها ومفكرها، أخذت تعي وجودها وتفكر في رسالتها الحقيقية في الاسلام، بعد أن اكتشفت واقع القواعد الفكرية الجديدة ونوع التجارب الاجتماعية التي حلها عليها الاستعمار.

ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الوعي على مفكري الاسلام ويؤكد احساسهم الذاتي خلال التجربة المريرة التي عاشوها في عصر ما بعد الاستعمار، حيث السقوط والتخلف الحضاري وآثار الغزو الثقافي للمستكبر، وقرابة التأريخ الاسلامي بذهنية متأثرة بالحد الصليبي والاستشراقي، أو العقلية المادية (اليسارية) حيث التفسير المادي للتأريخ وتصنيف أمة اهل البيت (ع) إلى يميني ويساري ^(١)، وهو أسلوب خطير يمارس في انتقائه

اللاموضوعي، وفي تزييفه وتحويره، منهاجاً مادياً خاطئاً، أشد في بعده عن روح العلم ومسؤولية البحث الجاد أكثر من المناهج الاستشراقية كراهية للإسلام وحقداً على تأريخه المشرق، وإلى غير ذلك من المناهج المتهافئة الذي يكذبه واقع التأريخ الصحيح وتآباه عقيدتنا الإسلامية عن أهل البيت (ع).

لقد أصبح أعداء الإسلام هم الذين يكتبون تأريخنا، وهم يقرأونه لنا أيضاً! حتى طبعوا عقول ناشئتنا باعتقاد سائد بأن التمسك بتأريخ ائمتنا (ع) يعني التخلف والرجعية والجمود وإن الإيمان به يعني التواكل والغفلة والانعزال.

هذا الوعي الفذ هو الذي قاد السيد الشهيد الصدر (قده) إلى دراسة تأريخية جادة وإلى وضع مشروع قراءة ومنهج واعٍ في كتابه القيم (المدرسة القرآنية) ومن محاضراته عن سيرة الائمة الاثنا عشر (ع) وإعادة كتابة تأريخهم وتقديم هذه القراءة البكر أو التفسير الإسلامي الواعي إلى أمتنا الإسلامية الناهضة.

وما أحوجنا نحن الآن إلى أمثال هذه الدراسات الواعية وذلك باغناء تصورنا بقراءة تأريخهم كجزء من العقيدة الإسلامية حتى نتمكن من امتلاك الرؤية الصحيحة، والحكم على واقعنا التاريخي من خلال منظور إسلامي صرف، وذلك إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ولا يتحصل هذا التصور الا بقراءة متأنية وواعية للتأريخ الإسلامي، ففقدنا بأهل البيت (ع) وتأريخهم المشرق هو جزء من الاعتقاد الإسلامي بشكله العالم.

ولكن رسوخ النظرة «التجزئية» والنظر إلى تاريخ ائمتنا (ع) حيث التأكيد على الجوانب الفردية والمناقبية لهم، وبإهمال الدراسة الترابطية — التوحيدية — لتأريخ حياتهم أصيب القارئ المسلم بخيبة أمل وهزعة نفسية، حطمت معنوياته، وألغت شخصيته وأخذ يحس بتفاهة تأريخ عظمائه وبتفوق تأريخ أعدائه من الغربيين صليبيين ويهودا.

إن الدروس المستفادة من تأريخ أهل البيت (ع) والعبر التي نتعلمها من ممارستهم فيها عظيم الفائدة لحاضرنا ومستقبلنا، وهذه هي فائدة دراسة التأريخ لكل أمة من الأمم لأن تأريخنا الماضي هو دعامة الحاضر وأمل المستقبل، فلا ينبغي إهماله أو الغاؤه، كما لا ينبغي استنساخه بدون إبراز دروسه وعبره النافعة، فالامة التي لا تملك أو تفهم تأريخها، فهي كالشجرة التي لا جذور لها، تموت غداً، إن لم تكن قد ماتت اليوم.

- ٣ -

المنهج والأسلوب.

لقد درج المؤرخون لسيرة أئمة أهل البيت (ع) على أن يستعرضوا حياتهم من خلال

منهجين:

الاول: المنهج التحريفي:

وقد تأثر هذا المنهج في تناول تأريخ أهل البيت (ع) بصيغة الانحراف والتشويه المتعمد وهذا ما درج عليه أغلب مؤلفي كتب التأريخ العام، كابن العربي، وابن حزم الاندلسي، وابن تيمية، وغيرهم، وهؤلاء كانوا غالباً على اتصال وثيق بالسلطان، أو أنهم من المؤيدين لوضع سياسي يتعارض مع مضمون اطروحة أهل البيت (ع) لذا نرى ان ابن حزم يعتبر «قاتل الامام علي مجتهداً متأولاً وقد ضربه بالسيف في الصلاة وبمحارب مسجد الكوفة»^(١) وأما «قتلة عثمان (رض)» فإنه لا مجال للاجتهاد في قتله، بل هم فساق محاربون سافكون دماً حراماً عمداً بلا تأويل على سبيل الظلم والعدوان فهم فساق ملعونون»^(٢).

وفي صواعق ابن حجر الهيثمي يقول «إن من اعتقاد أهل السنة والجماعة أن معاوية (رض) لم يكن في أيام علي خليفة، وإنما كان من الملوك وغاية اجتهاده أنه كان له اجر واحد على اجتهاده»^(٣).

وفي نموذج آخر للمنهج الانحرافي نستمتع لنصيحة ابن العربي للحسين (ع) اذ يقول «بأنه كان الاولى به ان يتبع حديث جده الذي قال (ص) ستكون هناك هنات، فمن اراد أن يفرق أمر هذه الامة وهي جميع فاضربوه بالسيف كأننا من كان، فكان اولي به أن يسعه بيته ويبيع، ولم يكن يريد هو الذي قتله ولا واليه عبيد الله بن زياد، بل قتله من استدعاه ثم أسلمه من أوباش أهل الكوفة»^(٤).

لذا نرى أن هؤلاء اتبعوا منهجاً تحريضياً، في دراسة حياتهم (ع) فقدوا الأئمة من أهل

١. ابن حزم/ المحج ج ١٠/ ٤٨٤

٢. الفصل لابن حزم/ ج ٤/ ١٦١

٣. الصواعق/ لابن حجر الهيثمي ص: ٢١٦

٤. العوصم من التواصم/ لأبي بكر بن العربي

البيت(ع) في قائمة القادة السياسيين التقليديين الذين يحترفون العمل السياسي لتحقيق مطالب شخصية او عائلية او حزبية وابتعدوا عنهم الصفة الرسالية التي تطبع حياتهم ولذا فقد اعتاد هؤلاء المؤرخون أن يصنفوا العمليات الاجتماعية والسياسية والفكرية التي اضطلع الاثمة(ع) بأعبائها حسب حالات الضعف او القوة والصلابة او المرونة، وعلو الهمة وضعفها في شخص أى امام دون سواه ومن هنا فقد صار «الامام علي(ع) يفتقر الى مزايا الزعامة السياسية من بعد نظر ويقظة وحنكة وحزم»^(١)، وجعلوا موقف الحسن(ع) من معاوية وإبرام الصلح بينها، من علامات الوهن والضعف وكانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية القيادية»^(٢)، وفي حين يعد الحسين(ع) في عرف هؤلاء ذا شخصية تتسم بالصلابة وعلو الهمة وقريبا من ذلك تفسر كافة المواقف الرسالية التي وقفها ائمة اهل البيت(ع)، فلا تعدوا أن تكون أساليبهم عبر حياتهم العملية سلسلة من الانتصارات او الاخفاقات السياسية التي تكتنف حياة أى سياسي آخر سواهم تبعا لعوامل ذاتية وموضوعية.

الثاني: المنهج التجزيئي:

لقد تناول المؤرخون والكتاب الشيعة تأريخ اهل البيت(ع)، وعرضوا لحياتهم ونشاطهم ولكنهم سجلوها كما وردت في المرويات التاريخية، في حالة تناثر مجزأ وتراكم عددي، والنظر اليها نظرة تجزيئية دون أن تكون عند اكثرهم القدرة والرؤية على النظر الشامل لتأريخهم العظيم، والخلوص الى العبر أو إعادة ترتيب النصوص التاريخية وفق منهج محدد، بشكل يحقق العبرة والمثال للقارئ المسلم.

ونود أن نشير في معرض هذه الحقيقة أن المؤرخ ضمن إطار هذا المنهج التجزيئي «يقطع نظره عن سائر الاحداث التاريخية الأخرى ولا يستعين بها في فهم الحادثة أو القصة التاريخية المطروحة للبحث، بل قد يستعين ببعض الحوادث والمرويات التاريخية ولكن الاستعانة في الأعم الأغلب تتم بقصد الكشف عن مدلول الحدث التاريخي الخاص الذي تحمله الرواية التاريخية المطروحة للبحث»^(٣)، فالهدف في كل خطوة من النظرة التجزيئية

١. صانموا التأريخ العربي/د. فيليب حتى/ص: ٦٣

٢. عقيدة الشيعة الامامية/رونلدسن

٣. راجع للاستفادة «المدرسة القرآنية»، للسيد الشهيد محمد باقر الصدر.

للتأريخ، التي يواجهها المؤرخ بكل الوسائل الممكنة هو هدف تجزيئي «استاتيكي» يفصل الحادثة المفردة عن الترابطية الشمولية للتأريخ، وبذلك تضيق الكثير من الحقائق الموضوعية على القارئ عند ما يطالع حياة أئمة أهل البيت (ع) بهذا الهدف المجزأ الناقص..

ولكن التفسير الشيعي — التجزيئي — حسب أنه قدم المعلومات بدقة وأمانة علمية، ليأتي الدارسون والمتخصصون بتاريخ أهل البيت (ع) للاستفادة منها وتبسيط الأضواء عليها لتحصيل الفائدة للحاضر المسلمين ومستقبلهم.

والمنهج التجزيئي في دراسة حياة الأئمة (ع) وإن كان ضروريا لدراسة كل امام بصورة مستقلة وكان يمتاز بسلامة القصد غالبا، إلا أنه يعرض حياة الأئمة (ع) كما لو كانت متباينة ومتناقضة، فالحسن يهادن، والحسين يثور، والسجاد يمارس الدعاء، بينما الامام الباقر تتسم حياته بالحديث والفقه... الخ.

ولئن كانت خطورة المنهج التحريفي السابق تتجلى في فصل الأئمة عن خطهم الرسالي الملتزم، فإن خطورة المنهج التجزيئي تتسم في عدم التصدي لاكتشاف العامل المشترك الذي يوحد بين أساليب الأئمة (ع) منيعة ومصبية، ودراستهم كوحدة مترابطة الأجزاء يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمّله.

وقد يؤدي المنهج التجزيئي في بعض الحالات إلى ظهور تناقضات شكلية في حياتهم (ع) يكتنفه الكثير من الغموض الذي يصعب فهمه على كثير من القراء والدارسين، فيما كان بالإمكان تفادي هذه التناقضات الشكلية بين الأدوار التي مارسها الأئمة (ع) لو أننا خطونا خطوة ثانية باتجاه المنهج الترابطي التوحيدي، حيث يبدو الاختلاف والتناقض على مستوى المنهج الترابطي مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنما اختلف التعبير عنها وفقا لاختلاف الظروف والملابسات التي مرتها كل امام وعاشتها القضية الاسلامية في عصره عن الظروف والملابسات التي مرت بها الرسالة في عهد امام آخر. (١)

أما المنهج التجزيئي في البحث، فهو يعتمد على التردد التاريخي للوقائع دون أن يدرس ويحل الظروف الموضوعية، فاستجابة المؤرخ فيها استجابة سلبية، مهملا توظيف

الوقائع التاريخية المتنوعة لسيرتهم (ع) والتصدى لاكتشاف الخصائص العامة والدور المشترك للأئمة، لأننا نعتقد بأن وجود دور مشترك مارسه الأئمة ليس مجرد افتراض نبحت عن مبرراته التاريخية، وإنما هو ما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة بالذات، لأن الإمامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها، إذ ليس هناك فارق بينهم في حساب الله عز وجل فإن كل واحد منهم إمام معصوم، فيجب أن تنعكس انعكاسا واحدا في سلوك الأئمة وأدوارهم معها. تختلف ألوانها الظاهرية بسبب الظروف والملابسات.

وقد اعتمد المنهج التجريبي لدى مؤرخي حياتهم على الأساليب التالية:

الأول: أسلوب السرد الروائي التاريخي:.

وهو أسلوب تناول فيه المؤرخون الأحداث التاريخية وفقا لتسلسل وقوعها زمنيا مع التركيز على إبراز جانب الإثارة العاطفية من تأريخهم، واطهار الأئمة من أهل البيت (ع) وخصوصا بعد مذبحة كربلاء، بأنهم اعتزلوا السياسة وانصرفوا الى الإرشاد والعبادة والانقطاع عن الدنيا، وحاولوا معالجة المواقف السياسية التي اتخذها الأئمة (ع) باعتبارها مواقف استثنائية اقتضتها الظروف، وسرعان ما كان الأئمة (ع) يتراجعون إلى موقفهم الطبيعي وهو موقف من يهتم بابرار الأحكام الشرعية والتوعية العلمية، وغاب عن أذهانهم بأن أئمة أهل البيت (ع) — كما هو في تأريخهم الصريح — يمثلون الامتداد الطبيعي لمسيرة الأنبياء ومسيرة الرسول (ص) بالذات، وأن التأريخ الثابت لأئمة أهل البيت (ع) ينفي عنهم هذه التهم ويثبت أن حياتهم كانت سلسلة من التضحيات في سبيل الصالح العام «ويكفي هنا أن نذكر اضافة الى التأريخ الثابت أن الامام زين العابدين علي بن الحسين (ع) الذي شهد بنفسه فاجعة كربلاء، وعاشها ساعة بعد ساعة بكل آلامها وأحزانها، كان يدعو لأهل الثغور جنود النظام الاموي الذي ارتكب جريمة كربلاء والذي أسره مع عmates وأخواته وما ذلك الدعاء من الامام زين العابدين إلا وعيا فذا منه لدور جيوش الثغور في حفظ المجتمع الاسلامي من اعدائه، وإن كان هذا الجيش يحمي أيضا نظام الأمويين»^(١).

الثاني: الأسلوب المناقبي التاريخي:.

وهو أسلوب اعتنى بابرار مناقبية اهل البيت (ع) وذلك من خلال صراهم وجهادهم مع الاعداء بذكر فضائل اهل البيت (ع) وما يتمتعون به من رفعة في ميزان الاخلاق ومظاهر البطولة النادرة والسمو الإنساني، وذكر رذائل أعدائهم وما يتصفون به من انحطاط في سلم القيم ولا بأس أن يتحول التاريخ عندهم الى زهو تاريخي مجرد، محولا تاريخهم العظيم الى مجرد طبل أجوف لا تسمع منه إلا رنين المديح والاعجاب والتقديس دون التأسى بسلوكهم واساليب عملهم، ويظل الإنسان في ظل هذا الأسلوب من البحث يعيش في غيبوبة تاريخية صوفية حاملة بعيدة عن الواقع، مما يؤدي إلى الضعف الساحق الذي يفقد الإنسان فيه الثقة بنفسه وبقدرته على الابداع والتركيز، عندما يتحول الى عيون مفتوحة ومبهورة بالماضي، مغلقة عن الحاضر.^(١)

وقد حاول بعض المؤرخين من خلال هذا الأسلوب المناقبي تصوير حياتهم (ع) بطريقة تضعهم في أعلى مستوى من القمة المثالية، بطريقة توحى لقارئ التاريخ باستحالة مجاراتهم او محاكاة تجاربهم القيمة، مستهدين بأسلوبهم المنفوخ هذا تحويل الأمة الى ذيل للتاريخ، وتتنوع على ضوء هذا الأسلوب الذي يضخم أحداث هذا التاريخ وشخصياته الى ما يشبه «التدرن العضوى» والى اعتبار أن تاريخهم فوق مستوى الأمة^(٢).

الثالث: الأسلوب المعجزى أو التفسير الأسطوري:.

وهو أسلوب اعتنى بالتركيز وابرار الكثير من ممارساتهم وصراهم (ع) مع أعدائهم على شكل معاجز (أسطورية) كانوا يحققون فتح مغاليق صراهم وأزماتهم السياسية من خلالها مع أعدائهم، ونحن بهذا الصدد لانريد أن ننكر على أئمة اهل البيت (ع) كراماتهم، ولكن الذى نريد أن نؤكد القول عليه بأن المعجزات الكونية وما أجراه الله تعالى على أيدي انبيائه^(٣) كانت الوسيلة المثلى إلى إقناع الأقوام آنذاك، والأسلوب الذى أخذ الله به الكافرين من خسف، واغراق، وصواعق، والله يقول: «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن

١. راجع: الاسلام ومنطق القوة / محمد حسين فضل الله، ص: ٦٩

٢. كمصاموسى، واستغلال ناقة صالحي، وحماد العزيز، والبحر الذى انشق لموسى وطوفان نوح... الخ.

كذب بها الأولون» الاسراء / ٥٩.

وعند ما تحدى مشركو قريش النبي (ص) أن يأتي بالمعجزات الكونية كالأنبياء السابقين، أجابهم الله تعالى في كتابه بالحوار التالي: «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا خسفا أو تأتي بالهـ والملائكة قبـلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترق في السماء، ولن نؤمن لرقيـت حتى تنزل علينا كتابا نقرأه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا» الاسراء/ ٩٠-٩٣.

وإذا كان العهد النبوي قد جمع بين المعجزة الأساسية القرآن وبعض المعجزات الهامشية الكونية^(١) فقد ذهبت هذه المعجزات مع التاريخ كما ذهبت معجزات الانبياء السابقين، وبقي القرآن وحده معجزة غير مسبقة ولا ملحوقة، معجزة لها صفة الاستمرار مابقيت الحياة، وبقاء القرآن معجزة تنهي مراحل المعجزات الكونية، ولا يبقى امام المسلم إلا أن يعتمد — مع إيمانه الراسخ والتسديد الإلهي والمدد الغيبي — على جهده العلمي وتخطيطه لحاضره ومستقبله، فع انتفاء عهد النبوات والمعاجز بقي أن يحسن الناس عملية التخطيط والاستفادة من الخطوط الرئيسية، مستفيدين من سنن التاريخ ومجريات القانون الكوني التي ذكرها القرآن الكريم ليصوغوا بها حياتهم ويصنعوا بها تاريخهم.

فالمسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض ان ينتصروا، وخسروا المعركة في احد حينما كانت الشروط الموضوعية في معركة أحد تفرض عليهم أن يخسروا المعركة «ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس» آل عمران/ ١٤٠

«فالنصر ليس حقا إلهيا، وإنما حق طبيعي، وذلك بقدر ما يمكن توفير الشروط الموضوعية لهذا النصر بحسب منطق سنن التاريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونيا لا تشريعا»^(٢).

«لذلك نحن نشعر أن علينا أن نخطط لعمل الدعوة، وأن نطلق الفكرة، وبعد ذلك

١. كتكثير الطعام بين يدي رسول الله (ص) وشق القمر، واستدعاء الشجرة... الخ

٢. المدرسة القرآنية/ السيد الشهيد الصدر.

هناك سن الله في الأرض، التي تعطي الفكرة قوة تجعلها تتحول إلى الواقع، وقد لا تعطى هذه القوة لأن طبيعة سن الله التي أرادت للحياة أن تنطلق من خلال قانون السببية في الكون قد لا تمنح تلك الفكرة القوة، ونحن نلاحظ أن الأنبياء كانوا يقتلون والمجاهدون والأئمة (ع)، كانوا يقتلون، ولم يتغير الكون في هذا المجال لأن الله لم يوجد الحياة على أساس المعجزة، ولهذا فأنا حين ندعو للإسلام لا ندعوه من خلال المعجزة، وإنما ندعو للإسلام كما يدعوا الآخرون إلى غير الإسلام من خلال الوسائل التي نمتلكها الآن، ومن خلال الوسائل التي يمكن أن نحصل عليها الآن»^(١).

وعلى ضوء هذه الحقيقة القرآنية، جاءت حياة أهل البيت (ع) تعبيراً حياً لانتقال التاريخ الإنساني والإسلامي من عصور معجزات الأنبياء إلى عصور جديدة، يحمل فيها الإنسان مسؤولية عمله، ويخطط على هدى وبصيرة دون أن ينتظر مائدة من السماء، وانغلاق البحر أو تفجر الماء من الصخر، أو تحول العصا إلى ثعبان... الخ.

وقد اعطانا تاريخ أئمة أهل البيت (ع) النموذج التطبيقي الرائع للارتباط العضوي الحميم بين الأسباب والنتائج الملموسة لواقع عملهم العظيم.

فالنصر صناعة والهزيمة صناعة أيضاً، يقول الله في كتابه الكريم:

«ولما أصابتكم مصيبة — في أحد — قد أصبتم مثلها — في بدر — قلتم أتى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير» آل عمران ١٦٥.

فالمنهج التجريبي، مع الاعتراف بضرورته كخطوة أولى في اعتماده كمدخل لدراسة حياتهم (ع) لكنه يبقى «منهجاً عاجزاً عن تحقيق هدف معاصر له أهمية بالغة في تحقيق التكامل والوعي السياسي لدى الإنسان المسلم، حيث أن الباحث لا يستطيع وفقاً لهذا المنهج أن يفهم ويقدم تاريخ أهل البيت (ع) إلى الإنسان الحديث على ضوء المعطيات المعاصرة في المسألة الاجتماعية، لا يستطيع أن يكشف عناصر الديمومة والاستمرار لتاريخ أهل البيت (ع) هذه العناصر التي تجعل من تاريخهم شيئاً ذا صلة بالحاضر الحي قادراً على اغناء الحاضر وتزويده بعناصر من الفكر والرؤية تجعل النضال في حقل المسألة الاجتماعية، يجمع إلى جانب الحداثة، الأصالة الضرورية للحفاظ على سلامة الشخصية الإنسانية من

التشويه والذوبان في غمرة التغيرات المتسارعة لحضارة مادية غير انسانية، هي الحضارة المادية الحديثة^(١).

إن النقص الذي يعاني منه المنهج التجريبي، يعالجه ويتلافاه، المنهج الترابطي (التوحيدي)، والذي نحاول أن نترسم خطاه في هذه الدراسة المتواضعة ولو على صعيد التقسيم المرحلي، واكتشاف العامل المشترك الذي يوحد بين اساليب عمل ائمة اهل البيت(ع)، ودراستهم كوحدة مترابطة الاجزاء يواصل كل جزء دور الجزء الآخر ويكمله. والمنهج الترابطي هو المنهج المفضل والضروري لفهم الكثير والغامض من سيرة اهل البيت(ع) وابراز اهمية دورهم(ع) في الحياة الاسلامية، والتي من شأنها ان تلقي لنا الاضواء على دورهم العظيم في حياتنا الاسلامية المعاصرة.

الثالث: المنهج الترابطي (التوحيدي):

ثمة بعد مهم من أبعاد تأريخ اهل البيت(ع) لم يتناوله المؤرخين في دراساتهم للأئمة(ع) واعني به البعد الترابطي الشمولي والفهم المرحلي لتأريخهم، وإن دراسة هذا البعد من أبعاد تأريخهم ضروري لتحقيق الأهداف التالية:

اولا: معرفة العامل المشترك الذي يوحد بين اساليب عمل الأئمة(ع)، ودراساتهم كوحدة مترابطة الاجزاء، يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمله ومدى انسجام وتفاعل اسلوب كل امام مع الآخر، تلك الاساليب التي تتواجد من خلال ظروف موضوعية يحتاجها العمل التنفيذي الآتي مشروطا ببيئته «الزمكانية».

ثانيا: الاحاطة التامة بطبيعة الحادثة التاريخية، ودراستها بشمولية مترابطة مع بقية الأحداث الأخرى في حياة الأئمة الآخرين بوجود الهدف الواحد الذي سعى الجميع الى تنجيذه، من خلال ادوار عمل بالغة الدقة في التخطيط، مستفيداً منه الظروف التي سبقها والتي واكبتها، والتي تلاحقت بعدها اضافة إلى ربط الماضي بالحاضر.

ثالثا: دراسة الواقع الخارجي المعاصر، بحصيلة التجربة البشرية حيث يتزود بكل ماوصلت الى يده من حصيلة هذه التجربة التاريخية الثرة ومن افكارها ومضامينها، ثم يعود

للممارسات وتأريخ أهل البيت (ع) ليستفيد ويستلهم من تأريخهم (ع) فيقف منه موقف المحاور، موقف من يطرح الاسئلة التاريخية التي ظهرت على ضوء تلك الحصيلة البشرية، وعلى ضوء التجربة التاريخية التي ظهرت على ضوء تلك الحصيلة البشرية، وعلى ضوء التجزئة التاريخية التي استطاع قرائتها في المنهج التجزيئي ليم تلقى الأجوبة من خلال عملية الحوار من ثنايا مواقفهم وممارستهم التاريخية التي تتواجد من خلال ظروف موضوعية يحتاجها العمل التغييرى.

رابعاً: اعتماد النصوص التاريخية الصحيحة الواردة في المنهج التجزيئي للتعرف على خصائص عملهم والمراحل التاريخية التي مروا بها، سعياً الى تحطيم فكرة التقديس المفرط الذى اتبعته النظرة الساذجة للتأريخ، والتي تعتبر نقد الماضي تحطيماً لقدسية التأريخ. إن تأريخ أهل البيت في الواقع هو ضرورة متحركة متفاعلة مع عقل الأمة وعاطفتها وليس تراثاً محنطاً تربطنا به علاقة نظرية، بل هي علاقة متبادلة «ديناميكية» تعكس تفاعل الأمة بتأريخ أهل البيت (ع) في حركة أخذ وعطاء مستمرة.

خامساً: عدم الانجرار وراء النظرة التجزئية في دراسة التأريخ ودون ان تدفعه الدراسة المتناثرة للنصوص والآثار التاريخية ونزعة الاتجاه «التبعيضي» الى الانجرار وراء الفكر المذهبي المسبق ومحاولة فرضه على تأريخهم، كطريقة لبقة لأعطاء تأريخهم الصفة المعجزية والمقدسة أو منح اساليبهم الدعوتية التي مارسوها صفة الاستيعاب والشمول لكل ماكان ويكون من اساليب العمل والتخطيط الدعوتي وتلك طريقة منحرفة تسيء الى تأريخ أهل البيت (ع) أكثر مما تحسن اليه..

سادساً: التخلص من التناقض الظاهري «الشكلي» الذى تعكسه الدراسة التجزئية لتأريخهم (ع) باعتبارها تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، فتباين اساليب العمل عند الائمة (ع) لا تعني امورا مزاجية او مصلحية، تخضع لأهوائهم ومشتياتهم او ميولهم العاطفية بل هي تعبير، عن الأخذ بشروط الحكمة فيما تمنحه لهم الفرص الموضوعية والاستعداد للقيام بهذا العمل أو ذاك ولهذا نرى أن الأسلوب المفضل لدعوة الائمة (ع) في ابعادها «الزمكانية» والموضوعية، تكون معقولة ومجدية في وقت معين، ومفروغة من جدواها ومعناها في ظرف آخر، لأن هناك ظروفاً وملايسات تفرض اشكالاً مغايرة ومتنوعة في التنسيق والوعي العملي للتغيير.

ومن هنا تبرز أهمية الدراسة الترابطية التوحيدية لدور الأئمة في الحياة الإسلامية والتي من شأنها إبراز المكانة الحقيقية لدورهم العظيم، وهي دراسة اتبعت التقسيم المرحلي في اكتشاف أبعاد جديدة وأعماق بكر، ذات مضمون جديد، تنسجم مع التطلعات التي يحملها الإنسان المسلم المعاصر إلى مجتمع تسوده دولة إسلامية كريمة.

وهذا كانت نتائج المنهج الترابطي نتائج مرتبطة دائماً بالصيرورة التاريخية وحركة التاريخ، لأنها تمثل المعالم والاتجاهات المعاصرة لحركة الإنسان الداعية.

فوظيفة المنهج الترابطي دائماً وفي كل مرحلة، وفي كل عصر، تحمل بالضرورة تراث البشرية التاريخي الذي عاشته ويحمل أفكار عصره ويحمل المقولات التي تعلمها في تجربته العملية، ثم يضعها بين يدي تأريخ وممارسات الأئمة المعصومين (ع) ليحكم ويستنتج من خلال هذه الخصلة على اختيار أقرب الأساليب العملية إلى نفوس الناس واذهاهم فقد يصلح الوعظ والارشاد في بيئة اجتماعية، بينما يثمر العمل السياسي على ضوء الإسلام في بيئة أخرى، وقد يؤتي العمل المسلح ثماره البانعة في مجتمع ووقت معين في حين لا يفي مثل هذا الأسلوب في مجتمع آخر.

وبهذه المنهجية الترابطية، نتعلم كيف يلتحم تأريخ أهل البيت (ع) بالواقع المعاش، يلتحم بالحياة، لأن صناعة التأريخ المعاصر تبدأ معاشته من خلال ممارسة الواقع المعاش، وتنتهي إلى تأريخهم المشرق (ع)، وتاريخ ائمتنا (ع) بالنظرة التوحيدية ليس تأريخاً منعزلاً عن الواقع المعاصر وغير منفصل عن تراث البشرية، بل هو تأريخ يبدأ بالبحث في الواقع لينتهي مستنيراً بخطوات الحركة التغييرية التي مارسها خط الإمامة، بالحدود التي تسمح بها ظروف الإنسان في المرحلة الراهنة مستفيدين من تجارب الآخرين في العمل الاجتماعي، إسلاميين كانوا غير إسلاميين «ضمن إطار المبادئ الإسلامية طبعاً» لاغناء تجربتنا في العمل التغييرى بذلك.

وهذا الفهم والقرأة يبقى لتأريخهم (ع) حينئذ قدرته على القيمومة دائماً على حركتنا التاريخية، وقدرته على العطاء المستجد دائماً وقدرته على الابداع، فن هنا كان المنهج الترابطي قادراً على إثراء وتطوير تجربتنا التاريخية المعاصرة، بعد المعاناة والتأمل الجيد على ضوء التجربة العملية المعاصرة، ويجعل هذا الثراء محمولاً إلى فهم دقيق لتأريخ الأئمة المعصومين

من أهل البيت (ع).

هل المنهج الترابطي يلغي المنهج التجزيئي؟

المنهج الترابطي لم يكن بديلاً يستغنى به عن المنهج التجزيئي، بل إن المنهج التجزيئي هو خطوة أولى ضرورية للانتقال بها إلى النظرة الترابطية (التوحيدية).

فالنظرة التجزيئية تمثل (الثابت) في فهم العرض التاريخي ونصوصه، في حين يمثل المنهج الترابطي الخطوة (المتغيرة) والشمولية كخطوة تالية لها، ويتفاعل المنهجين «الثابت والمتغير» والجدل بينهما، نكون قد أرسينا العلاقة الصحيحة والرؤية المثلى لعلاقة المؤرخ بالماضي للوصول إلى الحاضر، وجعل التاريخ ودراسته أداة فعالة «تغييرية» في يد الإنسان الثوري.

فالمنهج الترابطي خطوة متقدمة، في — سياق التحليل التاريخي — تلي المنهج التجزيئي الذي يكتفي — عادة — بإبراز الأحداث التاريخية التفصيلية، ليحاول بعدها المنهج الترابطي أن يستحصل أوجه الارتباط بين مدلولات الأحداث التاريخية وتطورها عبر مراحل عمل تتميز بأهداف موحدة تعززها ضرورات تطور حركة التاريخ، بفعل عملهم وتخطيطهم (ع) واكتشاف دور مشترك مارسه الأئمة (ع) جميعاً ضمن أبعاد البيئة (الزمكانية) باعتبارهم سلسلة متصلة الحلقات «كتاب الله الناطق» ولأنهم يحملون همّ رسالتهم الأمر الذي جعل من ممارستهم وحدة متكاملة تهدف إلى بناء العقيدة وتكريس دورها في الحياة، وهذه المنهجية هي التي تجعل كل إمام يحتل موقعه المناسب من تلك الحلقات المتسلسلة.

فالمنهج التوحيدي يتقدم خطوة على المنهج التجزيئي بقصد الحصول على الدور الواحد والهدف المشترك، وهناك الكثير من الجوانب والدراسات التي يمكن أن يتناولها أو أن يكشف عنها المنهج الترابطي كدراسة محاولة الأئمة (ع)، في شد الأمة إلى الإسلام وممارستهم لتحقيق ظاهرة التفاعل بين الأمة والإسلام والتركيز على ظاهرة الأسلوب لتحقيق هذه الدراسة وبشكل متكامل لدى كل إمام من الأئمة (ع)، فعلى سبيل المثال موقف الإمام علي (ع) إزاء الحكم، الذي تمثل بموقف الصبر والمداواة ودعم التيار السياسي حتى أصبح بمثابة السلطة التشريعية للخلفاء طيلة خمس وعشرين سنة، وليس هذا من باب إقرار سياسة الأمر الواقع أو الميكافيلية السياسية، وإنما هو الأسلوب الأمثل الذي حقق به

المصلحة الإسلامية العليا، والموقف الأفضل من طبيعة الواقع الفكرى والنفسى الذى عاشته الأمة الإسلامية آنذاك طيلة هذه الحقبة من حياتها.

وكان هناك أسلوب آخر في موقف الإمام علي (ع) بعد مصرع الخليفة عثمان بن عفان، لأن الواقع الفكرى والنفسى للأمة، قد استجدت فيه متغيرات بحيث أصبحت هذه الأمة قادرة على تشخيص الخطاء ومواجهة انحراف الحكام، وقد أدركت وظيفتها الحقيقية، ودورها الفاعل الذى أراد لها الإسلام أن تلعبه، فتغيير الممارسات والاساليب العملية لدى الامام (ع) انما جاء تبعاً لطبيعة الظرف الجديد والتي آلت اليه حالة الأمة.

أما عندما وصلت الخلافة الى الإمام الحسن (ع) وتصديه لمسؤولية الحكم، كانت الأمة آنذاك بفعل ظروف موضوعية سابقة لحكمه، قد انهكتها الحروب الداخلية، حيث أصبحت الحرب لأول مرة في تاريخ المسلمين حرباً إسلامية - إسلامية بين وجوه المسلمين أنفسهم «طبعاً البغاة منهم» فأصبحت الأمة بحالة من الشك العاصف مغبّساً الرؤية على المسلمين «غير الواعين» حيث أصبحوا لا يميزون الحق من الباطل فجاء الامام الحسن (ع) بصلحه وقراره الصائب بأن يهادن مؤقتاً، ويفسح المجال لمعاوية يستولي على العالم الاسلامي لكي يكشفه، ويكشف واقعه الجاهلي للجماهير المسلمة، ويمارس بعد ذلك أسلوباً لشد الأمة بالاسلام الحقيقي البعيد عن الغش معرقاً بذلك أولئك المسلمين البسطاء، والذين لم يكونوا يعرفون إلا ما يرون بأعينهم وحواسهم من هو معاوية؟ وما هو واقعه وواقع حكمه؟ ومن كان علي بن أبي طالب؟ وماذا كانت اطروحاته؟ هذا الاسلوب الذى مارسه الامام الحسن (ع) مع معاوية كان بمثابة خيبة أمل معاوية في تحقيق سياسته الماكرة، في دعوته الخادعة للمصالحة مع الحسن (ع) الذى أراد ان يتلبس وجه من يريد حقن دماء لمسلمين، بعد ان ادرك أن نتائج الحرب ستكون لصالحه، وهو يرى تصلب الحسن (ع) وإصراره على خوض المعركة، بهذا الاسلوب تمكن الحسن (ع) ان يخلص الأمة من حالة الشك، ولكنها لم تقو بعد على مجابهة الظالم، لأنها لم تمتلك قوة الارادة الحقيقية التي امتلكها المسلمون من جيل الخليفة عثمان، عندما واجهوا الانحراف بقوة السيف وبعدها يأتي دور الامام الحسين (ع) الذى يشترك مع سابقه من أئمة اهل البيت (ع) في شد الأمة الى الاسلام فأقدم على تحريك الضمير الثورى وممارسة تأنيب الضمير باستشهاده الفاجع، من خلال احداث هزة عنيفة في

الأمة، لإحياء واقعها على مواجهة واقع الانحراف، فما كان من إمامنا الحسين (ع) إلا أن يمارس أسلوب العطاء الدموي في هذه المرحلة.

وعند ما تصدّى الإمام السجاد (ع) إلى تربية الأمة وشدها بالإسلام فإنه استثمر شفاء الأمة من مرحلة الشك وإيقاظ ضميرها مرفداً الأمة بالمفاهيم الفكرية والعاطفية عن طريق الدعاء والتضرع إلى الله، لترسيخ المفهوم الإسلامي في وجدان الأمة، أي أنه استثمر الحالة النفسية والفكرية لما كانت عليه الأمة بعد ثورة الحسين (ع) فاختار الأسلوب الأمثل لمواجهة مثل هذه الحالة.

وفي زمن الإمامين الباقر والصادق (ع) تحول الأسلوب إلى ثورة تنظيمية في رصف صفوف الشيعة كطلبة للأمة الإسلامية وإلى مدرسة علمية متعددة الجوانب، في ظرف حاولت فيه السياسة الغاشمة إبعاد الأمة عن إسلامها بالأساليب الفكرية الدخيلة وإغراقها بمدارس فقهية منحرفة ومندوسة، ومترجمة، وتصورات خاطئة، حتى أصبحت في وضع تحتاج فيه إلى تيار علمي يعمل على شدها بعقيدتها ويفند كل المزاعم الفكرية والمقولات الوافدة، وبقي تيار الإمامة والقيادة الحقيقية الكفوءة يقود الأمة باتجاه تمسكها بالإسلام وفق الأساليب النافعة التي تحقق مثل هذا الهدف الكبير، وحتى عندما وصل الأمر إلى الإمام المهدي (عج) فإنه لم يترك الفرصة دون التأكيد على دور القيادة في حياة الأمة، فهدى بها ظاهراً السفراء الأربعة، ثم ربط الأمة بعد ذلك بتيار العلماء الواعين القادرين على تحقيق الأهداف الكبيرة والتي نذر الأئمة الأطهار (ع) حياتهم من أجلها.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن الفصل بين المنهجين المذكورين، ليس حديداً على مستوى الواقع العملي لعملية دراسة التاريخ، على ضوء حاجة المنهج الترابطي إلى نظرة تجزيئية للتأريخ لتحديد نظرته الشمولية في استيعاب المدلولات التجزيئية التي ينبغي التعامل معها ضمن إطار موضوع الذي يريد درسه ومبحثه.

المنهج التجزيئي عامل عاقبة!

سلبياً، دون أى افتراض لدور مشترك، وعامل موحد لاساليب عملهم المترابطة الاجزاء، وباعتبارهم امتدادا لرساليا لمواصلة القيادة الاسلامية في بناء الأمة، بل تقتصر النظرة التجزئية بالوقوف في حدود دراسة كل امام، باعتبارهم حلقات منفصلة وهذه قد تظهر للوهلة الاولى تباينا في السلوك — من الناحية الشكلية — بين الأدوار التي مارسها الائمة (ع) دون ان يدرك القارئ، لما ذا هادن الحسن (ع) ولما ذا ثار الحسين (ع) .. الخ، وهنا تظهر خطورة الاكتفاء بالمنهج التجزئي في دراسة تأريخ أئمتنا (ع)، حيث انها ستقدمهم للقارئ كقادة من السياسيين التقليديين الذين يحترفون العمل السياسي لتحقيق مطالب شخصية، أو عائلية، أو حزبية، إضافة إلى أنه قد يوقننا هذا الفهم في تبرير التعامل مع الواقع الفاسد.

المنهج الترابطي الأسلوب الامثل

لقد تبين قصور الاكتفاء بالمنهج التجزئي في دراسة تأريخ اهل البيت (ع)، ورأينا ضرورة ان نخطو الخطوة الثانية باتجاه المنهج الترابطي، الذى يكشف لنا العامل المشترك لاساليب عملهم ودراستهم كوحدة مترابطة الاجزاء، باعتبار تأريخهم الاسلامي حركة مناسبة في سياق المرحلة التاريخية التي عاصروها، فيحيل المنهج الترابطي مجموعة الأخبار والاحداث التاريخية المتناثرة في كتب التأريخ إلى مركبات ومجاميع تاريخية هادفة ومتناغمة مع استراتيجية اهداف عملهم المرحلي لتغيير الواقع الفاسد الذى عاشوه،

وهذا المنهج نزيل من ذهن القارئ اى تصور ضيق لتأريخ ائمة اهل البيت (ع) ونصح كل الآثار السيئة وانعكاساتها على المسلمين الذين رأوا في صلح الإمام الحسن (ع) مهادنة وتنازلا مذلا، ورأوا في الامام السجاد (ع) انعزالا وابتعادا عين الحياة السياسية.

وهذا المنهج التوحيدي يظهر تأريخ الائمة (ع) كوحدة واحدة على اعتبار انهم يمثلون كتاب الله الناطق، وفي عقيدتنا ان وجود دور مشترك مارسه الائمة جميعاً ليس مجرد افتراض نبحت عن مبرراته التاريخية، وانما هو ماتفرضه العقيدة نفسها وفكرة الامامة كامتداد لمفهوم النبوة ومواصلة دورها القيادي في الامة الاسلامية بعد الرسول (ص).

وهذا المنهج يزيل لنا كل التناقضات الشكلية والاختلافات الظاهرية، لأنها تبدو على ضوء هذا المنهج مجرد تباير مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنما اختلف التعبير عنها وفقا للظروف الموضوعية التي عاشتها القضية الاسلامية، والتي مرت بها الرسالة في عهد كل إمام

من ائمة اهل البيت (ع).

وعلى ضوء هذا المنهج الترابطي نضع ايدينا على حقيقة تاريخية، بأن الاساليب العملية التي يجب تبنيها هي ذات طابع «متغير» تبعا للظروف التي تمر بها الأمة وبناء على بعدها أو قرها من الرسالة الاسلامية.

وهذا التبدل والتنوع لاساليب عمل الأئمة (ع) يأتي بفعل الظروف الموضوعي الذي يعاصره كل امام وتشمل هذه الظروف على مايلي:

(١): حالة الأمة الفكرية والعقلية والنفسية.

(٢): حالة الأمة السياسية والاجتماعية.

(٣): درجة وعي الأمة.

(٤): علاقة الامة برسالتها وبقيادتها الشرعية.

وهناك قضية أخرى بالغة الأهمية يتناولها المنهج الترابطي، بالالتفات والاهمية الا وهي ادراك المتغيرات المطرودة والصيرورة المتجددة في حياة الناس ووعي حاجاتهم والعمل على اجتياز اقرب الاساليب العملية الى نفوسهم واذهانهم، وقد تكون هناك ظروف اخرى قد تساهم في تحديد السلوك العملي والتي قد تفرض نفسها على ممارسات ائمة اهل البيت (ع).

وفي اعتقادي ان اهمال المنهج الترابطي في دراسة الأئمة (ع) والاكتفاء بالمنهج التجزيئي، يجعل الصورة التاريخية لعملهم وجهادهم مشوهة وقلقة وناقصة، ومن هنا «اضحى التأريخ عندنا - بالنسبة الى الجماهير - مجرد انعكاس لحياة - سابقة لايسهم في تكوين الشخصية الانسانية المتكاملة»^(١)، ويبدو لي ان اعتماد المنهج الترابطي هو المنهج الامثل في التعامل مع تأريخ الأئمة (ع)، فإن تأريخهم قد تعرض الى الكثير من التشويه والتفريق من المؤرخين قديما، والذين كانوا يملقون السلطة او يخافون منها، ومن المستشرقين حديثا وتلامذتهم، حيث الغزو الثقافي الاستعماري.

خلاصة البحث:

نستخلص من المنهج الترابطي، بأن هناك دورا مشتركا في تأريخ الأئمة (ع) وموقفا

١. ثورة الحسين (ع) / محمد مهدي شمس الدين، ص: ٢٩٣.

عاما وقفوه في خضم الأحداث والمشاكل التي اكتنفت الرسالة بعد انحراف التجربة الاسلامية واقصائهم عن مركزهم القيادي في زعامتها، وأن أسلوب العمل الرسالي في التغيير ليس اسلوبا جاهزا نتقاه مباشرة وبصورة حرفية من خلال الأخبار والمرويات المنقولة في كتاب التأريخ بشكلها الجزأ أو ان نلغي وعي عقولنا تجاه تأريخهم (ع) وانما المطلوب هو اثراء تجاربنا وأساليبنا العملية من معطيات تجاربهم العملية الثرة، لأن اساليب العمل تتنوع دائما حسب اختلاف الواقع الموضوعي الذي تعيشه الدعوة وتتكيف لاجوائه.

ومن هنا كان لزاما على الدعوات التغييرية ان تمتلك منهجا تتبعه في فهم وتحليل التأريخ حتى تتمكن من استخدامه كأداة فعالة، لادراك ما حولها من مواقف وظروف موضوعية، وتضعها موضع التخطيط المدروس من اساليبها العملية والاهتداء بتجارب عمل الائمة (ع) دون الجمود أو الوقوف على تجربة بعينها من تجارب الائمة (ع) متجاوزة بذلك الواقع الموضوعي الذي تعيشه، وما تفرضه علينا حاجتنا العملية للتغيير والاستفادة من كل اسلوب ينسجم مع ما نتبناه في طريق عملنا للتغيير الاسلامي الشامل.

والدراسة الترابطية لاعمال الائمة (ع) تدلنا على حقيقة أخرى، تظهر من خلال مباشرتهم لعملية التغيير ألا وهي فشل كل الأعمال الفردية المبعثرة والمعزولة عن ساحة الجماهير العريضة، والتي لا تحقق في خط تغييرى واحد، بل لابد من صفوة داعية واعية تهتد بمسيرة التغيير الاسلامي الكبير، بعد أن تلاحظ واقعها الخارجي الذي تعيش فيه وتدرس ظروفه العقلية والفكرية والنفسية والاجتماعية وتضع كل ذلك في حسابها قبل أن تبدأ بالعمل.

أما تقييد عواطف الجماهير الملتببة واستغلال ظروف الساحة الآنية وتحويل الفكرة للأفراد لصفاتهم الشخصية دون العمل الشامل والمتفاع مع قوى الساحة الفاعلة فهي بالضرورة من الاعمال الجزئية التي لا تحمّل إلا بذور فشلها وسقوطها.

فعملية التغيير التي مارسها الائمة (ع) لم تقم في يوم من الأيام على الجمع العددي لشحون بعواطف ومشاعر خادمة ومهزوزة، تلهمهم الخطابات الرنانة وتمحصهم التجربة الصعبة بالانزمام والانكفاء عن التضحية، وانما لابد للاعداد هذه من أن تجسد عمق الفكرة، وان تدك عواطفها بجاهيم الرسالة ونبل اخلاقيتها حتى تحركها التضحية والاخلاص من

أجل سيادة الفكرة والوصول إلى نيل رضوان الله تعالى.

فإنظرة التوحيدية لعمل، ترتبط دوماً وأبداً بالواقع الموضوعي المعاش وتخضع بالتالي للشروط الخارجية فهي ترتبط وبشكل ادق وتتوحد بمنطقه العمل الدعوي والأمة التي نريد أن نعمل في صفوفها ووسطها.

والأمة على ضوء المنهج التوحيدي، لا يمكن أن تثبت على حالة واحدة بحيث نتجه إليها بأسلوب عمل واحد لا يتغير ولا يتجدد.

فعدالتنا اذن تقوم على اساس ان الأمة تتغير «الجانب المتغير» والاسلام لا يتغير «الجانب الثابت» والأمة اليوم ليست الأمة بالأمس بمستواها الفكري والاخلاقي وعلاقتها النفسية والاجتماعية وأوضاعها الاقتصادية، وفي كل ظروفها التفصيلية الاخرى.

وعليه فلا يجوز للداعية ان يتعامل مع الأمة اليوم كما يتعامل مع الأمة بالأمس بل عليه أن يأخذ في عين الاعتبار كافة الظروف والتغيرات التي تحيط بالأمة، لأن مضمون تطوراتها وتغييراتها هو الذي يحدد جوهر التخطيط السليم لعمل، منفتحة من خلاله على طاقات الأمة الخلاقة ولا بد من التحرر من نزعة التمسك الحرفي بأساليب العمل، والتي تجعلنا نعيش مع امة قد مضى وقتها وانتهت بظروفها وملابسها.

ولكي نتجه اتجاهاً سليماً في تفكيرنا يلزمنا اعتماد المنهج التوحيدي (الترابطي) وان نتجاوز طريقة الطرح والتفكير المجزأ وان نعتمد على الشمولية في التفكير وذلك عن طريق تعميق خبراتنا وتجاربنا.

وهذا المنهج الشمولي يمكن تقديم تاريخ أهل البيت (ع) من تأريخ معزول سياسياً عن حياة المسلمين الى تأريخ فاعل وإلى حركة تغييرية مجاهدة تستهدف تقديم الإسلام كرسالة حاكمة في دونة كريمة تغزّ الاسلام واهله وتذل النفاق وأهله، جاعلة من الإسلام رسالة منفتحة على كل مجالات حياة الأمة وآمالها وآلامها.

والمنهج (الترابطي) هو المنهج المفضل — والذي — سنترسم خطاء بقدر الامكان — بالاستعانة من المنهج التجريبي ايضا في دراستنا هذه السلسلة من تأريخ أئمتنا التي بين يديك — قارئ العزيز — وهو الكتاب الاول والثاني، وهي محاولة جديدة — بكر — نرسم بها خطى المنهج الترابطي لإعادة قراءة تأريخ أهل البيت (ع).

والمهم في محاولتنا هذه، هو اعتماد المعلومات الواردة عن حياة اهل البيت (ع) في المصدر التاريخي الإسلامية الموثوقة وعدم تشويهها أو بترها أو اقحام معلومات جديدة على تاريخهم لم تقع أبداً بحجة أو باخرى، الأمانة الإسلامية في نقل الروايات مطلوبة للغاية، ونحن مسؤولون في محاولتنا هذه تصنيف المعلومات الواردة وتحليلها واستنتاج الدروس والعبر التي تفيد امتنا الإسلامية حاضرا ومستقبلا.

ونستطيع ان نقول ان مكتبتنا الإسلامية، ما زالت فقيرة الى الدراسات المتعمقة في مجال المنهج الترابطي الشمولي، والى القراءة لاسلامية الجادة لحياة ائمتنا العظام (ع). ومن هنا تأتي ميزة المحاولات ذات المنهج الترابطي في فترة نحن احوج ما نكون فيها لتعرف على كنوز تاريخنا وتنمى عوامل الصحة الإسلامية في بناء الدولة الكريمة.

الهدف من هذه الدراسة:

أما العظمة التي نستلهمها من خلال دراسة «سيرة الائمة (ع) في العمل من أجل الرسالة» فتندرج تحت لنقاط التالية:

أولاً: ان الرسالة الإسلامية بتبنياتها المختلفة في الفكر والعمل ذات طابع حضارى ثابت لا تخضع للمساومات والتغيرات في دنيا لانسان.

ثانياً: انه يجب الفصل بين ماهو فكر إسلامي عملي (ثابت) وما هو اسلوب من اساليب العمل (المرن) التي سلكها الرسول (ص) أو احد الائمة (ع) من بعده «ويعني ذلك أن النبي (ص) والائمة لهم شخصيتان، الأولى بوصفهم مبلغين للفكر الإسلامي «العناصر الثابتة في التشريع الإسلامي» عن الله تعالى، والآخر بوصفهم حكّاماً وقادة للمجتمع الإسلامي يضعون الاساليب العملية «العناصر المتحركة المرنة التي يستوحونها من المؤشرات العامة للإسلام، والروح الاجتماعية والانسانية للشرعية على ضوء ادراكهم للواقع، وعلى هذا الأساس كان النبي (ص) والائمة (ع) يمارسون تحديد الأساليب العملية في مختلف شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، وهذه الاساليب بحكم صدورها عن صاحب الرسالة أو ورثته لعصوميين، تحمل بدون شك الروح العامة لموقف الإسلام، وتعتبر عن تطبعاته في واقع الحياة وعلى العاملين الإسلاميين الاستفاده من هذه الاساليب بقدر ما

لا يكون مشدوداً إلى طبيعة المرحلة الاجتماعية والسياسية التي رافقتها»^(١).

هذا اللون من التميز الذي أشرنا إليه يعيننا على التخلص من ظاهرة الجمود الحرفي عند بعض المواقف التي كانت تجسد الطريقة المثلى في الظروف التي ساهمت في وجودها.

ثالثاً: أن ندرك بعمق أن الأساليب العملية التي يجب تبنيها هي ذات طابع متغير، تبعاً للظروف العقيدة والفكرية والنفسية للأمة، وبناءً على بعدها أو قرها من الرسالة من الوجهة الالتزامية وطبقاً لبعد الأمة أو قرها من السلطة الزمنية.

رابعاً: إدراك التغيرات المطردة في حياة الناس ووعي حاجاتهم الآنية والعمل على اختيار أحسن وأقرب الأساليب العملية إلى نفوسهم وأذهانهم.

خامساً: الاستئارة بخطوات الحركة التغييرية التي مارسها خط الإمامة بالحدود التي تسمح به ظروف الإنسان في المرحلة الراهنة، لأن تأريخهم (ع) بهذا الاعتبار شيء متحرك في عقل الأمة وعاطفتها، وليس لونا من الحركة العاطفية أو موقف حماس وخطابة أو تعامل مع سنن خارقة ومعجزات، بل أنها عقيدة راسخة، ونظرة معصومة وخطط محكمة، ودراية متبصرة، وحسن قراءة للظروف والامكانيات وانسجام بين السنن والقوانين التي شرعها الله تعالى.

وفي الختام، نرجو من الله تعالى أن يكون بحثنا هذا بمنهجية الشمولية بحثاً يثير الرغبة في المزيد من البحث، والمزيد من تسليط الضوء على حقيقة تأريخهم العظيم (ع) راجين من القراء الكرام أن يتفضلوا علينا بالتوجيه أو الاقتراح على ماورد في الكتاب من خطأ أو عيب أو نقص «فالمؤمن مرآة المؤمن».

ونسأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا مرضياً لديه وأن ينفع به.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

١٥/شوال/١٤٠٣

القسم الأول

دور الأئمة «ع» في التاريخ الإسلامي

الفصل الأول:

من غير المشكوك فيه أبدأ ان الرسول(ص) رحل إلى جوار ربه تعالى، وهو لما يستوف بعد المهمات التاريخية المناطة بالرسالة الاسلامية على المستوى النظرى والعملى معا. «فعلى الصعيد النظرى لم يتسن للرسول(ص)، أن يبين للأمة الاسلامية سوى الخطوط العريضة للتشريع الإسلامى مضافا إليها بعض التفصيلات الفقهية لعدد من المسائل الحياتية لإنسان الإسلام»^(١) فرداً وجماعة.

أما على المستوى العملي فإن الدعوة الانقلابية التي كان الرسول(ص) يباشرها لتغيير الواقع الاجتماعى فكراً وعملاً، وانشاء الانسان الرسالى الجديد في فكره ومفاهيمه وانماط سلوكه، هذه المهمة لم تتحقق هي الأخرى للرسول(ص) حتى على مستوى مجتمع عاصمة الدولة (المدينة المنورة) فضلا عن أقاليم الدولة الاسلامية الأخرى كما يتضح ذلك من مجموع الأخطاء والسلبيات التي طفحت على سلوك عدد من الصحابة فضلا عن عامة الناس «اذ لم يمض ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة الاسلامية التي تولى جيل المهاجرين والأنصار قيادتها تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجهها اعداء الاسلام القدامى، ولكن من داخل اطار التجربة الاسلامية لا من خارجها، اذ استطاعوا ان يتسللوا

الى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ويستغفلوا القيادة غير الواعية، ثم صادروا بكل وقاحة وعنف تلك القيادة، وأجبروا الأمة وجيلها الطبيعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادته، وتحولت الزعامة الى ملك موروث يستهتر بالكرامات، ويعطل الحدود ويجمد الاحكام واصبحت الخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني امية»^(١)

ومن المنقطع به أن قصر الفترة التي عاشها الرسول(ص) بين ظهوراني مجتمع المدينة لم تكن فيها الكفاية لتحقيق العملية التغييرية في ذلك المجتمع، ومن هنا فأن من بداءة الامور أن يتخذ الاسلام موقفا ايجابيا لضمان سلامة خط سير الحركة الاسلامية التاريخية وصحة بناء الأمة الإسلامية وتعميق وعيها وانفتاحها على مطالب الرسالة الإلهية... وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال ان لم تعهد القيادة الفكرية والسياسية الى اشخاص ينهضون بالدور الذي نهض به الرسول القائد(ص) ويكون لهم من المؤهلات والصلاحيات مايمكنهم من مواصلة الحركة التغييرية التي بدأها الرسول(ص) في الأمة على الصعيد العملي وبيان الاحكام الاسلامية التفصيلية في الحوادث المستجدة في مسيرة الامة على الصعيد الفكري والتشريعي.

ومن خلال هذا الوعي ينبثق خط الإمامة في الإسلام ليقوم الأئمة من خلاله بدورهم الطبيعي في دفع حركة الاسلام التاريخية باتجاه تحقيق أهدافها التغييرية الكبرى في دنيا الناس.

وما تجدر الإشارة اليه هنا أن خط الإمامة لم نكن لنعيه من خلال الضرورة التاريخية التي تفرضه كامتداد طبيعي للرسالة لابد منه لحماية الاسلام والأمة فحسب ولكنه إلى جانب ذلك يظل خطا تشريعيا ذا أبعاد محدودة طرحته الشريعة الإسلامية من خلال موقفين للرسول(ص):

أحدهما: (عملي): تمش في تبتيه للإمام علي(ع) منذ طفولته واعداده إعداداً روحيا ورساليا خاصا، ومارس توعية الامام على المستوى القيادي للدعوة من بعده ليكون اهلا لتولي مهام القيادة الفكرية والسياسية في الامة بعد غياب الرسول(ص) «فقد كان النبي(ص) يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها ويبدؤه بالعطاء الفكري والتثقيف اذا استنفذ

الامام اسئلته ويحتلي به الساعات الطول في الليل والنهار يفتح عينيه على مفاهيم الرسالة، ومشاكل الطريق ومناهج العمل الى آخريوم من حياته الشريفة»^(١)

روى الحاكم في المستدرک بسنده عن أبي إسحاق:

«سألت قثم بن العباس كيف ورث علي رسول الله» قال: لأنه كان أولنا به لحوقاً وأشدنا به لزوقاً».

وروى عن النسائي عن الامام، أنه كان يقول:

«كنت اذا سألت رسول الله اعطيت واذا سكت ابتدأني» ورواه الحاكم في مستدرکه ايضاً.

وقال الإمام علي(ع) في خطبته القاصعة الشهيرة، وهو يصف ارتباطه الفريد بالرسول القائد وعناية النبي باعداده وتربيته:

«وقد علمتم موضعي من رسول الله(ص) بالقرابة القرية والمنزلة وضعني في حجره، وأنا ولد يضمني الى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يضع الشيء ثم يلقمنيه وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل، ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاعتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة».

وثانيهما: (فكري) تمثل بالبيانات الرسمية التي أطلقها الرسول (ص) في ظروف

ومناسبات مختلفة، لابرار خط الامامة في الحياة الاسلامية، كحديث المنزلة:

«اما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، الا انه لانيبي بعدي»^(٢)

وخطبة الغدير التي جاء بها:

«من كنت مولاه فهذا علي مولاه»^(٣)

وحديث الثقلين:

١. المصدر السابق

٢. ٣. المراجعات/شرف الدين

«اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وانها لن يفترقا حتى يردا على الحوض»

وكذلك تأكيدات المتكررة (ص) تصريحاً او تلويحاً على الدور الذي كان ينتظر الإمامين الحسن والحسين حتى ليطرح بأنهما عليهما السلام «امامان قاما او قعدا»^(١) كما انه يقول لهما: انتما الامامان ولأماكما الشفاعة^(٢)

وهكذا يفرض خط الامامة في الحياة الاسلامية حتمية من خلال الضرورات التاريخية والشرعية ليكون متمماً لخط الرسالة فيها في الجانب النظرى والعملى على حد سواء. وكان من المفروض على القيادة الاسلامية لهذه التجربة ان تواصل على يد الامام علي(ع) ويد خلفائه من ائمة اهل البيت(ع) غوها الثورى واحداً بعد الآخر، وتقرب نحو اكتمال هدفها التغيرى في اجتثاث كل رواسب الماضى الجاهلى وجذوره، وبناء امة جديدة على مستوى متطلبات الدعوة ومسؤولياتها.

وهكذا برزت اهمية خط الامامة — بغض النظر عما ذكرنا في التأريخ الاسلامي عملياً بعد الحيلولة دون مباشرته لهما — اهمية خط الامامة — بغض النظر عما ذكرنا في التأريخ الاسلامي عملياً بعد الحيلولة دون مباشرته لهما —

احدهما: النطاق التشريعي: فإن مواجهة الامة لحاجات جديدة لاعهد لها بمثلها ايام التنزيل المبارك، قد حتم على ولاة الأمر بعد الرسول(ص) أن يضعوا حلولاً ويقترحوا تشريعات تحمل الطابع الذاتى في الاعم الاغلب، فالتجأوا الى (الرأى) فيما لانص فيه من خلال مفاهيم الاستحسان والقياس والمصالح المرسلة وغيرها^(٣)، التي قادت الى تبني احكام مخالفة لمفاهيم اسلامية اصيلة، وقد صدرت تلك من صحابين كبار ثم تتابع مسير العملية المذكورة، فأدى الى تحريفات خطيرة في التشريعات الاسلامية كما في العهد الاموى، على ان هذا اللون من الاجتهاد قد تحول الى مدرسة معروفة كان قوام تفكيرها «العمل بالرأى»^(٤) وقد جوهرت مدرسة الرأى برد فعل عنيف في الاوساط الفكرية مما ادى الى ظهور مدرسة

١. ٢. راجع كتاب الحسن/العالمى، ص: ١١

٣. راجع سلم الوصول الى علم الأصول/عمر عبد الله، ص: ٢٩٥

٤. مجلة النجف/كلية الفقه/عدد ٩٢٨، ص: ٨٢ وما بعدها

«الحديث» في الحجاز «والتي كانت تفضل أن تظل محافظة على المأثور من الحديث واجتهادات الصحابة والتابعين من بعدهم»^(١) ولاعتقاد روادها ان العودة الى الحديث كافية وحدها لتحقيق حماية الرسالة من التميع الذي عانت من انصار مدرسة الرأي.

وللمرء ان يقدر خطورة الموقف الذي عانت منه الشريعة وهي تعيش بين مدرستين احدهما ذات طابع يتخذ الذاتية والرأي قاعدة له ومبرراً دون ان تنقيد بما يعتبره الشارع في الاجتهاد، وكان في ذلك شيء كثير من الجرأة على الشريعة والتصرف بموازينها ومقاييسها التي تخرج عن تناول الفكر والرأي^(٢).

وأخراهما: ذات طابع جامد لم يلق للحوادث المستجدة في حياة الانسان بالا وانما تتوقف عند النصوص فحسب دون الأخذ بنظر الاعتبار ظلالها وإيحاءاتها وتطورات الحياة «والاعراض عن كل شيء ماعدا الكتاب والسنة كما يذهب الى ذلك داود وغيره من الظاهرية»^(٣) الأمر الذي يبرز اهمية خط الامامة في الحياة الاسلامية على الصعيد التشريعي لحماية الرسالة من مزالق الاتجاهين اتجه «إدخال عنصر الرأي في مصادره التشريعية حيث يفقد التشريع صلابته وقوته واصالته الاسلامية التي هي من خصائص التشريع الاسلامي، واتجاه «مدرسة الحديث» التي ذهبت الى تجميد الشريعة والأخذ بظاهر النصوص، حيث افقدت التشريع خاصيته على المرونة وقابليته لسايرة الظروف الاجتماعية المختلفة»^(٤)

ثانيهما: النطاق العملي:

من المعلوم — تأريخنا — أن الاسلام جابه، بعد وفاة الرسول (ص) انحرافا خطيرا ومبكرا في صميم التجربة الاجتماعية والسياسية التي أنشأها النبي (ص) للمجتمع والامة الاسلامية وما كاد خط الامامة في الحكم يقضى عن الحياة الاسلامية ويستبدل بأطروحة جديدة في الحكم «أطروحة السقيفة» — حتى بدأ الانحراف عن الخط الاسلامي يتسرب الى

١. الآصفي/في مقدمة كتاب الاجتهاد والتقليد/ميرزا غلام رضا، ص: ٨

٢. ن. م، ص: ١٩

٣. ن. م، ص: ١٩

٤. ن. م، ص: ١٩-٢٠

٥. راجع ما كتبناه في موضوع منطق السقيفة من هذا الكتاب،

مراكز التوجيه الفكرى والاجتماعي والسياسي، حتى وثدت التجربة الاسلامية الأصيلة، واستبدلت بحكم قبلي وراثي بدأ بتعطيل الحدود ومصادرة روحية الشريعة وتكدير صفاتها وقد تجسد ذلك بالحكم الأموى والعباسي وما تمخض عنها من مآسي وويلات ومزالق خطيرة وإبعاد للأجيال عن اهداف الرسالة وطابعها السماوى الصميم.

وكان من المتوقع — بحسب طبيعة الأشياء — ان يتسع ويتعمق الانحراف بالتدريج وذلك بمرور الزمن، لأن الانحراف يبدأ صغيراً ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة تزداد وتكبر وكلما تحققت مرحلة من هذا الانحراف، مهدت الى مرحلة اوسع منها، في المراحل التي تتلوها.

وبحسب منطق الاشياء، كان من المفروض أن يصل هذا الانحراف ويتنامى في خط منحني ضمن عملية تاريخية وزمنية «طويلة المدى» إلى الهاوية والانهار التام، بحيث تصبح التجربة الاسلامية للمجتمع والدولة مليئة بالتناقضات، حتى تكون التجربة عاجزة كلية عن تلبية الحد الأدنى من حاجات الأمة ومصالحها الحيوية.

ومعنى انهيار «التجربة الاسلامية» بالتدريج — ودون أن يقهر انحرافها أحد — إثبات عجزها وقصورها مرة تلو أخرى، حتى تصل إلى إعلان إفلاسها وعجزها الكامل عن مواكبتها للحد الأدنى للقضايا التي تتبناها أمام الجماهير وللرسالة التي تعلن عن مضمونها

وحيثما يتفاقم أو يتسلسل الانحراف في خط تصاعدي فن البديهي أن يصبح فهم تسلسل الأحداث هذه التجربة بأنها ستتعرض بالضرورة عاجلاً أم آجلاً لانهيار كامل وتحقيق، أى ان الدولة والمجتمع والحضارة الاسلامية، كقيادة للمجتمع ستتعرض للانهيار والسقوط، لأن التجربة عندما تصبح مشحونة بالتناقضات تكون عاجزة حتماً عن مواجهة وظائفها الحقيقية في حماية نفسها وفي بناء الدولة والمجتمع المنشود.

وحيثما تصل التجربة الى هذا الوضع المتردى من السقوط تصبح عاجزة عن حماية نفسها، وتصبح الامة بدورها ايضا عاجزة عن حماية هذه التجربة في مكتسباتها الالهية.

ومعنى ان تكون التجربة عاجزة عن حماية نفسها لأنها تكون في وضع قد استنفذت اهدافها وامكانياتها على الديمومة والبقاء على مسرح التاريخ، لأنها اصبحت مفضوحة في

عجزها وعقمها وواضحة الخطاء، والتجربة الفاشلة لا يمكن ان تستمر على مسرح التاريخ لأنها لا تستحق الحياة.

ومعنى أن الأمة ليست على مستوى حماية التجربة، لأن الامة لا ترى أى فائدة منها ولا تنجي منها خيرا أو بركة ودون ان تحقق لها الآمال التي كانت تصبوا اليها. ولهذا لا ترتبط، هذه التجربة باى ارتباط حقيقي مع الامة، والامة على غير استعداد لأن ترتبط بالتجربة ارتباطا مصيريا يقودها الى تكرار الفشل والسقوط.

وعلى ضوء ماسبق نصل الى نتيجة مفادها بأن التجربة لا بد لها ان تنهار في مدى من الزمن، وذلك كنتيجة نهائية وحتمية لبذرة الانحراف التي غرست فيها، وانهيارها يعني انهيار الدولة الاسلامية وقيمها الحضارية، وتحليها بالضرورة عن قيادة المجتمع الاسلامي والعالمي معا وإقصائها عن مركزها كقائد للمجتمع والامة الاسلامية.. ولكن الامة الاسلامية — كأفراد — ستبقى طبعاً، لأن التجربة في المجتمع والدولة هي التي تفشل وتخطئ وبالتالي تنهار امام اول من يغزوها ويخطط لمهاجمتها، كما حصل معها امام الغزو التتري الذى واجه الخلافة العباسية، ولكن الامة بقيت كفرد (مسلمين) ولكن — بحسب منطق — الاحداث وتسلسله، سنرى ان الامة ستنهيار هي الاخرى تبعا لانهيار تجربتها الحاكمة.

ونحن نسأل هنا لماذا ياترى ان الأمة التي تدين بالإسلام وتؤمن به وتتفاعل معه هي الاخرى تنهار تبعا لانهيار تجربتها؟ والجواب جد بسيط، لأن هذه الامة لم يتح لها أن تعيش الاسلام الصحيح بصيغته الكاملة للحياة فترة طويلة من الزمن — بل عاشت الإسلام الصحيح فترة وجيزة من الزمن، وهي الفترة التي مارس فيها الرسول(ص) قيادة التجربة، وبعد غيابه(ص) عاشت الامة تجربة منحرفة، لم تستطع وهي تعيش الانحراف ان تعمق مضمون الرسالة في الأمة وتجذر فيه روح المسؤولية اتجاه عقيدتها، ولم تتمكن من تثقيفها وتحسينها وتزويدها بالضمانات الكافية بمنع الانهيار أمام حضارة وأفكار جديدة يحملها الغازى الذى يضع في قائمة أولوياته تحطيم التجربة ومجتمعها الاسلامي مستبدلاً إياها بتقاليده ومفاهيمه الحضارية البديلة.

كل هذا سيؤثر على الأمة الاسلامية تأثيراً بالغاً، لأن الأمة لم تتعرف على إسلامها

معرفة حقيقية واعية طيلة سني التجربة المنحرفة، ولن تجد الأمة في نهاية ممارستها للتجربة المنحرفة، — بعد أن نفذت روحها واهينت كرامتها وحطمت ارادتها وغلت ايديها من قبل زعاماتها المنحرفة — ماتخصن به نفسها ضد ما يطرأ بعد انهيار التجربة، وحينئذ ستنهال الأمة ايضاً وسوف تندمج بالعالم الكافر الذي غزاها وفتحها وسيطر عليها، وسوف تصادر رسالتها وتميع عقيدتها، وتصبح الأمة في ذمة التأريخ بعد أن كانت وجوداً حقيقياً فاعلاً على مسرح التأريخ وهذا ينتهي دور الإسلام كتجربة حضارية منقذة للبشرية؟

هذا هو التسلسل المنطقي والديهي لانهيار الحضارات والدول، بقطع النظر عن دور قادتها اتجاهها.

والآن نتطرق بالتحليل إلى دور الأئمة (ع) اتجاه هذا التسلسل الانحرافي، ونتعرف على طريقة مدالجتهم لها وموقفهم منها، باعتبارهم مسؤولين شرعاً عن قهره ومواجهته لصالح الرسالة الإسلامية.

لقد واجه الأئمة من أهل البيت (ع) هذه المسألة بأمرين:

الأمر الأول: المهمة التي عاشها الأئمة (ع) في حياتهم الجهادية، هي محاولة التصدي والقضاء على الانحراف الموجود في تجربة المجتمع الإسلامي، وارجاع التجربة الإسلامية الى وضعها الطبيعي، وذلك باعداد خطة طويلة الأمد، وبتهيئة ظروفها الموضوعية التي تتناسب وتتفق مع ارجاع التجربة الى وضعها الصحيح فتمت ما كانت الظروف الموضوعية مهتأة كان أئمة أهل البيت (ع) على استعداد كامل لتحمل مسؤولياتهم في ارجاع التجربة الى مسارها الطبيعي، وهو ما فعله الامام علي (ع) وكما هو واضح من قوله (ع):

«أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما اخذ الله على العلماء الا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، وسقيت آخرها بكأس اولها ولألقيتم دنياكم هذه أزهده عندي من عفطة عز»^(١).

ويفهم من هذا القول بأنه عندما تنهت الظروف الموضوعية للتحرك والتي تجعل في

١. نهج البلاغة، الخطبة — ٣ — ص: ٥٠ صبحي الفصل.

قدرة الانسان (الإمام) أن يحاول ويعمل على إعادة التجربة الإسلامية الى وضعها الطبيعي والصحيح، وهذا يعني، الاعداد والعمل لتهيئة المقدمات والظروف الموضوعية للمتمكنين من إعادة التجربة واستئنافها في واقع حياة الامة.

ولدينا نصوص عديدة عن الأئمة (ع) توضح ان أئمة اهل البيت (ع) كانوا دائماً على استعداد كامل لخوض عمل مسلح اذا وجدت لديهم القناعة بتوفر الظروف الموضوعية وذلك بوجود الانصار، والقدرة على تحقيق الاهداف الإسلامية من وراء ذلك العمل المسلح يقول الامام الحسن (ع) بهذا الصدد: «والله اني ماسلمت الأمر إلا لأني لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهارى حتى يحكم الله بيني وبينه»^(١)

ومن الملاحظ أن أئمة اهل البيت (ع) كانوا يؤمنون بأن تسلم السلطة وحده لا يكفي لتحقيق الاهداف مالم تكن هذه السلطة مدعمة بقواعد شعبية واعية تعي أهداف تلك السلطة، وتؤمن بنظريتها في الحكم وتعمل في سبيل حمايتها وتفسير مواقفها للجماهير وتصمد في وجه الأعاصير»^(٢)

الأمر الثاني: والأمر الآخر الذي كان يمارسه الأئمة (ع) - وهم في حالة ادراكهم وشعورهم بعدم توفر أو تحقق هذه - الظروف الموضوعية - التي تهيئهم لخوض معركة في مقام تسلم زمام الحكم من جديد - ، هو العمل على تعميق الرسالة فكرياً وروحياً وسياسياً في ذهن الأمة ووعيمها، بغية إيجاد الحصانة الكافية في قواعد الامة، وذلك من اجل ان يؤثر هذا التحصين في منح الامة، المناعة الكافية في مواجهة مصير الانهيار بعد تردى التجربة وسقوطها، خصوصاً بعد حرمان الامة الإسلامية - بوقت مبكر - من ان تعيش التجربة الصحيحة بصيغتها الكاملة للحياة الإسلامية بعد وفاة رسول الله (ص) والذي كان من الضروري واللازم من ان تدعّم وتغذى رسالياً بالاسلام في جميع مجالاته الروحية والفكرية والاجتماعية والسياسية، لكي تعرف الاسلام وتستوعبه بوعي حقيقي كامل.

وليس المقصود بتعبئة الأمة - هنا - بمجموع الأمة لأن التعبئة والتغيير الرسالي الواعي لا يمكن ان يتحقق بالنسبة لمجموع الأمة الا في حالة واحدة، وهي حالة وجود قيادة سياسية تمارس التجربة على مستوى الحكم في دولة ومجتمع، ولكن المقصود من تعبئة الامة

هو إيجاد قواعد واعية في الأمة وخلق روح رسالية فيها وإيجاد عواطف اتجاه هذه الرسالة لدى الأمة. فأئمة اهل البيت (ع) في حالة شعورهم، بعدم إمكان استرجاع مركزهم القيادي من — الغاصبين — حتى وهم في هذه الحالة، كانوا يعملون بدأب من أجل إنقاذ وجود الأمة في المستقبل وضمان عدم انهيارها وتشرذمها كأمة بعد سقوط التجربة وفشلها وذلك من خلال عملهم المحلص الدؤوب باعطاء التحصين الكامل والمستمر لهذه الأمة.^(١)

المرحلة في عمل اهل البيت (ع)

قبل أن نتكلم عن مراحل عمل أئمة اهل البيت (ع) نود التمهيد ببعض الملاحظات التالية:

١/ ان التقسيمات المرحلية التي سنوردها في البحث تؤكد عادة وتؤخذ عناوينها من أهم محاور العمل المركزية وأشدها إلحاحاً لعمل أئمة المرحلة الواحدة، دون أن تنفي وجود مهمات دعوية أخرى أقل مركزية.

٢/ التقسيم المرحلي الذي نتبناه في بحثنا ليس تقسيمياً حدياً بل نسبياً يتداخل أحياناً، لأن المؤرخ لا يمكنه أن يقف على اللحظة التاريخية، فيدعي بأن هذه اللحظة هي نهاية المرحلة وبداية أخرى، وإنما هذه التقسيمات تتفق مع طبيعة الأحداث المتصورة في خط التاريخ الاسلامي. ٣/ إن اختصاص بعض مراحل عمل الأئمة (ع) بممارسات معينة لا يتعارض مع وجود نشاطات وممارسات أخرى من التحرك المشترك مع بقية أئمة المراحل الأخرى.

٤/ واقع الأمة السياسي وانفكركي والنفسي المعاصر لأئمة المرحلة والملايسات الاجتماعية المحيطة بها، كل ذلك يرسم معالم المرحلة ويؤثر على مظاهر التحرك عند أئمة المرحلة الواحدة، وكذلك نضج الأمة الاسلامية يعتبر عنصراً مهماً في تفاعل أئمة اهل البيت (ع) معها.

٥/ ان أي خطأ في تحديد المرحلة التي يمر بها الامام (ع) يؤدي الى الخطاء في تفسير مواقف ذلك الامام، وعدم الإحاطة بالظروف المعاصرة له.

١. اعتمدنا في هذا الفصل على تحليلات السيد الشهيد الصدر في محاضراته على طلبته في النجف الاشرف.

الفصل الثاني

مراحل عمل أئمة اهل البيت (ع) المرحلة الاولى

ويمكن تسمية هذه المرحلة: مجابهة انحراف الحكام أو «مواجهة صدمة الانحراف». وفي اعتقادنا أن تأريخ الأئمة (ع) يمثل امتدادا رساليا لمواصلة القيادة الاسلامية في بناء الامة، ومن خلال هذه العقيدة، يعتبر عمل الأئمة (ع) بأنه يمثل اطروحة الاسلام في حماية مستقبل الدعوة الاسلامية بعد النبي (ص).

ولكن منطق السقيفة وروحها القبلية التي تمظهرت وتحكمت بمنطق المتنافسين المجتمعين في سقيفة سعد بن عباد، لاختيار خليفة رسول الله (ص)، والامام علي (ع) وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بجثمان النبي (ص) الذي كان لم يدفن بعد^(١) هذا المنطق وهذه الروح القبلية، هي التي فتحت على المسلمين بابا من ابواب الفتنة، كما يصرح الخليفة عمر بن الخطاب، معلقا على نتائج اجتماع السقيفة وبيعة أبي بكر بقوله: «إن بيعة أبي بكر كانت فلتنة وفي الله شرها، فمن عاد الى مثلها فاقتلوه!»^(٢)

وهكذا كتب على الامة الاسلامية، ان تعيش الحكم الاسلامي المنحرف بشكل مبكر عقيب وفاة الرسول (ص) مباشرة، منذ أن نجحت السقيفة في تمرير أهداف «الفتنة» وبعد ان اضطلع بمسؤولية الخلافة أناس لم تنضج فيهم الرسالة الاسلامية.

١. سيرة الرسول/لابن هشام/ج ٢ - ١٠١٨

٢. ابن ابي الحديد/١١١/٨

وعلى ضوء نتائج اجتماع السقيفة وافرازاتها، يمكن أن نقول أن الإسلام الذي تعطيه السقيفة بامتدادها التاريخي، إسلام مشوه ممسوخ، لا يحفظ الصلة العاطفية والفكرية بين الأمة وبين الرسالة.

وهكذا منيت الأمة الإسلامية وبوقت مبكر من حياتها الرسالية (بصدمة الانحراف) وهو الانحراف عن الخط الرسالي الذي رسمه لها النبي (ص)، بعد أن وقعت التجربة السياسية بيد أشخاص لم يتفهموا (بعمق) الرسالة الإسلامية بصيغتها الشاملة للحياة ولم يعيشوا همومها أو يذوبوا في غاياتها.. إلى أن اتسعت رقعة الانحراف وزاويتها وأصبح من السهل اليسير مشاهدة هذا التحول بوضوح أكثر، منذ بداية النصف الثاني من عهد عثمان بن عفان إلى أن آل باقصاء الإسلام فيه من الواقع المعاش في زمن معاوية وابنه (الفاجر) يزيد. ولما كانت إمامة أهل البيت (ع) تمثل الامتداد الروحي والعائلي لخط الأنبياء، وورثا شرعيا لرسالات السماء، انبرت لتضطلع بدورها الرسالي الذي استهدف تصحيح المسار وإعادةه إلى الاتجاه النبوي المطلوب، وكان محور نشاط أئمة المرحلة الأولى، يشتمل على التخطيط والأخذ بكل الاحتياطات الممكنة لتطويق (صدمة الانحراف) وتحصين الإسلام كشرعية منها، والحفاظ على الرسالة الإسلامية نقية بعيدة عن التشويه.

وقد حفلت مواقف الأئمة (ع) من أجل هذا الهدف بزخم هائل من الجهود التخطيطية الحافلة بالتضحيات والرامية إلى بناء الأمة على قاعدة فكرية تؤهلها من الناحية النفسية والسياسية أن تحمل مشعل الثورة وتنير الدرب للثائرين، وترخص من أجل أهدافها كل غال ونفيس.

هذه الحقائق، دعت قادة الرسالة من أئمة أهل البيت (ع) — في هذه المرحلة المصيرية من تأريخ الأمة، للوقوف ومواجهة الصدمة التي وقعت متحدية الأمة الإسلامية عقيب وفاة الرسول (ص)، والتي كانت من الممكن أن تمتد وتقضي على الإسلام ومصالحه والأمة الإسلامية، فتصبح اثرا في التاريخ، دون أن يبقى له وجود في خط الزمن المستمر.

وخلاصة الأمر كان أئمة هذه المرحلة، يتصدون بشكل رئيسي لمواجهة ومجابهة (انحراف الحكام) وتحصين الأمة ضده، والعمل على الاحتفاظ بالإسلام كشرعية مستمرة دون أن يظاها التحريف والتشويه، أن لم يكن من التيسر الحفاظ عليه كمجتمع وتجربة

سياسية حاكمة.

ولذا حاول أئمة هذه المرحلة على العمل الدائب بتفهيم الاسلام للامة ومحاولة تعميق مضامينه في نفوسهم، حتى تعرف الامة دينها، وتتمسك به، وبنفوس الوقت تتحصن ضد الانحراف وتقاومه وتتصدى له حالة نشوئه.

لقد ركز الأئمة (ع) على ممكن الخطر هذا، وأخذوا يعملون لتوضيح وتوعية الأمة على الفرق بين الحكام الشرعيين والحكام القائمين (المغتصبين)، وكان هدفهم في هذه المرحلة هو كشف زيف الحكام أمام الأمة وتوضيح انحرافهم عن الاسلام، وقد اثمرت جهود أئمة هذه المرحلة بفصل السلطة الزمنية الحاكمة عن منصب الخلفاء الرساليين وتعرية انحراف الحكام عن رسالة الاسلام.

وقد اخذت الامة تميز بين نوعين من الحكام، حكاما منحرفين، وهم الذين اغتصبوا السلطة والخلافة، وحكاما رساليين تمثل فيهم عدل الاسلام واستقامته، كما لمسوا ذلك عمليا من خلال تجربتي حكم الامام علي (ع) وولده الحسن (ع). وكذلك دأب أئمة هذه المرحلة بإيقاظ الامة وتوعيتها باتجاه معرفة قيادتها الشرعية المتمثلة بإمامة اهل البيت (ع).

وكانت معالجة افرازات هذه المرحلة من مهام أربعة أئمة وهم:

الامام عني بن ابي طالب (ع)، والامام الحسن بن علي (ع)، والامام الحسين بن علي (ع) والامام علي بن الحسين (ع).

المرحلة الثانية:

وهي المرحلة التي جابه فيها أئمة اهل البيت (ع) انحراف العلماء والمدارس الفقهية المنحرفة بتحديد معالم الكتلة الشيعية وإيجاد الطابع المميز لها.

بعد ان انجز أئمة المرحلة الاولى مهمة تحصين الاسلام بتعرية انحراف الحكام والاحتفاظ بالاسلام كتشريع بصيغته الكاملة للحياة، وبعد ان وضعوا كل التحصينات اللازمة وفرغوا من الضمانات الاساسية ضد (صدمة الانحراف)، بدأت مرحلة عمل جديدة، بجهود ثلاثة أئمة (ع) وهم:

الامام محمد بن علي الباقر (ع) والامام جعفر بن محمد الصادق (ع) والامام موسى بن جعفر

الكاظم (ع).

وقد تميزت جهودهم (ع) وتمحورت حول إبراز وتحديد الإطار التفصيلي الخاص بالكتلة الشيعية، بوصفهم الكتلة المؤمنة والمحافظة على الخط الحقيق للإسلام أمام الخطوط المنحرفة الأخرى.

فالإطار التفصيلي الخاص للكتلة الشيعية، لم يكن متميزاً بالمعالم محدد الإطار لكل الناس أيام أئمة المرحلة الأولى الذين اتجهوا بنشاطهم الرئيسي لمعالجة (صدمة الانحراف) وحماية الإسلام دون تحريف يشوه محتواه، والعمل على إعادة الصحة والروح النضالية التي افتقدتها الأمة عبر سنوات الانحراف بعد وفاة الرسول (ص).

فالعمل في تفادي (صدمة الانحراف) عند أئمة المرحلة الأولى لم ينقطع أو ينتهي في المرحلة الثانية، بل إن هذا العمل استمر، لكن حيث إن (صدمة الانحراف) كان قد أمكن تقليل خطرهما، بجهود أئمة المرحلة الأولى، بما بذلوه من جهود وتضحيات في سبيل حفظ الإسلام، وحمايته من التحريف.

أما المرحلة الثانية، فكانت مجالاً خصباً، للأئمة (ع)، لايجاد الطابع المميز للكتلة الشيعية، وذلك ببناء الجماعة الصالحة من مجموع هذه الأمة التي حصنت بالحد الأدنى من التحصين، وانتخاب مجموعة من هذه الأمة، وتحصينهم بأعلى درجة ممكنة من التحصين والوعي، حتى تكون هذه الجماعة هي الرائدة والقائدة والحامية للوعي الإسلامي لمجموع الأمة التي حصنت بالحد الأدنى من التوعية الإسلامية.

ظهور هذا الهدف المرحلي بإبراز الإطار التفصيلي للتشيع مقابل المدارس المنحرفة الأخرى، دفع ببعض المؤرخين إلى «الاساءة في فهم فكرة التشيع، واعتبروها ظاهرة طارئة في التاريخ الإسلامي، مستندين في قوهم هذا إلى بروز التشيع متدرجاً ومتطوراً من خلال أحداث اجتماعية دفعت بها في التاريخ الإسلامي، إلى أن انجبت مظاهره إبان هذه المرحلة. أما التشيع في واقعه الصحيح، فقد وجد في إطار الدعوة الإسلامية متمثلاً في الأطروحة النبوية التي وضعها الرسول (ص) بأمر من الله للحفاظ على مستقبل الدعوة، وهكذا وجد التشيع لا كظاهرة طارئة على مسرح الأحداث بل كنتيجة ضرورية بطبيعة تكون الدعوة وحاجاتها وظروفها الأصلية، وبمعنى آخر كانت تفرض على الإسلام أن يلد التشيع،

وبمعنى آخر كانت تفرض على القائد الاول للتجربة أن يعد للتجربة قائدها الثاني الذى تواصل على يده ويد خلفائه فهو الثورى»^(١).

والفرق بين المرحلتين، هو ان ائمة المرحلة الاولى اظهروا معنى التشيع بالنطاق الضيق والخاص، لأنهم انشغلوا بمعالجة هدفهم الرئيسي وهو (تحسين الاسلام من صدمة الانحراف)، فيما جاء ائمة المرحلة الثانية، كي يمنحوا الكتلة الشيعية، وعلى المستوى العام اطارها التفصيلي الشامل، ولا يعني هذا، أن ائمة المرحلة الاولى لم يعملوا لابرار الكتلة الشيعية، بل ان نشاطهم في هذا المجال كان ثانويا وعلى مستوى خاص، وقد سبق للإمام علي(ع) هذا النشاط وعلى المستوى الخاص جدا من كتلته من امثال سلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، ومالك الاشتر وغيرهم.

وقد جاء تخطيط ائمة المرحلة الثانية، مختلفا في اتجاهاته وتركيبه وتكوينه وذلك وفقا لمتطلبات الحاجة المرحلية للقضية الاسلامية ومستلزماتها (الموضوعية) والتي اتجهت الى توضيح الإطار التفصيلي للتشيع، وكشف ملامحه المتميزة، واخراج العمل من اجله من مستوى اشخاص معدودين الى مستوى ارحب بتنمية الكتلة كليا ونوعيا، وتمثيلها للاسلام الحقيقي ومعالجتها لشؤون الحياة كافة، ليواجهوا بها محاولات النظام المنحرف بتغذية الاتجاهات الفقهية والكلامية المناهضة للتشيع مكونين بذلك وضعا طائفيا، ببعض الفقهاء والمحدثين والمتكلمين وادعاء العلم الى ارضاء غرائز الحكام المنحرفين.

وقد اعطى ائمة هذه المرحلة، جهودهم لابرار الاطار التفصيلي للكتلة الشيعية لمواجهة انحراف العلماء والمدارس الفقهية المنحرفة، ومن خلال ظروف اجتماعية دقيقة بأروع ما يكون التخطيط.

المرحلة الثالثة:

وهي مرحلة اتساع النشاط والممارسة السياسية والتوسع في بناء القواعد الشعبية وترشيد تحركها ضمن توجهات الخط الرسالي الثورى، وارسال الوكلاء وانتشارهم في العالم الاسلامي وتنضيج خطوط تحرك الخواص من ابناء الأمة.

فبعد انتهاء وتنجز اهداف المرحلة الثانية، وذلك بتخطيط ائمتنا (ع) ببناء الكتلة الشيعية المرتبطة بهم، بتربية سلوكها، وحماية وجودها من الذوبان، وتنمية وعيها ورصف قواعدها وتوسيعها واعطائها اطارها ومعالمها الفكرية والاجتماعية في ارجاء العالم الاسلامي، تلته مرحلة عمل جديدة ابتدأها ثامن الائمة الامام علي بن موسى الرضا (ع) حيث اصبحت في مرحلة الكتلة الشيعية، وقواعدها الشيعية العريضة، بمستوى يقرها من تسلم زمام الحكم، وممارسة العمل السياسي، حتى باتت تشكل خطراً اداها على الحكام، وقد ارتفع رصيد مدرسة الامام علي (ع) في العالم الاسلامي، وتحددت فيها ملامح الكتلة الشيعية المجاهدة واطروحته المتمثلة بالاسلام الصحيح.

وقد اتسمت المرحلة الثالثة من حياة اهل البيت (ع) بازدياد التلاحم بين الامام كقائد وقواعده التي شهدت الوانا من التنكيل والقتل والتشريد والمؤمرات الماكرة التي خرج بها الحكام انذاك، في محاولاتهم الدنيئة لعزل امام اهل البيت (ع) واحراجه امام قواعده الشيعية، وبالتالي فض الناس عنه بكل الطرق الممكنة.

وقد جاءت مكاسب هذه المرحلة نتيجة لجهدين متوازيين، عاشها التخطيط عند ائمة المرحلة الاولى والثانية وذلك من خلال الصيغ والاشكال العملية المتعددة، نذكر منها التالي:.

الأول: جهد التخطيط الفكري والتوعية العقائدية والتثقيف الرسالي التي مارسها الائمة (ع) ممارسة مباشرة من خلال اعمالهم وانشطتهم (الواجهية) والتي اكتسبت الطابع العيني، (كالمدارس العلمية)، حيث اعطت الكتلة الشيعية معالمها وخصائصها الفكرية ونتائجها الروحي ومفاهيمها لكل جوانب الحياة، ولكي تهياً منها ارضية صالحة لتسلم السلطة.

الثاني: خط تحريك الضمير الثوري عند الأمة، وهو جهد سار موازياً للجهد الاول، وهو الجهد الذي استمد ثورته وانطلاقة من دم الحسين (ع) واستشهاده الفاجع والذي تكفل بتسليم زمام الثورة والمقاولة لسياسية للأوضاع الحاكمة المنحرفة.

وباستمرار هذين الخطين المتوازيين في المرحلتين الاولى والثانية، أمكن لمدرسة الامام علي (ع) واطروحته ان تتخذ، رصيذا ضخماً واسعاً يغطي كل ارجاء العالم الاسلامي

ولا ادل على هذا من النواحي الكثيرة، الفكرية منها والروحية والاجتماعية التي كانت تخرج على الامة الاسلامية في بداية المرحلة الثالثة في عصر الامام الرضا(ع) والتي شهدت عدة ثورات وانتفاضات قام بها تلامذه من — مدرسة الامام علي(ع) — وحلة اطروحته، وقد ملأوا العالم الاسلامي من الكوفة والبصرة والمدينة ومكة حتى اليمن، رفعوا فيها شعارات مدرسة الامام علي(ع) وحكموا مناطقها باسمه، وذلك بالرغم من ان بغداد كانت تحت تبعية الخلافة العباسية الا انها طوقت بهذه الحركات الثورية وهددت حكمهم.

ولكن الذي يجدر ذكره والتأكيد عليه، أن نمو هذه القواعد وتعاطفها مع قضية أئمة هذه المرحلة، لم تكن تعني تسلم زمام الحكم، بالرغم من كل هذا النمو المتزايد والعريض في القواعد الشعبية للامام(ع)، لأن حركة امام اهل البيت(ع) لم تكن على مستوى تسلم زمام الحكم، لأن الحكم الذي يريده الامام(ع) غير الحكم الذي يمتلك مثل هذه القواعد الشعبية، نشرح المسألة للقارئ بشكل اوضح ونقول، بأن هذه القواعد الشعبية العريضة الموجودة في العالم الاسلامي والمالية لاهل البيت(ع) كانت تهيئ الامام(ع) لأن يتسلم زمام الحكم على مستوى ما يتطلبه او يريده اى طالب للحكم، أى انه(ع) بإمكانه ان يتسلم زمام الحكم على النحو الذي يتسلمه المنصور أو المأمون.

هذا اللون من الحكم، كان بإمكان امام اهل البيت(ع) الوصول اليه، حيث القواعد الضخمة التي تسنده وتواليه لكن مثل هذه القواعد لم تكن تصلح قاعدة لحكم الامام(ع) لأن ارتباطها به كان ارتباطا فكريا غامضا وعاما متمسا بالحماس العاطفي، هذه العاطفة الحاررية (المتزابقة) كانت في يومها هي القاعدة التي استند اليها بنو العباس وركبوا موجها للوصول الى الحكم.

ولكن طبيعة هذه القواعد وأمثالها لا يمكن ان تمهد لحكم الامام(ع) واستلامه لزمام السلطة السياسية، ولهذا السبب رأينا أن اغلب الثورات التي وقعت في هذه المرحلة والتي عاشها المسلمون المخلصون لأطروحة الامام علي(ع) كانت في كثير من الاحيان تتخطى في تناقضات داخلية حتى من قبل قواعدها الشعبية، والتي كثيرا ماتصدعت وانشقت على نفسها، وذلك بسبب بسيط، هو ان القاعدة ليست واعية لأطروحتها وظروفها الموضوعية وعيا كاملا، بل كانت تأتي ثوراتهم عاطفية حارة ولم تكن واعية مستوعبة، والعاطفة

بطبيعتها — وكما هو معروف — لا تنتج بناءً حقيقياً للإسلام، وإنما البناء الحقيقي يقوم على أساس الوعي الكامل لأهداف الدولة الإسلامية، والإيمان بواقع أهميتها التاريخية.^(١)

وكانت معالجة أهداف هذه المرحلة من مهام، الإمام علي بن موسى الرضا (ع) والإمام محمد بن علي الجواد (ع) والإمام علي بن محمد الهادي (ع).

المرحلة الرابعة:

استمر توجه أئمة أهل البيت (ع) في مجال الإشراف على القواعد الشعبية وحماية وجودها، وتنمية وعيها، ومدها بكل أساليب الصمود والارتفاع إلى مستوى الطليعة المؤمنة ومقابل هذا استمرت محاولات السلطة الغاشمة بعزل أطروحة الإمام وقيادته عن المسرح الاجتماعي والسياسي، ومحاسبتهم على كل بادرة نشاط أو تحرك، حتى ولو كانت وشاية تافهة أو خبر صغير عن نشاط امام أهل البيت (ع)، وهذا التصاعد الحاقق في محاربة الإمام (ع) كان أحد الأسباب والدوافع الرئيسية المباشرة لحدوث الغيبة.

ولهذا رأينا الإمام الحسن بن علي العسكري (ع)، يسعى وهو يعيش جو الإرهاب الشديد، إلى حجب الإمام المهدي (محمد بن الحسن (ع)) عن أعين الناس، مع إظهاره لبعض خاصته فقط مع شن حملة توعية (لفكرة الغيبة)، وتوعية الناس بضرورة تحملهم لمسؤولياتهم الإسلامية تجاهها وتعويدهم على متطلباتها، وتهيئة ذهنياتهم لتقبل القيادة النائية، وهذا ما قام به الإمام المهدي (عج) بنفسه وذلك ضمن مرحلتين من الغيبة والاحتجاب، وهي ماتسمى بالغيبة الصغرى والغيبة الكبرى.

وفي زمن الغيبة الصغرى، تصدى الإمام المهدي (عج) بتعين وتحديد أسماء سفرائه ونوابه الأربعة لقيادة الأمة حيث تولوا الوكالة الخاصة عنه (عج) خلال غيبته الصغرى وقد اضطلعوا بمهمة قيادة قواعد الإمام المهدي (ع) من الناحية الفكرية والسلوكية طبقاً لتعليمات

١. هذه المرحلة لم تحدد بشكل بارز من قبل الأئمة (ع) أنفسهم، بل تحددت من خلال موقف الحكم المنحرف من الأئمة، وذلك لأن الجماعة التي نشأت وقت في ظل المرحلة الثانية والتي وضعت بنيتها في المرحلة الأولى، هذه الجماعة انتشرت وغزت العالم الإسلامي وقتئذ، وبدأ خلفاء بني العباس، إن قيادة أهل البيت (ع) أصبحت على مستوى تسلّم زمام الحكم، والعودة بالجمتمع الإسلامي إلى حضيرة الإسلام الحقيقي وهذا خلف بشكل رئيسي ردود الفعل للخلفاء تجاه الأئمة (ع) في أواخر أيام الإمام موسى بن جعفر (ع).

الامام(ع) والتوسط بينه وبينها في ايصال التبليغات، واخراج التوقيعات وحل مشاكلها، وتذليل العقبات التي تصادفهم، وكانت مهمة غيبة الامام واحتجابه ترمي الى بناء الجهاز الغائب لتولى العمل القيادي عنه، والعمل على تصعيد واكتمال بناء الامة الطليعي (الشيعي) لتأهيلهم للممارسة دورهم الرسالي في حماية الرسالة الاسلامية ونشرها في ارجاء العالم، والعمل على اعداد الامة والاجبال التالية على غيبة الامام(عج) الكبرى، وتعويدهم على حالة الانتظار الايجابي، والتمهيد لظهوره من قبل شيعته بالعمل السياسي والجهادي.

المرحلة الخامسة:

وهي مرحلة ظهور القائم(عج) الامام الثاني عشر من ائمة اهل البيت(ع) محمد بن الحسن، المهدي(ع) وقيام الدولة الاسلامية العالمية، «يملأ الارض قسطا وعدلا بعد ان ملئت ظلما وجورا».



القسم الثاني

١- دور الإمام عليّ «ع»

خلافة النبي (ص) ومستقبل الدعوة*:

بعد ان انتهينا من حديث المراحل، نود ان نعالج مسألة هامة وحساسة، وهو بمثابة مدخل ضرورى لفهم الظروف والملابسات الاجتماعية والسياسية التي عاشها الامام علي(ع) وأئمة اهل البيت من بعده وأعني بها مسألة خلافة النبي(ص) ومستقبل الدعوة وقيادتها.

«من المعروف ان النبي(ص) لم يفاجئه الموت مفاجأة، وكان يدرك منذ فترة قبل وفاته ان اجله قد دنا، وقد اعلن ذلك بوضوح في حجة الوداع، وهذا يعني انه كان يملك فرصة كافية للتفكير في مستقبل الدعوة بعده، هذا اذا لم ندخل في الموقف (النصوص التشريعية) أو عامل الاتصال الغيبي والرعاية الإلهية المباشرة للرسالة عن طريق الوحي... وخصوصا ان النبي(ص) كان يدرك جيدا، بأن الساحة الاسلامية سوف تتعرض لأكبر الاخطار اذا خلت من قائدها او تركت دون اى تخطيط، فسوف تواجه الامة ولأول مرة مسؤولية التصرف بدون قائدها تجاه اخطر مشاكل الدعوة، وهي لا تمتلك اى مفهوم مسبق بهذا الصدد وسوف يتطلب منها الموقف تصرفا سريعا وآتيا، لأن الفراغ السياسي لا يمكن ان يستمر وسوف يكون هذا التصرف السريع في لحظة الصدمة التي تمنى بها الامة

* اعتمدنا في هذا البحث بصورة رئيسية وبتصرف، ما جاء بكتاب بحث حول الولاية للسيد الشهيد الصدر

وهي تشعر بفقدائها لقائدها الكبير هذه الصدمة التي تزعزع طبيعتها سير التفكير وتبعث على الاضطراب، حتى انها جعلت عمر بن الخطاب يعلن بفعل الصدمة، ان النبي لم يميت ولن يموت.

وكذلك هنالك الأخطار التي تنجم عن عدم النضج الرسالي، والاضطراب التي تنشأ من (المتأففين)، واذا أضفنا اليهم عددا كبيرا ممن اسلم بعد الفتح استسلاما للأمر الواقع لا انفتاحا على الحقيقة، نستطيع ان نقدر الخطر الذي يمكن لهذه العناصر أن تولده وهي تجد فجأة فرصة لنشاط واسع في فراغ كبير مع خلو الساحة من رعاية القائد.

فلم تكن اذن خطورة الموقف بعد وفاة النبي (ص) شيئا خافيا على النبي... ولذا رأينا ان الرسول (ص) لما حضرته الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال: «ايتوني بالكثف والدواة اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا»^(١)

«وكان النبي (ص) يريد ان يضع حدا للخلاف في مسألة الخلافة من بعده ويعهد الى المسلمين الا يتجاوزوا حدود هذا العهد، فاختلف في ذلك نفر من الصحابة بمحضر صاحب الرسالة، حتى نسبوا اليه الهجر، فادرك النبي (ص) حرجة الموقف، وشعر بأن الخلاف يكاد ان يمس اصل التشريع، ويجري المسلمون على التشكيك في نصوص الكتاب والسنة، فقطع الخلاف وقال بلهجة حاسمة «قوموا، لا ينبغي عند نبي نزاع»^(٢). وما ان التحق النبي (ص) بالرفيق الاعلى، حتى ثار الخلاف بين المسلمين واشتد النزاع بينهم.

اجتماع السقيفة:

«وحينما تجمع انصار السقيفة لتأمر سعد بن عباد، وعلي بن ابي طالب وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بمحاثان النبي (ص) الذي لم يدفن بعد»^(٣) قال منهم قائل: «ان ابت مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون ونحن عشيرته وأولياؤه، قالت

١. مسند احمد: ٣٠٠/١ وصحيح مسلم، وصحيح البخاري ج ١ كتاب الصلح... راجع بحث حول الولاية/الشهيد

الصدر، ص: ٢٤

٢. ابن ابي الحديد، شرح النهج ج ٣، ص: ٩٧، راجع للتوسع كتاب الامامة/الآصفي ص ١٠

٣. سيرة الرسول لابن هشام، ج ٢/١٠١٨

طائفة منهم، اذا نقول منا امير ومنكم امير لن نرضى بدون هذا ابدا»، وحتى نودى على سعد بن عباد: «اقتلوا سعدا، قتله الله انه منافق، صاحب فتنة»^(١) واختلط الزبير سيفه وهو يقول «والله لا اغمده حتى يبايع علي» فيقول عمر: (عليكم بالكلب) فيؤخذ سيفه من يده او يضرب به الحجر حتى يكسر»^(٢) وأخذ قيس بن سعد بلحية آخر قائلا «والله لو خفضت منه شعره مارجعت وفيك جارة»^(٣)

وانقضى الحباب بن المنذر سيفه على ابي بكر قائلا: «والله لا يرد على احد ما اقول الا حطمت أنفه»^(٤)

وحينما خطب ابوبكر فيهم قائلا: «كنا معاشر المسلمين والمهاجرين اول الناس اسلاما والناس لنا في ذلك تبع، ونحن عشيرة رسول الله واوسط العرب انسابا». واقترح الانصار ان تكون الخلافة دورية بين المهاجرين والانصار وردة ابوبكر قائلا: «ان رسول الله (ص) لما بعث عظم على العرب أن يتركوا دين اباثهم فخالفوه وشاقوه وخص الله المهاجرين الاولين من قواه بتصديقه، فهم اول من عبد الله في الارض، وهم اولياؤه وعترته واحق الناس بالأمر بعده ولا ينازعهم فيه الا ظالم»

وقد اندفع عمر بن الخطاب بأبي بكر واعلن بيعته له وتبعه الآخرون، وحين بلغ الامام علي بالنبا رفض البيعة^(٥) وأثر الامام ان يعتزل اطراف الفتنة ولا يخوضها، حتى تهدأ الأحوال وتستقر الأمور.

وقد علق عمر بن الخطاب على نتائج اجتماع السقيفة وبيعة ابي بكر، بقوله «ان بيعة ابي بكر كانت فتنة، وفق الله شرها، فن عاد الى مثلها فاقتلوه».

١. الطبرى، ج ٣، ص: ٢١٠

٢. الامامة والسياسة، ج ١، ص: ١١

٣. الطبرى/ج، ص: ٢١٠

٤. مستند احمد/ج ١، ص: ٥٦

٥. النزاع وانتخاب/المقريزى، ص: ٤٨

«وكان الخلاف بادئ الأمر يدور حول مسائل تتعلق بشؤون الزعامة والمصالح الشخصية، أكثر مما تتعلق بشؤون الفكر والعقيدة، ولكن الخلاف اتسع فيما بعد واكتسب ثوبا عقائديا، إذا لم يمض ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة الإسلامية التي تولى جيل المهاجرين والانصار قيادتها تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجهها اعداء الاسلام القدامى، ولكن من داخل اطار التجربة الإسلامية لامن خارجها اذ استطاعوا ان يتسللوا الى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ويستغلوا القيادة غير الواعية ثم صادروا وبكل وقاحة وعنف تلك القيادة واجبروا الامة وجيلها الطليعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادته، وتحولت الزعامة الى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويعطل الحدود ويجمد الاحكام واصبحت الخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني امية»^(٢)

الرّسول «ص» يمهّد لخلافة الامام علي «ع»:

«ولابد من القول بأن النبي (ص) كان يتوقع حصول مثل هذا الخلاف بين المسلمين بعد وفاته، ولهذا فقد وضع (ص) مخططا تشريعا وسياسيا واسعا لمنع من وقوع امثال ذلك، فوضع النبي (ص) خططا وقائية وعلاجية لمنع عن الاختلاف قبل ان يحصل الخلاف، فمن الخطط الوقائية التي رسمها الاسلام توجيهات عامة كان يسديها القرآن الكريم والنبي (ص) في التحذير عن الاختلاف:

«واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا» آل عمران: ٩٩

«واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم» الانفال: ٤٩

وانسيقا مع هذا الجانب وضع النبي (ص) قبيل وفاته خطة محكمة لمنع وقوع الاختلاف بين المسلمين، فقد قدر (ص) ان الاختلاف سيقع بعد وفاته بشأن الخلافة، فحاول أن يقصي وجوه الأصحاب ساعة وفاته عن المدينة المنورة، خلا علي (ع) ليخلو جو المدينة من المعارضة التي يثيرها وجوه الاصحاب بعد وفاته، ويفرغ علي (ع) للأمر من دون

١. ابن أبي الحديد/٨/١١١

٢. بحث حول الولاية/الصدر.

معارض ولكن لم تقدر هذه الخطة ان تنفذ، فتوفي النبي (ص)، ووجوه الاصحاب في المدينة. ويضع الاسلام بعد ذلك خططاً علاجية لمعالجة الخلاف وذلك بوضع موازين دستورية لمعرفة الجانب الحق من المسألة اذا التبس الامر بغيره.

والميزان الاول لمعرفة الحق هو القرآن الكريم، وما تجاوزه فهو زخرف وباطل: «هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» الاعراف: ٢٠٣

«ولكن القرآن الكريم ذاته فيه محكم ومتشابه، ومتشابه القرآن يتعرض عادة لاختلاف الاهواء، فيتعرض القرآن ذاته لمثل هذا الاختلاف والتضارب... فلا بد ان يشفع الكتاب الكريم بميزان تشريعي آخري يكمل مهمة الكتاب في علاج التضارب والخلاف الذي يحصل في الشؤون الدينية»^(١). والى هذا المعنى تشير الاحاديث النبوية التي تربط بين الكتاب واهل البيت (ع) مما اتفق المسلمون على صدوره عن النبي (ص) من ذلك قوله (ص): «اني اوشك ان ادعى فأجيب، واني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من لسماء الى الارض وعترتي اهل بيتي، وان اللطيف الخبير اخبرني انها لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيها»^(٢)

«هذا هو الجانب العلاجي من اخطة الحكمة التي وضعها النبي (ص) للمنع عن وقوع الخلاف بين المسلمين»

لماذا وقع الخلاف؟ وكيف نشأ الانقسام في الامة؟(*)

«ان من يتتبع المرحلة الاولى من حياة الامة الاسلامية في عصر النبي (ص) يجد أن اتجاهين رئيسيين مختلفين قد رافقا نشوء الامة، وبداية التجربة الاسلامية منذ السنوات الاولى وكانا يعيشان معا داخل اطار الامة الوحدة التي أنشأها الرسول القائد وقد ادى هذا الاختلاف بين الاتجاهين الى انقسام عقائدي عقيم وفاة الرسول (ص) مباشرة شطر الامة

١. «الامامة في التشريع الاسلامي/ الآصفي، ص: ١٢

٢. اخرجته الحاكم في مستدركه عن الصحيحين والترمذي، والنسائي، واحمد بن حنبل وغيرهم من الحفاظ، عن اكثر من عشرين صحابيا

«راجع بحث حول الولاية/ السيد الصدر، ص: ٧٣، حيث اعتمدنا، بتصرف على ما جاء في الكتاب المذكور.

الإسلامية إلى شطرين قدر لاحدهما أن يحكم، فاستطاع أن يمتد ويستوعب أكثرية المسلمين، بينما اقصى الشطر الآخر عن الحكم، وقدر له أن يمارس وجوده كأقلية معارضة ضمن الإطار الإسلامي العام، وكانت هذه الأقلية هي (الشيعه).

والاتجاهان الرئيسيان اللذان رافقا نشوء الأمة الإسلامية في حياة النبي (ص) منذ

البدء هما:

اولا: — الاتجاه الذي يؤمن بالتعبد بالدين وتحكيمه والتسليم المطلق للنص الدين في كل جوانب الحياة.

ثانيا: — الاتجاه الذي لا يرى أن إيمانه بالدين يتطلب منه التعبد إلا في نطاق خاص من العبادات والغيبات ويؤمن بإمكانية الاجتهاد، وجواز التصرف على أساسه بالتغيير والتعديل في النص الديني وفقا للمصالح في غير ذلك النطاق من مجالات الحياة.

وبالرغم من ذلك، من الضروري التسليم بوجود اتجاه واسع منذ كان النبي (ص) على قيد الحياة، يميل إلى تقديم الاجتهاد في تقدير المصلحة واستنتاجها من الظروف على التعبد بحرفية النص الديني، وقد تحمل الرسول المראה في كثير من الحالات بسبب هذا الاتجاه حتى وهو على فراش الموت في ساعاته الاخيرة، كما أن هناك اتجاهًا آخر يؤمن بتحكيم الدين والتسليم له والتعبد بكل نصوصه في جميع جوانب الحياة.

وقد يكون من عوامل انتشار الاتجاه الثاني (الاجتهادي) في صفوف المسلمين أنه يتفق مع ميل الإنسان بطبيعته إلى التصرف وفقا لمصلحته يدركها ويقدرها، بدلا عن التصرف وفقا لقرار لا يفهم مغزاه.

وقد قدر هذا الاتجاه ممثلون جريئون من كبار الصحابة من قبيل عمر بن الخطاب الذي ناقش الرسول (ص) واجتهد في مواضع عديدة خلافا للنص، إيمانا منه بأن له مثل هذا الحق. وبهذا الصدد يمكن أن نلاحظ، موقفه من صلح «الخديبية» واحتجابه على هذا الصلح، وموقفه من الأذان وتصرفه فيه باسقاط «حي على خير العمل»، وموقفه من النبي (ص) حين شرع متعة الحج... إلى غير ذلك من مواقف الاجتهادية.

وقد انعكس كلا الاتجاهين في مجلس الرسول (ص) في آخر يوم من أيام حياته فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي عباس، قال: «لما حضر رسول الله (ص) الوفاة وفي

البيت رجال، فيهم عمر بن الخطاب قال النبي: هلم اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده، فقال عمر: ان النبي (ص) قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف اهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتابا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما اكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم قوموا: لا ينبغي عند نبي نزاع»^(١).

وهذه الواقعة وحدها كافية للتدليل على عمق الاتجاهين ومدى التناقض والصراع بينهما.

ويمكن ان نضيف اليها - لتصوير عمق الاتجاه ورسوخه - ما حصل من نزاع وخلاف بين الصحابة حول تأمير «اسامة بن زيد» على الجيش بالرغم من النص النبوي الصريح على ذلك، حتى خرج الرسول (ص) وهو مريض، وخطب الناس، وقال: «يا أيها الناس ما مقالة بلغني عن بعضكم من تأمير أسامة، ولئن طعنتم في تأمير ابيه من قبل، وإيم الله انه كان خليفا بالامارة وان ابنه بعده خليف بها»^(٢).

وهذان الاتجاهان اللذان، بدأ الصراع بينهما في حياة النبي (ص) قد انعكسا على موقف المسلمين من أطروحة زعامة الإمام للدعوة بعد النبي (ص). فالممثلون للاتجاه التبعية وجدوا في النص النبوي على هذه الأطروحة سببا ملزما لقبولها دون توقف او تعديل، واما الاتجاه الثاني فقد رأى انه بإمكانه ان يتحرر عن الصيغة المطروحة من قبل النبي (ص)، اذا أدى اجتهاده الى صيغة أخرى أكثر انسجاما في تصويره مع الظروف.

وهكذا نرى ان الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول (ص) مباشرة، متمثلين في المسلمين الذين خضعوا عمليا لأطروحة زعامة الامام علي (ع) وقيادته التي فرض النبي (ص) الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة.

وقد تجسّد الاتجاه الشيعي منذ اللحظة الاولى في انكار ما اتجهت اليه السقيفة من

١. أخرجه البخاري/باب مرض النبي (ص) مجلد ٣، وروى هذه الرواية ابن سعد في طبقاته، والطبري بتاريخه، وابن كثير في بدايته، ومسلم في صحيحه.

٢. انظر سيرة ابن هشام، وشرح النهج المجلد الثالث، ص: ١٧٢.

تجديد لاطروحة زعامة الامام علي(ع) واسناد السلطة الى غيره (*).

وقد تقول: اذا كان الاتجاه الشيعي يمثل التعبد بالنص والاتجاه الآخر المقابل له يمثل الاجتهاد، فهذا يعني ان الشيعة يرفضون الاجتهاد، ولا يسمحون لأنفسهم له، مع اننا نجد ان الشيعة يمارسون عملية الاجتهاد في الشريعة دائما.

والجواب: ان الاجتهاد الذي يمارسه الشيعة ويروونه جائزا بل واجبا وجوبا كفاثا، هو الاجتهاد في استنباط الحكم من النص الشرعي، لا الاجتهاد في رفض النص الشرعي لرأى يراه المجتهد أو لمصلحة يخمنها، فان هذا جائز، والاتجاه الشيعي يرفض اى ممارسة للاجتهاد بهذا المعنى ونحن حينما نتحدث عن قيام اتجاهين منذ صدر الاسلام:.

احدهما: اتجاه التعبد بالنص، والآخر: اتجاه الاجتهاد. نغني بالاجتهاد الاجتهاد في رفض النص او قبوله.

وقيام هذين الاتجاهين شي طبيعي في ظل كل رسالة تغييرية شاملة تحاول تغيير الفاسد من الجذور، فإنها تتخذ درجات مختلفة من التأثير حسب حجم الرواسب المسبقة ومدى انصهار الفرد بقيم الرسالة الجديدة، ودرجة ولائه لها.

وهكذا نعرف ان الاتجاه الذى يمثل التعبد بالنص يمثل الدرجة العليا من الانصهار بالرسالة والتسليم الكامل لها وهو لا يرفض الاجتهاد ضمن اطار النص وبذلك الجهد في استخراج الحكم الشرعي منه.

هذه هي الخطوط العامة عن تفسير ظاهرة التشيع بوصفه ظاهرة طبيعية في اطار الدعوة الاسلامية، وتفسير ظهور الشيعة كاستجابة لتلك الظاهرة الطبيعية.

وامامة اهل البيت، والامام علي(ع)، التي تمثلها تلك الظاهرة الطبيعية تعبر عن مرجعيتين:.

١٥ ذكر الطبرسي في الاحتجاج عن ابان بن تغلب قال: قلت لجعفر بن محمد الصادق: جعلت فداك هل كان أحد في اصحاب رسول الله انكر على ابي بكر فعله؟ قال: نعم كان الذى انكر عليه اثني عشر رجلا من المهاجرين: خالد بن سعيد ابن ابي العاص، وسلمان الفارسي، وابوذر الغفاري، والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر، وبريدة الاسلمي، ومن الانصار: ابو الهيثم التيهان، وعثمان بن حنيف، وخزعة بن ثابت ذوالشهادتين، واي بن كعب، وابو ايوب الانصاري.

أحدهما: المرجعية الفكرية.

والأخرى: المرجعية في العمل القيادي والاجتماعي.

وكلتا المرجعتين كانتا تتمثلان في شخص النبي (ص) وكان لابد - على ضوء ما درسنا من ظروف - أن يصمم الرسول الأعظم (ص) الامتداد الصالح له لتحمل كلتا المرجعتين، لكي تقوم المرجعية الفكرية بملاً الفراغات التي قد تواجهها ذهنية المسلمين وتقديم المفهوم المناسب، ووجهة النظر الإسلامية فيما يستجد من قضايا الفكر والحياة وتفسير ما يشكل ويغمض من معطيات الكتاب الكريم الذي يشكل الصدر الأول للمرجعية الفكرية في الإسلام، ولكي تقوم المرجعية القيادية الاجتماعية بمواصلة المسيرة وقيادة التجربة الإسلامية في خطها الاجتماعي.

وقد جمعت كلتا المرجعتين لأهل البيت (ع) بحكم الظروف التي درسناها، وجاءت النصوص النبوية الشريفة تؤكد ذلك باستمرار، ومن الأحاديث التي تؤكد على المرجعية الفكرية، حديث الثقلين إذ قال رسول الله:

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله...

وعترتي أهل بيتي...إنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(١)

والمثال الآخر على المرجعية في العمل القيادي الاجتماعي، حديث الغدير، حيث خطب الرسول (ص) بغدير خم فقال:

«أيها الناس يوشك أن ادعى فأجيب، وإني مسؤول وإنكم مسؤولون، فإذا أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيراً. فقال: ليس تشهدون أن لا اله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق، وأن ناره حق وأن الموت حق، وأن البعث حق بعد الموت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟ فقالوا بلى نشهد بذلك. قال: اللهم اشهد، ثم قال: يا أيها الناس إن الله مولاى وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم

١. انظر الأحكام في مستدرکه علی الصحیحین الترمذی والنسائی، واحد بن حنبل

فمن كنت مولاه فهذا مولاه — يعني عليا — اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(١)

وهكذا جسد هذان النصان النبويان الشريفان في عدد كبير من أمثالهما كلتا المرجعيتين في أهل البيت (ع)، وقد اتخذ الاتجاه الإسلامي القائم على التعبد بنصوص النبي (ص) بكلتا النصين، وأمن بكلتا المرجعيتين، وهو اتجاه المسلمين الموالين لأهل البيت، ولئن كانت المرجعية القيادية الاجتماعية لكل امام تعني ممارسته للسلطة خلال حياته، فإن المرجعية الفكرية حقيقة ثابتة مطلقة لا تتقيد بزمان حياة الامام، ومن هنا كان لها مدلولها العملي الحي في كل وقت فما دام المسلمون بحاجة الى فهم محدد للإسلام وتعرف على احكامه وحلاله وحرامه ومفاهيمه وقيمه فهم بحاجة الى المرجعية الفكرية المحددة ربانيا المتمثلة، اولاً: في كتاب الله تعالى. وثانياً: في سنة رسوله (ص) والعتره المعصومة من أهل البيت التي لا تفرق عن الكتاب كما نص الرسول الاعظم.

واما الاتجاه الاخر في المسلمين الذي قام على الاجتهاد بدلا عن التعبد بالنص فقد قرر في البدء عند وفاة الرسول (ص) تسليم المرجعية القيادية التي تمارس السلطة الى رجالات من المهاجرين وفقا لاعتبارات متغيرة ومتحركة ومرنة. وعلى هذا الاساس تسلم ابو بكر السلطة بعد وفاة النبي مباشرة على اساس ما تم من مشاور محدود في مجلس السقيفة، ثم تولى الخلافة عمر بنص محمد من ابي بكر، وخلفها عثمان بنص غير محدد من عمر، وأدت المرونة بعد ثلث قرن من وفاة الرسول القائد الى تسلل ابناء الطلقاء الذين حاربوا الاسلام بالأمس الى مراكز السلطة.

هذا فيما يتصل بالمرجعية التي تمارس السلطة، وأما بالنسبة الى المرجعية الفكرية فقد كان من الصعب اقرارها في أهل البيت، بعد ان ادى الاجتهاد انتزاع المرجعية القيادية منهم، لأن اقرارها كان يعني خلق ظروف الموضوعية التي تمكنهم من تسلم السلطة والجمع بين المرجعيتين، كما انه كان من الصعب ايضا من الناحية الأخرى الاعتراف بالمرجعية الفكرية لشخص الخليفة الذي يمارس السلطة، لأن متطلبات المرجعية الفكرية تختلف عن

١. حديث الغدير حديث مستفيض في كتب الحديث عند الشيعة والسنة معا. رواه اكثر من مائة صحابي واكثر من ثمانين تابعيا ومن حفاظ القرن الثاني قرابة ستين شخصا.

متطلبات ممارسة السلطة فالإحساس بمجدارة الشخص لممارسة السلطة والتطبيق لا يعني بحال الشعور بإمكانية نصبه اماما فكريا ومرجعا أعلى بعد القرآن والسنة النبوية لفهم النظرية، لأن هذه الامامة الفكرية تتطلب درجة عالية من الثقافة، والاحاطة واستيعاب النظرية، وكان من الواضح ان هذا لم يكن متوفرا في اى صحابي بمفرده — اذا قطع النظر عن اهل البيت — .

ولهذا ظل ميزان المرجعية الفكرية يتأرجح فترة من الزمن، وظل الخلفاء في كثير من الحالات يتعاملون مع الامام علي على اساس قريب من ذلك، حتى قال عمر مرات عديدة: «لولا علي لهلك عمر، ولا ابقاني الله لمعضلة ليس لها ابو حسن»

ولكن بمرور الزمن بعد وفاة النبي (ص) وتعود المسلمين تدريجا على النظر الى اهل البيت والامام علي بوصفهم اشخاصا اعتياديين ومحكومين أمكن الاستغناء عن مرجعيتهم الفكرية اساسا واسنادها الى بديل معقول، وهذا البديل ليس هو شخص الخليفة بل الصحابة، وهكذا وضع بالتدريج مبدأ مرجعية الصحابة ككل بدلا عن مرجعية اهل البيت (ع) وهو بديل يستسيغه النظر بعد تجاوز المرجعية المنصوصة، لأن هؤلاء هم الجيل الذي رافق النبي (ص) وعاش حياته وتجربته ووفى حديثه وسنته.

وهذا فقد اهل البيت عمليا امتيازهم الرباني واصبحوا يشكلون جزءا من المرجعية الفكرية بوصفهم صحابة، وبحكم ماقدّر ان عاشه الصحابة انفسهم من اختلافات حادة وتناقضات شديدة بلغت في كثير من الاحيان الى مستوى القتال، وهدر كل فريق دم الفريق الآخر وكرامته واتهامه بالانحراف والخيانة، اقول بحكم هذه الاختلافات والاتهامات بين صفوف الامامة الفكرية والمرجعية العقائدية نفسها، نشأت ألوان من التناقض العقائدى والفكرى في جسم الامة الاسلامية كانعكاسات لواجه التناقض في داخل تلك الامامة الفكرية التي قررها الاجتهاد. (١)

* * *

الفصل الثاني

تعريف بشخصية الامام:

نسبه: هو علي بن ابي طالب، بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف.
ابوه (ابوطالب) هو اخو عبد الله ابي النبي (ص) لأمه وابيه، وابوطالب هو الذي
كفل رسول الله صغيراً، وقام بنصره ومنعه من اذى المشركين، وكان ابوطالب مسلماً لا يجاهر
باسلامه ولو جاهر لم يمكنه ما أمكنه من نصر رسول الله (ص).
امه: فاطمة بنت اسد بن هاشم، وكانت لرسول الله (ص) بمنزلة الام، وكان
يسميا امي.

مولده ووفاته: ولد يوم الجمعة ١٣ رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة وقبل بعثة
النبي (ص) باثنتي عشرة سنة، ويمكن تقدير تاريخ مولده بين ٦٠٠ أو ٦٠٤ ميلادية وكانت
ولادته بمكة في الكعبة المشرفة، وهو اول مولود ولد في الكعبة.^(١)
ولقد اغتيل الامام (ع) وهو في افضل ساعة عبادته، حيث يقوم بين يدي الله، حيث
امتدت اليه يد الأثيم (ابن ملجم المرادي) فضرب الامام (ع) بسيف وهو في سجوده عند
صلاة الفجر وفي مسجد الكوفة، وذلك في صبيحة اليوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك
عام ٤٠ هـ.

١. راجع دائرة المعارف الاسلامية الشيعية، حسن الامين، ص: ٦٨ المجلد الاول، وكذلك كشف الغمة ج ١،

والغدير/ الأُمِّي ج ٦، ص: ٢٢-٣٨

مكائنه من خلال الكتاب والسنة:

١/ الكتاب:.

«انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا» الاحزاب:

الأحزاب: ٣٣

.٣٣

ذكر المفسرون والرواة في سبب نزولها، انها نزلت في رسول الله (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع)، ولما نزلت الآية قالت ام سلمة زوجة الرسول (ص): هل انا من اهل البيت؟ قال: «لا ولكنك على خير»^(١)

«ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا، انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء، ولا شكورا انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قطيريا فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا» سورة الدهر: ٧ - ١١.

ولقد اجمع المفسرون بأنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين -ع-.

وكان ذلك عندما مرض الحسنان، فنذر علي (ع) وفاطمة وفضة ان شفي الحسنان، فإن عيا والزهراء يصومون لله تعالى ثلاثة ايام، وبعد شفاء الحسينين صام اهل البيت (ع) وعند غروب شمس اليوم الاول طرق الباب عليهم مسكين يشكو جوعه، فأعطوه ما عندهم من خبز الشعير.

وفي اليوم الثاني استطعمهم يتيم فأطعموه.

وفي ثالث ايام النذر سألهم أسير، فقدموا له طعامهم وهكذا بقي اهل البيت (ع) ثلاثة ايام لم يذوقوا فيها غير الماء وأنزل الله هذه الآيات الكريمة اعظاما لشأنهم واكبارا لعملهم ليكونوا القدوة والمثال.^(٢)

١. راجع صحيح مسلم، في كتاب فضائل الصحابة، والحاكم في مستدرک الصحيحين ج ٣ ص: ١٤٧ والبيهقي في سننه ج ٢، ص: ١٤٩، والسيوطي في الدر المنثور في تفسير الآية، وصحيح الترمذی ج ٢، ص: ٢٠٩ وابن حجر في تهذيب التهذيب ج ٢ ص: ٢٩٧ وغيرهم نقلا عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١، ص: ٢٢٤ وما بعدها.

٢. الزعزعي/الكشاف ج ٢، وجمع البيان/الطبرسي في تفسيره سورة الدهر وابن عبد ربه في العقد الفريد ج ٣، ص: ٤٢ - ٤٧، والحاكم النيسابوري في الكفاية، وابي اسحاق الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» والالوسي

«فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم، فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين». آل عمران: ٦٦

اجمع أهل التفسير بأنها نزلت، حين خرج رسول الله (ص) بعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع) لمباهلة نصارى نجران، فلما رآه النصارى قد خرج بأهل بيته خافوا العاقبة واعتذروا عن مباهلة، فدفعوا الجزية خصوصاً منهم لسلطان دولة الرسول (ص) (١).
«إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» المائدة: ٥٥

ذكر المفسرون أن الآية نزلت في علي (ع) وحينما تصدق (ع) على مسكين بخاتمه أثناء ركوعه، وهي آية تؤكد امامة الامام، وضرورة الالتزام به مرجعاً فكرياً وسياسياً للأمة (٢).

٢/ في السنة الشريفة:

عن البراء بن عازب قال: «أقبلنا مع رسول الله (ص) في السنة التي حج، فنزل في بعض الطريق، فأمر: الصلاة جامعة، فأخذ بيد علي فقال: أأستأوى بالمؤمنين من أنفسهم؟»
قالوا: بلى



في روح المعاني، والطبري في الرياض ج ٢، ص: ٢٠٧، نقلاً عن الفدير/الاميني ج ٣ ص: ١٠٧ - ١١١
١. صحيح الترمذي ج ٢ ص: ٣٠٠ واحد بن حنبل في المسند ج ١، ص: ١٨٥ والسيوطي في الدر المنثور، والترمذى، في كشفه، والفخر الرازي في تفسيره الكبير وغيرهم نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة، ص: ٢٤٤ وما بعدها

٢. راجع تفسير البضاوى ومجمع البيان للطبرسي، وابواسحاق الثعلبي في تفسيره، والطبري في تفسيره ج ٦، ص: ١٦٥، والواحدى في اسباب النزول، ص: ١٤٨ والحازن في تفسيره ج ١، ص: ٤٩٦، والرازي في تفسيره ج ٣، ص: ٤٣١ والنيسابورى في تفسيره ج ٣، ص: ٤٦١، وابن حجر في الصواعق ص: ٢٥ وغيرها نقلاً عن عيان الشيعة ج ٣، ص: ١٣٠ - ١٣٤ وخلفاء الرسول الاثنا عشر، ص: ١٠٣ وما بعدها.

قال (ص): الست أولى بكل مؤمن من نفسه؟

قالوا: بلى

قال (ص): «فهذا ولي من أنا مولاه، اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاداه» ورواها أحمد بن حنبل «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(١)
وقال (ص): «علي مع الحق والحق مع علي لن يفترقا حتى يردا على الخوض»^(٢)
وقال (ص): لكل نبي وصي وإن عليا وصيي ووارثي^(٣).

وفي حديث لرسول الله (ص) يخاطب به عمار بن ياسر (ره) جاء فيه: «إن سلك الناس كلهم واديا فاسلك واديا سلكه علي وخل الناس طرا»^(٤)

الإمام وموقفه من الخلفاء:

وما أن فاضت نفس رسول الله (ص)، واشتغل الامام وأهل البيت (ع) بتجهيزه وتشيعه الى مثواه الأخير، حتى يبادر الانصار وبعض المهاجرين الى اجتماع في سقيفة سعد بن عباد لتتصيب من يخلف النبي (ص) في قيادة المسلمين.

وبعد مناقشات، وصراع سادته جوم التور والقلق والتهديد باستعمال العنف، يادرعمر بن الخطاب الى بيعة ابي بكر بالخلافة^(٥)، والامام علي (ع) بعيد عنهم مشغول بتجهيز فقيد الامة العظيم رسول الله (ص). اذ ظل (ص) جثمانه الطاهر ثلاثة ايام^(٦) دون دفن ليتسنى للمسلمين توديعه والصلاة عليه.

ولعدم قناعة الامام (ع) بما جرى ظل مؤمنا بحقه في الخلافة، واعتزل الوسط

١. سند ابن حنبل ج ٤، ص: ٢٨١، صحيح ابن ماجه، ص: ١٢، الترمذی والطبری وکذا العمال ج ١، ص: ٤٨، ومستدرک الصحيحین وسواهم، نقلا عن کتاب الغدير/ للأميني ج ١

٢. تاريخ البغدادی ج ١٤، ص: ٣٢١ والمبشهي في مجمه ج ٧، ص: ٢٣٥ وکذا العمال ج ٦، ص: ١٥٧ وتفسير الرازي ج ١، ص: ١١١ نقلا عن علي والوصية، ص: ١١٣

٣. احمد بن حنبل، وکذا العمال ج ٦، ص: ١٥٤، والمعجم الكبير للطبراني نقلا عن علي والوصية/ للعسکري، ص: ١٩٤

٤. تاريخ الخطيب البغد ج ١٣، ص: ١٨٦ والمبشهي في مجمه ج ٧، ص: ٢٣٦ وکذا العمال ج ٦، ص: ١٥٥

٥. راجع صحيح البخاری ج ٤، ص: ١٩٤/ والسقيفة/ للظنفر.

٦. تاريخ ابن کثير ج ٥، ص: ٢٧١ وتاريخ ابي الغداء ج ١، ص: ١٥٢ نقلا عن الغدير ج ٧، ص: ٧٥

الاجتماعي، وما هم فيه ستة شهور، ولم يسمع له صوت في ما يسمى بحروب الردة ولا سواها^(١)

ولقد تعامل الامام (ع) مع الخلافة، حسب ماتحكم به المصلحة الاسلامية حفظا وصونا للوحدة الاسلامية من التمرق والضياغ، وتحقيقا للمصالح العليا الاسلامية التي جاهد من أجلها.

وللامام (ع) تعليق بهذا الصدد يقول:

«فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام، يدعون الى محق دين محمد (ص) فخشيت ان لم انصر الاسلام واهله أن أرى فيه ثلما او هداما، تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي انما هي متاع أيام قلانل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب أو كما ينفثع السحاب فنهضت في تلك الاحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهت»^(٢)

لقد رفض الامام (ع) — بعد السقيفة — ان يستجيب لدعوة ابي سفيان التي آزره فيها العباس بن عبد المطلب ودعاه فيها ان يعارض النتيجة التي اسفر عنها اجتماع السقيفة وقال: «سلامة الدين احب الينا»^(٣)، كما انه أعلن قبوله للنتيجة التي اسفرت عنها الشورى وان كان قد سجل عدم رضاه عنها، فقال: «لأسلمن ماسلمت امور المسلمين، ولم يكن فيها جور الا على خاصة»^(٤).

«بيد ان صوت علي (ع)، كان يعلو عندما يستشار ويجهر عندما يستفتى، وقد تصدى — في هذا المضمار — لتوجيه الحياة الاسلامية، وفقا لما تقتضيه رسالة الله تعالى في الحقوق التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ومن اجل ذلك فإن الباحث التاريخي في حياة الامام (ع) لا يلبث الا ان يلتقي مع مئات المواقف والاحداث، في خلافة ابي بكر وعمر وعثمان، التي لا تجد غير الامام (ع) مدبرا

١. السقيفة/الظفر، ص: ١٦٠

٢. نهج البلاغة/تبويب، د، صبحي المصالح، ص: ٤٥١

٣. نهج البلاغة، بيروت

٤. نهج البلاغة، ٥١/١

لها ومعالجا وقاضيا بأمر الشريعة فيها.

واختلفاء الثلاثة لم يروا بدا من استشارته، اذا التبتست عليهم الامور، وهكذا تجده — مرة — مرشدا الى الحكم الاسلامي الصحيح في امر ما ومرة تجده قاضيا في شأن من شؤون الامة، وأخرى موجهها للحاكم الوجهة التي تحقق المصلحة الاسلامية العليا^(١). ولقد نبه الخليفة عمر بن الخطاب مشيدا بفضل علي (ع) ومنوها بأهميته في مسيرة الخلافة بقوله: «اعوذ بالله ان اعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن^(٢)».

شخصيته واخلاقه الاجتماعية:

لقد عبرت الكثير من النصوص عن شخصية الامام ومكانته في دنيا الاسلام: فهو المطهر من الرجس، وهارون الامة، وكفه ككف النبي (ص) في العدل، وهو رفيق الحق لا ينفك احدهما من الاخر، وهو باب العلم الالهي، وفاروق الامة وو... الخ عبادته:

لكثرة تعاهده لأمر الصلاة والتضرع الى الله تعالى يروى عروة بن الزبير في حديث له عن ابي الدرداء:

قال: «شهدت علي بن ابي طالب .. وقد اعتزل عن مواليه، واختفى من يليه .. وبعد عن مكانه، فقلت الحق بمنزله، فإذا انا بصوت حزين ونغم شجي، وهو يقول: «الهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكلمت عن كشفها بكرمك، الهي ان طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فا انا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك»

فشغلني الصوت، واقتفيت الاثر، فاذا علي بن ابي طالب (ع) بعينه، فاستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغامر، ثم فرغ من الدعاء والبكاء والابث والشكوى فكان مما ناجى به الله تعالى، أن قال: «الهي أفكر في عفوك، فتهون علي

١. راجع للاستفادة امير المؤمنين/علي بن ابي طالب/لجنة التأليف في دارالتوحيد ج ١، ص: ٥٧ — ٥٨

٢. الدر المنثور/السويطي ج ٣، ص: ١٤٤. وسيرة عمر لابن الجوزي، صفحة ١٠٦ والفتوحات الاسلامية لدهلان ج

٢، ص: ٤٨٦ نفلا عن القدير ج ٦ و٧ —

خطيبي، ثم اذكر العظيم من اخذك فتعظم عليّ بليتي»

ثم قال: «آه إن انا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وانت محصيها، فتقول: خذوه فياله من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، ولا يرحمه الملائكة اذا أذن فيه بالنداء».

ثم قال: «آه من نار تنضج الاكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوى، آه من لهبات

لظى»

قال ابوالدرداء: ثم امعن في البكاء. فلم اسمع له حساء، ولا حركة... فأثيته فاذا هو

كالخشبة الملقاة فحركته، فلم يتحرك، وزويته فلم ينزو.

ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه، فأفاق، ونظر الى وأنا ابكي فقال: مما بكاؤك يا

أبا الدرداء؟

فقلت: مما أراه تنزله بنفسك.

فقال: «يا أبا الدرداء، فكيف لو رأيتني، ودعي بي الى الحساب، وأيقن اهل الجرائم

بالعذاب، واحتوشني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار، قد

أسلمني الأحباء ورفضني اهل الدنيا، لكنك أشد رحمة لي بين يدي من لا تحق عليه خافية»

فقال ابوالدرداء: «فوالله ما رأيت ذلك لأحد من اصحاب رسول الله (ص)»^(١)

وحول التزامه بقيام صلاة الليل طول عمره الشريف، يروى لنا ابو يعلى — في

المسند — عنه (ع) قال: «ما تركت صلاة الليل منذ سمعت قول النبي (ص): صلاة الليل

نور»^(٢)

وكان يقول (ع) موضحا علاقته بالله تعالى:

«الهي ما عبدتك خوفا من عقابك، ولا طمعا في ثوابك ولكن وجدتك أهلا

لعبادة فعبدتك»^(٣)

وهكذا كان علي (ع) في شدة تعلقه بالله، وعظيم تمسكه بمنهج الانبياء (ع).

انه ترجمة صادقة لعبادة محمد (ص) وزهد المسيح (ع).

١. بحار الانوار، ج ٤١، ص: ١١ — ١٣

٢. بحار الانوار، ج ٤١، ص: ١٧

٣. نفس المصدر، ص: ١٤، وتذكره اخوان لسبط ابن الجوزي، ص: ١٤٤

زهد:

«كان (ع) أشبه الناس طعمة برسول الله (ص) يأكل الخبز والحل والزيت ويطعم الناس الخبز واللحم»^(١)

وعن سفيان الثوري عن عمرو بن قيس قال: «رؤى على علي (ع) إزار مرقوع فعوتب في ذلك؟

فقال: يخشع له القلب ويقتدى به المؤمن.»^(٢)

وعن الغزالي يقول «كان علي (ع) يمتنع من بيت المال حتى يبيع سيفه، ولا يكون له الا قيص واحد في وقت الغسل ولا يجد غيره»^(٣).

ويقول الامام (ع): «على أئمة الحق ان يتأسوا بأضعف رعيتهم في الأكل واللباس، ولا يتميزون عليهم بشئ لا يقدر عليهم ليراهم الفقير فيرضى عن الله تعالى بما هو فيه ويراهم الغني فيزداد شكرا وتواضعا»^(٤).

اخلاقه:

دخل ضرار على معاوية — أيام استكان الناس وأسلموا لمعاوية القياد — فأخ على الرجل ان يصف له عليا فتردد ضرار كثيرا، فلما مضى معاوية في اصراره قال ضرار: أما اذا لابد فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته.

كان والله عزيز الدمعة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشِب.

كان والله كأحدنا، يحينا اذا سألناه، ويبتدئنا اذا أتيناه ويأتينا اذا

١. نفس المصدر، ج ٤٠، ص: ٣٣٠

٢. تذكرة الخواص، ص: ١٢٠

٣. مناقب ابن شهر آشوب، ج ١، ص: ٣٦٦ عن الاحياء للغزالي.

٤. تذكرة الخواص، ص: ١١٨

دعونا... ونحن والله مع قربه منا، ودنوه إلينا لانكم هيبة له ولا نبتديه لعظمته فإن تبسم فعن مثل التؤلؤ المنظوم. يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوى في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله^(١) وكان (ع) يوصي الناس بأخلاق الإسلام بقوله:

«سعد الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، وإياك والغضب فإنه طيرة من الشيطان، واعلم أن ما يقربك من الله يبعدك من النار، وما يبعدك من الله يقربك من النار»^(٢)

تواضعه:

فعن الصادق (ع) يقول: «كان علي (ع) يحطب ويكنس، وكانت فاطمة تطحن وتعجن وتخبز»^(٣)

ومن تواضعه (ع) أنه خرج يوما على أصحابه، وهو راكب فمشوا خلفه، فالتفت إليهم فقال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا يا أمير المؤمنين، ولكننا نحب أن نمشي معك.

فقال لهم: انصرفوا فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلة للماشي^(٤) ومن تواضعه الجُم أكنه خبز الشعير واللبن، ولبسه أبسط أنواع الدباس، وترقيعه لثوبه البالي، وبساطته في مسكنه، ووقوفه بين يدي القاضي مع رجل من عامة الشعب الذي يضطلع الامام (ع) بقيادته^(٥).

وكان الامام (ع) سهلاً قريباً متواضعاً، يلقي أبعاد الناس وأقرهم بلا تصنع ولا تكلف ولم يحط نفسه بالألقاب ولا بأبهة الملك بل كان يتعامل مع الأمة كفرد منها، يعيش مشاكل الضعفاء ويتودد للفقراء ويعظم أهل التقوى من الناس.

ومن تواضعه (ع) مقابلته من يلقاه من البشر وطلاقة الحيا والابتسامة الخلة وبشر الوجه، الغاء منه للحواجز والرسميات بين القيادة والأمة، وإنهاء لدور الزخرف والألقاب

١. تذكرة الخواص/ص: ١٢٧ - ١٢٨

٢. نهج البلاغة

٣. مناقب آل أبي طالب ج ١ ص: ٣٧٢

٤. البحار، ص: ٥٥ عن المحاسن

٥. بحار الأنوار ج ٤١، ص: ٥٦

التي تحيط بها الامراء والقادة انفسهم عبر تعاملهم مع الناس.^(١)

حلمه:

ولقد اشتهر (ع) بحلمه وعفوه عن يسيء الادب معه، فهو لا يعرف الغضب الا حين تنتهك للحق حرمة او تتعدى حدود الله تعالى، او يتعدى على حقوق الامة وتضر مصالحها وهذه بعض نماذج عفوه وحلمه:

أسر مالك الاشتر (ره) مروان بن الحكم يوم الجمل، فلما مثل مروان بين يدي الامام (ع) لم يستقبله بسوء قط، وانما عاقبه على موقفه الخياني اللئيم فحسب،^(٢) ثم اطلق سراحه ومروان هو في حقه على الاسلام والامام (ع) وهو في دسائسه ومكره، ودوره الخبيث في تأجيج الفتن في وجه الامام (ع) اشهر من ان نذكره، فهو الذي عارض البيعة للامام (ع) وهرب من المدينة بعد البيعة مباشرة، وهو الذي ساهم في فتنة البصرة وأهلب الناكثين وأغراهم بالتعجيل بها.. الى غير ذلك من مواقفه الخيصة.

ولقد عفا الامام (ع) كذلك عن عبدالله بن الزبير^(٣) بعد ان اسره يوم الجمل وهو الذي كان يقود الفتنة في حرب الجمل.

وقد خلى سبيل موسى بن طلحة بن عبيد الله، وكان طرفا في فتنة الجمل، فلما جاء به للامام، طلب منه ان يستغفر الله ويتوب اليه ثم قال:

«اذهب حيث شئت، وما وجدت لك في عسكرنا من سلاح او كراع (جمع الخيل) فخذ واتق الله فيما تستقبله من امرك واجلس في بيتك»^(٤)

وهناك شواهد ومفردات كثيرة تروى لنا حلم الامام وعظيم صفحه منها:

«دعا الامام (ع) غلاما له مرارا فلم يجبه، فخرج فوجده على الباب فقال: ما حملك

على ترك اجابتي؟ قال:

١. راجع للتوسع/ امير المؤمنين علي بن ابي طالب/ لجنة التأليف في دار التوحيد ج ٣، ص: ٧٣ - ٧٥

٢. المناقب ج ١، ص: ٣٨ ونهج البلاغة نص ٧٣

٣. شرح نهج البلاغة ج ١، ص: ٢٢

٤. بحار الانوار ج ٤١، ص: ٥٠ نقلا عن امير المؤمنين/ دار التوحيد، ص: ٨٢

كسلت عن اجابتك ، وأمنت عقوبتك ، فقال (ع):

الحمد لله الذى جعلني ممن يأمن خلقه ، امض فأنت حر لوجه الله»^(١)

«وقد خاطبه رجل من الخوارج بقوله «قاتله الله كافرا ما افقهه»

فوثب اصحاب الامام (ع) ليقتلوه، فقال الامام (ع): «انما هوسب بسب أو عفوعن

ذنب»^(٢)

وموقف الامام (ع) مشهور من ابن ملجم المرادى الذى اغتاله في مسجد الكوفة

حيث اوصى في آخر حياته ولديه الحسن والحسين (ع) بقوله:

«احبسوا هذا الاسير، واطعموه وأسقوه، واحسنوا اساره فإن عشت فأنا اولى بما

صنع فيّ، ان شئت استقدت وان شئت صالحت وان مت فذلك اليكم، فان

بدا لكم ان تقتلوه فلا تمسوا به»^(٣)

* * *

١. المناقب ج ١، ص: ٣٧٩

٢. نفس المصدر، ص: ٢٨٠ وبحار الانوار ج ٤١، ص: ٤٩

٣. بحار الانوار ج ٤٢، ص: ٢٠٦ باب ١٢٧

الفصل الثالث: حياة الامام علي (ع) السياسية

مدخل:

قبل الحديث عن مواقف الامام (ع) من الاحداث، وكيفية معالجته لها، علينا ان نلم بشيء موجز عن تلك الظروف والملابسات الاجتماعية والاتجاهات الفكرية والسياسية التي سبقت حكمه، والتي بدأت الامة الاسلامية تشهد فيها انحرافا صريحا عن مبادئ الاسلام وتعاليمه. قلنا سابقا بأن الامة الاسلامية في عصر نبيها محمد (ص) انفرز فيها اتجاهان رئيسيان، رافقا نشوء الامة، وبداية التجربة الاسلامية منذ السنوات الاولى، والاتجاهان الرئيسيان هما:

الاول: الاتجاه الذي يؤمن بالتعبد بالنص الديني، وبالتالي تحكيمه والتسليم المطلق في كل مجالات الحياة.

الثاني: الاتجاه الذي يرى ان ايمانه بالاسلام لا يتطلب منه التعبد والتسليم الا في نطاق خاص من العبادات والغيبات، ويؤمن بمجواز التصرف والتغيير والتعديل في النص الاسلامي^(١) وقد انعكس كلا الاتجاهين في مجلس الرسول (ص) «في آخر يوم من ايام حياته عند ما طلب (ص) من الحاضرين، وفيهم عمر بن الخطاب، «ان يكتب هم كتابا، كي لا يضلوا بعده» فكان رد عمر على طلب الرسول (ص) «بأن النبي (ص) قد غلب عليه الوجد وحسبكم والقرآن» فاختلف اهل البيت واختصموا «حتى قال لهم (ص) قوموا لا ينبغي عند

١. راجع للاستزادة بحث حول الولاية/ السيد الشهيد الصدر - وابن كثير في بدايته ومسلم في صحيحه.

نبي نزاع»^(١)

وقد بدأ الصراع بين ممثلي هاذين الاتجاهين في حياة النبي (ص)، وقد انعكسا على موقف المسلمين من أطروحة زعامة الامام علي (ع) للدعوة بعد النبي (ص). فكان ممثلوا الاتجاه (الاجتهادي) يرون أنه بالإمكان التحرر من الصيغة المطروحة. من قبل النبي (ص) اذ أدى اجتهاده الى صيغة أخرى أكثر انسجاماً في تصوره مع الظروف وملابسات الواقع. اما الاتجاه (التعبدى) فقد اتجه ممثله الامام علي (ع) منذ اللحظة الاولى الى استنكار ما اتجهت اليه مقررات السقيفة من تجريد لأطروحة زعامة الامام (ع)، واسناد السلطة الى غيره. ويمكن ان نشهد التحول والانحراف بوضوح، في حياة الامة الاسلامية، منذ بداية النصف الثاني من عهد الخليفة عثمان بن عفان، هذا الانحراف نفسه صار فيها بعد اساساً للظروف والملابسات الاجتماعية والسياسية التي عاشها الامام علي (ع) فتصدى لها (ع) منذ اللحظة الاولى لتسلمه لزمَام مسؤولية الخلافة في الدولة الاسلامية، محاولاً تحصين الامة ضد صدمة انحراف (الحكام) والعودة بها الى الحياة الاسلامية الكريمة.^(٢)

ونشير هنا الى اهم تلك الاحداث والظروف التي ساهمت في التمهيد للتطورات الكبرى في عهد عثمان بن عفان والتي عاش اثارها السيئة الامام علي (ع) وهي :

١ - منطق السقيفة:*

نعني به الروح القبلية التي سادت وتحكمت بمنطق المتنافسين والاتجاه نحو تعزيز مبدأ انحصار السلطة بكل واحد منهم وعدم مشاركة الآخرين في الحكم والتأكيد على المبررات الوراثية.

«من ينازعنا سلطان محمد ونحن اولياؤه وعشيرته»

وحينما تجمع انصار السقيفة لتأمر سعد بن عبادَةَ قال منهم «ان ابنت مهاجرة قریش، فقالوا: نحن المهاجرون ونحن عشيرته واولياؤه، قالت طائفة منهم: اذا نقول منا امير ومنكم امير، لن نرضى بدون هذا أبداً»

١. راجع النص في صحيح البخارى/باب مرض النبي/المجلد الثالث، وابن سعد في طبقاته، والطبرى بتاريخه

٢. راجع للتفصيل فتوح البلدان، ص: ٤٣٧، وابن حديد شرح نهج البلاغة ج ٢٠، ص: ١٧ - ٢١

٥. راجع للاستفسار والتوسع ثورة الحسين/المحمد مهدي شمس الدين، ص: ٧٥

وقال الحباب بن المنذر وهو يشجع الانصار على التمسك : «املكوا عليكم ايديكم، انما الناس في فيثكم وظلكم، فان ابى هؤلاء فنا امير ومنهم امير»

فرّد عليه عمر قاتلاً: هيهات، لا يجتمع سيفان في غمد، من ذا يخاصمنا في سلطان محمد وميراثه ونحن اولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل او متجانف لإثم او متورط في هلكه. (١)

هذا اللون من التفكير القبلي، واستعداد كثير من الانصار لتقبل فكرة اميرين احدهما من الانصار والآخر من المهاجرين، حتى كان يرى كل جناح انه احق من غيره بالامر (٢)، وعلي بن ابي طالب وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بثمان النبي (ص) الذي كان لم يدفن بعد (٣)، حيث اندفع عمر بأبي بكر وتقديمه في اجتماع السقيفة، ليبثوا في امر الخلافة، وحين بلغ النبا الامام علي (ع) رفض البيعة (٤) ورفضها معه انصاره واستمروا هكذا ممتنعين عن البيعة ستة اشهر كاملة بل ان عليا اعتبر اجتماع السقيفة في غيبته تأمراً.

هذه الروح القبلية هي التي فتحت على المسلمين باباً من ابواب الفتنة، كما يصرح بذلك عمر بقوله: «ان بيعة ابي بكر كانت فلتة وفي الله شرها فمن عاد الى مثلها فاقتلوه، فأياً رجل بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فانها تغرة يجب ان يقتل» (٥)

٢ - مبدأ عمر في العطاء:

بعد ان كان العطاء بين المسلمين بالتساوي في زمن النبي (ص) وكذلك في عصر

١. راجع في نصوص يوم السقيفة شرح نهج البلاغة ٦/٦ - ٩

٢. الطبري ج ٣١/٥، الكامل لابن الاثير ج ٣١/٣

٣. سيرة ارسول لابن هشام ج ١٠١٨/٢

٤. انظر النزاع والتخاصم/ المقرئ ص: ٤٨

٥. الملل والنحل/ الشهرست في

أبي بكر، عمد عمر إلى مبدأ التفضيل في العطاء:

«ففضل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضل العرب على العجم وفضل الصريح على المولى»^(١) «وفضل مضر على ربيعة، ففرض لمضر في ثلاثمائة ولربيعه في مائتين»^(٢) وفضل الأوس على الخزرج»^(٣)

وهذا أوجد الخليفة بوادر الطبقية في المجتمع الإسلامي والتي أصبحت فتيلة أشعلت نار الصراع القبلي بين ربيعة ومضر وبين الأوس والخزرج^(٤) والصراع العنصري بين العرب والعجم والصريح والموالي.^(٥)

وقد أدرك عمر في أواخر حياته خط مبدئه وأعلن عزمه على الرجوع إلى مبدأ المساواة في العطاء بقوله: «وإن عشت هذه السنة، مساويت بين الناس فلم أفضل أحمر على أسود ولا عريباً على عجمي وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر»^(٦)

ولكن عمر اغتيل قبل أن يتمكن من معالجة غلطته، والرجوع عن مبدئه، فجاء عهد عثمان وسار عليه، فظهرت آثاره الضارة في الحياة الإسلامية. وكان من أهم العوامل التي مهدت للفتنة بين المسلمين في زمن الإمام علي (ع).

٣ - الشورى

«نعني بها طريقة عمر اختيار وتعيين ستة نفر من قريش وتقديمهم للامة الإسلامية كمرشحين للخلافة من بعده»^(٧) واقتراحه هذا أثار في نفوس كثير من الأشخاص البارزين

١. ابن حديد، ١١١/٨

٢. تاريخ يعقوبي، ١٠٦/٢

٣. فتوح البلدان: ٤٣٧

٤. تاريخ يعقوبي، ج ١٠٦/٢

٥. ابن حديد، ج ١١١/٨

٦. تاريخ يعقوبي/ج ١٠٧/٢

٧. الكامل لابن الأثير ج ٣/٣٦

في قریش وفي نفوس قبائلهم وانصارهم، مطامح سياسية، ما كانوا ليحملوا بها، لانهم رأوا ان بعض من رشحهم عمر لا يفضلونهم في شيء، بل ربما امتازوا عليهم في اشیاء كثيرة. فالناس كانوا يريدون علياً لأنهم يخشون سلطان بنی امیة اما قریش فكانت تخشى علياً في عدله واستقامته.

«اجتمع الناس وكثروا على الباب، لايشكون في علي وانه يبايع علي بن ابي طالب، وكان هوى قریش — ماعدا بنی هاشم — في عثمان، وهوى طائفة من الانصار مع علي، وهوى طائفة أخرى مع عثمان، وهي اقل الطائفتين»^(١)

وقد ترسخ هذا الطموح عندما «تمت تنحية الامام (ع) مرشح الاكثرية المسلمة عن الخلافة واسنادها لعثمان بن عفان مرشح الارستقراطية القرشية، عندما بادر عبد الرحمن بن عوف بخلع نفسه ليكون في موقف المحايد، ويحصر الترشيح في علي (ع) وعثمان ليختار هو بينهما.

وقد طلب من علي (ع) ان يبايعه على كتاب الله وسنة رسوله وفعل عمر وابي بكر، فقال علي: لا.. ولكني احاول ذلك جهدي وطاقتي، وطلب من عثمان نفس ماطلبه من علي فأجابه عثمان على الفور بالمواقفة.. فبايعه.. وتمت له الخلافة»^(٢)

وقد عبر الامام (ع) عن عدم رضاه عن هذه النتيجة بقوله «لأسلمن ماسلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور الأعلى خاصة»^(٣)

بينما اخذ الطامعون الى الخلافة يجمعون الأنصار حوهم في الحفاء ويستعينون على ذلك بأموالهم وقبائلهم، وانشاء علاقات المصاهرة مع القبائل الأخرى، حتى اذا تقدم العمر بخلافة عثمان قليلا ظهرت هذه الاحزاب الى العلن تعمل في سبيل هدفها.

وكانت عاقبة الشورى ومن نتائجها نشوء احزاب وتكتلات قائمة على الولاء الشخصي من ذوى الاهداف الشخصية للوصول الى الحكم، مستغلة اسباب الشكوى والاستياء من عثمان وبطانته وولايته على الامصار، متفاعلة مع اسباب أخرى في اسلوب

١. ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ٥٢/٩

٢. عثمان بن عفان حين تنال من دائرة المعارف الاسلامية الشيعية/حسن الامين ٩٤/٢

٣. نهج البلاغة ج ١/١٥١

عثمان ومعالجاته في سياسية المال والادارة والاجتماع حتى كانت نتيجتها قيام الثورة ومصرع عثمان.

٤ - سياسة عثمان:

لقد دأب عثمان منذ ان ولي الحكم، على ممارسة سياسة خطيرة ومغامرة في المال وتنصيب الولاة. فقد طفق يهب خواصه وذوى رحمه ومن يمت اليه بنسب اوسبب الاموال العظيمة، ويخصهم بالمنح الجليلة ويحملهم على رقاب الناس.... وولى على البلدان الاسلامية شبانا من بني امية لا يحسنون الحكم ولا السياسة، ذوى روح تسلطية عاتية، لم ينل منها الاسلام شيئا مذكورا.

وهكذا كونت هذه الطبقة ارستقراطية من الاغنياء المترفين الذين لا تزال تعمل في صدورهم القيم البدوية الجاهلية، وقد امتد نفوذ هذه الطبقة في خلافة عثمان امتدادا هائلا فسيطرت على الحكم سيطرة مطلقة وحازت الاموال العظيمة التي افاءها الله على المسلمين، والتي كان المفروض فيها ان تذهب الى المعدومين والفقراء، وانتشرت هذه الطبقة في طول البلاد وعرضها، حين فتح لها عثمان باب الهجرة والتنقل في البلاد الاسلامية.

والى جانب ذلك كانت ثمة طبقة أخرى تتألف من الاعراب واهل البادية وكانت القوى المسلحة في الدولة الاسلامية مكونة منهم ينضم اليهم من دخلوا من الامم (غير العرب) هؤلاء كانوا يلقون في زمن عثمان حيفا كبيرا من طبقة الارستقراطية الناشئة الطامحة الى المزيد من القوة والاستيلاء بسبب ما يعمل في نفوس افرادها من قيم البداوة.

وكانت عاقبة ذلك ان تضخمت الفروق بين الطبقات تضخما كبيرا من الناحية المادية والمعنوية، وانقلبت الأثرة الى طغيان، وانقلب الحقد الى زئير، وتراكم الطغيان حتى وجد رد فعل طاغ في ثورة المظلومين الذين اثقلهم الظلم الفادح على حكومة عثمان وعلى ولاته»^(١)

ولقد كان سلوك عثمان ازاء معارضي سياسته من كبار الصحابة واركان الدعوة سببا في مضاعفة النقمة عليه.

فقد عارض سياسة عثمان في المال والادارة عبدالله بن مسعود وكان خازنا لبית المال فاعترضه عثمان بقوله: «انما انت خازن لنا»، ثم اشتدت معارضة ابن مسعود فأمر عثمان بضربه حتى كسر بعض اضلاعه:

وعارضه ابوذر الغفاري فنفاه الى الشام، وما ان وصل الشام حتى اخذ ينتقد اساليب معاوية في انفاق الاموال العامة وصادف كلامه هوى في نفوس رعية معاوية فكتب الى عثمان فأرسل اليه عثمان، فوصل ابوذر الى المدينة وقد تأكل لحم فخذه من عنف السير، فنفاه عثمان الى الرعدة، ولث فيها حتى مات غريبا وحيدا سنة ٣٢ هـ.

وعارضه عمار بن ياسر، فشمته عثمان وضربه، ولكن هذا العنف لم يثن عمارا فاستمر في معارضته، فأمر به عثمان فطرح ارضا، ووطئه برجليه، حتى اصابه الفتق.

وعارضه غير هؤلاء من الصحابة من المهاجرين والانصار في الاحداث التي كان يقوم عليها، والسياسة التي كان ينتهجها، فلم يسمع منهم ولم يستجيب لهم.

وهؤلاء المعارضون كانوا يعبرون بمعارضتهم هذه عن ارادة جميع المسلمين الذين آذتهم سياسة عثمان في كراماتهم وازواقهم، ولم يفسر المسلمون سياسة عثمان من المعارضة الا بأنه عازم على المضي في سياسته دون الالتفات الى اى نصيح او تحذير.

وقد مكن عثمان سياسته هذه، لمعارضة اسباب القوة والنفوذ، وذلك حين اطلق لها ان تنمي ثرواتها، وتكوين الاقطاعات الضخمة، حيث راح افرادها يستكثرون لانفسهم من الاموال والاتباع، ويمنون انفسهم بالوصول الى الخلافة، ويمنيهم بذلك اتباعهم وقبائلهم.

وقد اشار الطبرى في احداث سنة ٣٥ الى هذه الحقيقة فقال: «فلما ولي عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع اليهم الناس... فلما رأوها ورأوا الدنيا ورأهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام فكان مغمورا في الناس... فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم.. فكان ذلك اول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس الا ذلك»^(١)

* * *

الإمام وموقفه من الثورة على عثمان

المتبع لخبط أحداث الثورة، وخط سيرها حتى مقتل الخليفة عثمان: يدرك بأن الثورة وجهورها الساخط، لم يكن أرعنا ولا قصير نظر.

«لقد كانت جماهير المحاربين هي مادة الثورة، أما وقودها فهو تصرفات عثمان وولاته وآل بيته، وأما الذي أججها فهم أصحاب المصلحة فيها، هم هؤلاء الزعماء الذين أوتوا من الطموح ما جعل الخلافة هدفهم، ومن المال والمنزلة ما مكنهم من جمع الانصار حولهم ومن سوء الاوضاع ما سهل عليهم أن يعدوا الناس بخير مما هم فيه.

* * *

ومع كل هذا حاول الثوار المخلصون، مرارا الاتصال بأولياء الامور ورموز السلطة الحاكمة ومن خلال ممثلهم لكي ينهوا الخليفة عثمان ويعرفوه على سوء الحكم وضرورة معالجتها بالحكمة.

وكانت تأتيه وفود الامصار الى المدينة مرات عديدة حاملة معها طائفة من مطالبها وأمانيتها، وكانت هذه الوفود في كل مرة تبوء بالفشل وتقابل بالاعراض والجفاء. وقد سلك عثمان وبطانته من الامويين والمستنصرين تجاه الثوار سلوكا بعيدا عن الحكمة والعدل، فبدلا من ان تجاب مطالب الثوار ردوا بعنف واستهين بهم، وجوهوا بسياسة قاسية، هي هذه السياسة التي تمخض عنها مؤتمر عثمان مع عماله على الامصار والتي يرويها لنا الطبري بقوله:

«فقال له عبدالله بن عامر، رأيي يا امير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وان تجمهرهم في المغازي حتى يذلوا لك، فلا يكون همّة أحدهم الا نفسه، وما هو فيه من دبرة دابته وقمل فروه.. فرد عثمان عماله على اعمالهم وأمرهم بالتضييق على من قبلهم، وأمرهم بتجمير (جمعهم) الناس في البعوث وعزم على تحريم (منع) أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا اليه»^(١)

ولكن هذه الاجراءات القاسية زادت نار المقاومة اشتعالا فقد رأى هؤلاء الثوار

انهم خدعوا فثألبوا ساخطين من الكوفة والبصرة ومصر والحجاز ومن هنا وهناك للقيام بمسعى جماعي لارغام عثمان على تغيير بطانته وعماله الذين اساءوا السيرة وجاروا على الرعية... وكان الامام (ع) يتوسط بينهم وبين الخليفة في مساع حميدة، فيوعد هم الخليفة خيراً.

لكن ما وقع لنوفد المصري، بعد ان برحوا المدينة، حتى اوعزت السلطة العليا الى حاكم مصر بالقبض عليهم، وما كان من الثوار والمعارضين الا ان عادوا مرة اخرى يرفعون مطالبهم بعنف وقوة اشد، ولم يسعها لحجم عواطفها الملتبة، بل هبت ساخطة محتجة على رعونة وحماقة هذه التصرفات، وتريد وضع حد فاصل لآلامها وبؤسها... وكانت مطالبهم تشمل الآتي:—

١/ الأخذ بمبدأ العطاء المتساوي الذي سار عليه النبي (ص) دون سياسية التفضيل التي سنّها عمر والتي لا تزال.

٢/ تطهير الجهاز الحاكم من المنتفعين والمستغلين، ولا سيما مروان بن الحكم وبطانته المنتفذة في استغلال وتسيير دفة الحكم.

٣/ الوقوف بحزم تجاه اطماع قريش واستثثارهم بالثروات والمناصب ووضع حد لها.

٤/ الحيلولة دون استدلال الامراء للاهلين وامتهان كراماتهم كما فعلوا مع ابي ذر وعمار بن ياسر عندما تحدّوهم وناقشوهم بسلوكهم المنحرف.

٥/ الحد من صلاحية الولاة والامراء في اطلاق ايديهم في التصرف بالخراج والاموال العامة.

وصلت هذه المطالبات الى عثمان، ولكنه لم ينعل شيئاً مذكوراً تجاهها كلياً، وترك الاحداث تتأزم وتتفاقم وتؤج كالنار في الهشيم. فتحوف الامام على نتائج الامور وبادر على الفور الى الاجتماع بعثمان فقال له:

«اناس ورائي، وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدنك على امر لا تعرفه، انك تعلم ما نعلم ما سبقناك الى شيء فنجدك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خصصنا بأمر دونك.. فאלله الله في

نفسك فانك والله ماتبصر من عمى، وما تعلم من جهل وان الطريق واضح
بين»^(١)

وبما قانه (ع) ايضا لعثمان: «ان معاوية يقطع الامور دونك وانت تعلمها فيقول
للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية»
ولكن معاوية لم يزل بعثمان يوغر صدره على علي (ع) ويضرب له المثل بشدته
فيقول:

«هكذا يستقبلك وانت امامه وسلفه وابن عمه وابن عمته، فما ظنك بما غاب
عنك منه؟»^(٢)

وكان عثمان احيانا يذعن لنصائح الامام (ع)، ويعزم على الاصلاح ولكن سرعان
ما يتعلل بمختلف الاعذار ولا يستقر على رأى.

وحيال تردد عثمان قال له الامام (ع): «ما يريد عثمان ان ينصحه احد، اتخذ
بطانة غش ليس منهم احد الا وقد تسبب بطائفة من الارض يأكل خراجها ويستذل
اهلها»^(٣)

وكان عمرو بن العاص يحرص الناس علانية على سياسية عثمان حتى قال يصف
نفسه:

«أنا ابو عبدالله اذا حكمت قرحته نكأتها ان كنت لألقي الراعي فأحرضه على
عثمان»

وهذه عائشة تجترئ على عثمان وهي تخطب، وقد نشرت قيص النبي (ص) قائلة:
«هذا قيص النبي لم يبل وقد ابلت سنته»

اما طلحة والزبير فقد وصلت بهما الحال الى اعانة الثائرين بالمال للإطاحة بعثمان،
والجموع الوافدة من كل مكان، تفتحت ثائرتها، ومضت في اندفاعها مستمرة غاضبة، وكان
الامام علي (ع) موقفه من هؤلاء الثائرين كاطفائي الحريق يذل كل ما في وسعه لتخفيف

١. راجع دائرة المعارف/الامين ج ٢/ص: ٨٧

٢. ن. م ص: ٧٨

٣. ن. م ص: ٨٧

ثأرتهم واطفاء حريقها الملتهب.

وما كان من عثمان الا ان استمهل الثوار ثلاثة ايام لكي يجتمع بهم بعدها ليكون اجتماعا حاسما فاصلا، فلما انتهت اجتمعت جماهير غفيرة على بابه ولم يخرج لهم، بل خرج عليهم مروان بن الحكم مبعوثا عن عثمان، فخطبهم بكلمات ملؤها الرعونة والاستعلاء قائلا:

«ماشأنكم قد اجتمعتم، كأنكم جئتم لنهب؟ شأته الوجوه، كل انسان اخذ بأذن صاحبه، جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من ايدينا؟ اخرجوا عنا اما والله لن رمتونا ليرن عليكم أمر لايسركم ولا تحمدوا غب رأيكم، ارجعوا الى منازلكم، والله مانحن بمغلوبين على ما في ايدينا»

كانت هذه الخطبة المنغومة، بمثابة الفتيل الذي اشعل نار الثورة، فأرسل عثمان على الفور على الامام علي (ع) فأبى ان يأتيه وقال (ع) معلقا بقوله: «قد أعلمته انني لست بعائد» لأن الامام (ع) كبر عليه منطق مروان الذي فاجأه الجمهور المحتشد بلسان الخليفة، بعدما ملأ كلامه حمقا ورعونة لا تطاق، ورأى ان قيمة وساطته لا تعني شيئا لانها لا تعجى نفعاً، وقد امتنع واقفا بأن عثمان سيضطر تحت ضغط الجمهور الى اجابة مطالبهم الاصلاحية الحققة، وتنحية مروان وبطانته ولكن شيئا من هذا لم يقع، واسرع عثمان بارسال كتاب الى معاوية في الشام يقول فيها: «ان اهل المدينة قد كفروا واخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث الي من قبلك من مقاتلة اهل الشام على صعب وذلول»

فاذا بمعاوية حينما جاءه كتابه يتربص به ولا يجيبه.^(١)

ومضت ايام والاحداث تزيد الهوة اتساعاً، وتحولت كل هذه الاخطاء والانحرافات الى خيبة آمال مئات واسعة من المسلمين وغضبها، كما تسببت الى جانب ذلك، في انبعاث كثير من القيم والاحلاق والمطامح الجاهلية التي نشطت للعمل من خلال ممثليها ورموزها في قبة السلطة في مجالات السياسية والاقتصاد والاجتماع وقد ادى انبعاث هذه القيم الجاهلية الى تعارض في المصالح بين ممثلي هذه القيم وبين اكثريه المسلمين الذين كانت تتغذى

نفوسهم بالآمال التي تولدها قيم الاسلام في العدالة الخالصة والمساواة.. هذا التعارض المأساوى الذى مافتئت تغذيه أخطاء الحكم وسياسات الرموز الجاهلية العائدة فتعمقه، وتزيده حدة، وتدفع به الى مزيد من الاتساع والانتشار.

وقد تراكم كل ذلك على مدى سنين، واتسع الى ان شمل حواضر الدولة كلها وأدى في النهاية الى عاقبته الوخيمة وثمرته المرة، ثورة شارك فيها الاغنياء والفقراء الساخطون بلا حقد، والحاقدون من عليّة القوم، وأدت الثورة الى مقتل الخليفة عثمان والى دخول المسلمين في منعطف من تأريخهم جديد. (١)

* * *

الإمام (ع) وموقفه من تولي الحكم:

بعد مقتل الخليفة عثمان، توجهت انظار الثوار الى الامام علي (ع) «يطلبون منه ان يلي الحكم، ولكنه ابى عليهم ذلك، لا لأنه لم يأنس من نفسه القوة على ولاية الحكم وتحمل تبعاته، فقد كان (ع) على تمام الاستعداد لذلك، كان قد خبر المجتمع الاسلامي من اقطاره، وخالط كافة طبقاته وراقب حياتها عن كسب، ونفذ الى اعماقها، وتعرف على الوجدان الطيبي الذي يشدها ويجمعها، وقد مكّنه من ذلك مركزه الفريد من النبي (ص) وهو مركز لم يكن احد من الصحابة يتمتع به، اعده اعدادا تاما لمهمة الحكم» (٢)

بل ان الامام رأى المجتمع الاسلامي قد تردى في هوة من الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والتي زادت عمقا واتساعا بسبب سياسية ولاية عثمان خلال مدة الخلافة، ورأى ان التوجيهات الاسلامية ومفاهيمها العظيمة التي عمل النبي (ص) طيلة حياته على ارساء اصولها في المجتمع الاسلامي الناشئ قد فقدت فاعليتها في توجيه حياة الناس. وانما صار الناس الى واقعهم هذا لأنهم فقدوا الثقة بالقوة الحاكمة التي تهيمن عليهم، فراحوا يسمعون الى اقرار حقوقهم وصيانتها بأنفسهم.

و«قد ادرك (ع) ان حجم الحاجات التي يفترق اليها الناس والآمال التي تعمر

١. راجع حركة لتأريخ عند الامام علي (ع) / محمد مهدي شمس الدين، ص: ١٤٣

٢. راجع للتوسع ثورة الحسين / شمس الدين، ص: ٥١

قلوبهم أكبر بكثير من حجم الامكانيات التي توفرها مؤسسات الدولة، وأن حجم المعوقات التي يمثلها رموز العهد الماضي، وقواه التي شلتها الثورة فاضطرت الى الانكماش.. حجم هذه المعوقات كبير وخطير، لأنها مستشرية في جميع مراكز السلطة»^(١)

وهكذا انقطعت الصلة بينهم وبين الرموز المعنوية التي يجب ان تقود حياتهم والسبيل الى تلافي هذا الفساد هو اشعار الناس ان حكما صحيحا يهيمن عليهم، لتعود الى الناس ثقتهم الزائلة بحكامهم، ولكن هذا لم يكن سهلا قريبا فثمة طبقات ناشئة لا تسيع مثل هذا ولذلك فهي حرة بأن تقف في وجه كل منهج اصلاحي ومحاولة تطهيرية.

اذن فقد كان الامام (ع) يدرك نتيجة لوعيه العميق للظروف الاجتماعية والنفسية التي كانت تحتاج المجتمع الاسلامي في ذلك الحين، ولأن المد الثوري الذي انتهى بالامور الى ما انتهت اليه بالنسبة الى عثمان يقتضي عملا ثوريا يتناول دعائم المجتمع الاسلامي من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ومن هنا كان رفض الامام (ع) وامتناعه عن الاستجابة الفورية لضغط الجماهير والصحابة عليه بقبوله الخلافة، فقد اراد ان يضعهم امام اختبار يكشف به مدى استعدادهم لتحمل اسلوب الثورة في العمل، لئلا يروا فيما بعد أنه استغلهم واستغل اندفاعهم الثوري حين يكتشفون صعوبة الشروط التي يجب ان يناضلوا الفساد الذي ثاروا عليه في ظلها.

وهذا أجابهم الامام (ع) بقوله:

«دعوني واتمسوا غيري، فانا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وان الافاق قد اغامت والمحجة قد تنكرت، واعلموا اني ان اجبتكم ركبتم بكم ما أعلم ولم أصغ الى قول القائل وعتب العاتب، وان تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلنى اسمعكم واطويعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خير لكم مني امير»^(٢)

ولكن الناس اصرروا عليه ان يلي الحكم، فاستجاب لهم ورجا ان يخرج بالناس من واقعهم الاجتماعي التعس الذي احلهم فيه اثنتا عشرة سنة مضت عليهم في خلافة

١. حركة التاريخ عند الامام علي (ع)/ محمد مهدي شمس الدين، ص: ١٤٣

٢. نهج البلاغة، ج ١، ص: ٢١٧، راجع للتوسع/ ثورة الحسين/ شمس الدين، ص: ٥٤

عثمان الى واقع انبل وأحفل بمعاني الاسلام.

ولقد دأب بعد ان بويغ خليفة للمسلمين على بيان الهدف ابتغى من وراء ولاية الحكم، وذلك بأن يكون في مركز يمكنه من ان يصلح شؤون الناس، وان يرفع عن المظلومين فادح مارزحوا تحته من ظلم، قائلا:

«اللهم انك تعلم انه لم يكن الذى كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد العالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك»^(١)
ولأجل هذا قبل (ع) ان يتولى الحكم.

الامام (ع) في الحكم:

تسلم الامام الحكم في مجتمع ورث الفساد، وكانت تنتظره مشاكل معقدة كثيرة على مختلف الاصعدة، فعالنهم الامام (ع) منذ اللحظة الاولى لمباشرة مسؤولية الحكم بسياسته الثورية الجديدة التي قرر ان يتبعها من اجل تحقيق الاهداف التي قبل الحكم من اجلها، وقد تناولت سياسته الثورية ثلاثة ميادين هي:

١/ الميدان الحقوقي.

٢/ الميدان المالي والاقتصادي.

٣/ الميدان الاداري والسياسي.

وقد اثيرت - مع الاسف - حول سياسة الامام (ع) واصلاحاته الكثيرة من الشكوك والاحكام المرتجلة، حتى شاعت في كتب التاريخ، واتخذها قارئوا التاريخ الاسلامي قضية مسلما بها مفروغا من بحثها والاستدلال عليها، وخصوصا سياسته الادارية التي كثرت فيها الاحكام العاطفية وراجت حولها الآراء المغلوطة... وهذا ماسوف نناقشه بالتفصيل وبأسلوب تحليلي عميق، مستعينين بما طرحه الشهيد السيد الصدر بمحاضراته التي القاها على طيبته في النجف الاشرف لنستوضح من خلالها حقيقتها، بعد ان نمر سريعا بالميدانين الحقوقي والمالي بصورة عابرة.

١/ الميدان الحقوقي: تناولت اصلاحاته في هذا المجال، الغاء مبدأ التفاضل في العطاء وعلان مبدأ المساواة الذي يساوى فيه كل المسلمين ويعتبرهم سواء في الحقوق والواجبات فجاءت مقولة الامام (ع) بهذا الصدد قوله:

«الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له والقوى عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه»^(١)

ويوصي (ع) الأشر النخعي في كتابه القيم قائلا:

«انصف الله وانصف الناس من نفسك، ومن خاصة اهلك، ومن لك فيه هوى من رعبتك فانك لا تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباد... وليكن احب الامور أوسطها في الحق واعمها في العدل»^(٢)

ويقول (ع):

«ايها الناس اعينوني على انفسكم، وأيم الله لانصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزائمه حتى اورده منهل الحق وان كان كارها»

٢/ الميدان المالي والاقتصادي: وركز (ع) من خلاله على نقطتين مهمتين:
اولاً: الثروات غير المشروعة التي تكونت ايام عثمان.
ثانياً: اسلوب توزيع العطاء التفضيلي.

ولذا فقد قام (ع) بمصادرة جميع ما أقطعه عثمان من القطائع وما وهبه من الاموال العظيمة لطبقة الارستقراطيين، وعالهم بسياسته في توزيع المال بقوله:

«ايها الناس اني رجل منكم لي مالكم وعلتي ما عليكم واني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ فيكم ما أمره، ألا وان كل قطعة أقطعهاعثمان، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فان الحق لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الاماء، وفرق في البلدان لرددته، فان في العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فاجور عليه اضيق»^(٣)

ولعل قادة الطبقة الثرية فكرت في مساومة الامام (ع) على بذل طاعتهم له على ان

١. نهج البلاغة ج ١ ص: ٢١٧

٢. ن. م/ ٤٣٨

٣. ن. م/ ١٩٤ نهج البلاغة ج ١ صفحة: ٥٩

يفضني عما سلف منهم، فأرسلوا اليه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وقال له: «يا أبا الحسن، انك قد وترتنا جميعاً، ونحن اخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف، ونحن نبايعك اليوم على ان تضع عنا ما أصبناه من المال أيام عثمان، وأن تقتل قتله وانا ان خفناك تركناك فالتحقنا بالشام»^(١)

اما رد الامام (ع) لها فجاء واضحاً ومؤكداً لعزمه في مواصلة تطبيق المنهج الذي بدأ به، فقال:

«فأما هذا الفبيء فليس لأحد فيه أثرة، وقد فرغ الله من قسمته فهو مال الله وانتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقرنا وله أسلمنا وعهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرض به فليتول كيف شاء»^(٢)

وبهذه الاجراءات الغى الامام (ع) كل اشكال التمييز في توزيع المال على الناس مؤكداً ان التقوى والسابقة في الاسلام، امور لا تمنح اصحابها امتيازات في الدنيا ومن كان له قدم في ذلك، فانه يتولى جزاءه، اما في هذه الدنيا فالناس سواسية في الواجبات والحقوق.

«وأما رجل من المهاجرين والانصار من اصحاب رسول الله (ص) يرى ان الفضل له على سواه لصحبته، فان الفضل النير غدا عند الله وثوابه وأجره على الله»^(٣)

وهكذا جسد الامام (ع) مفهوم التسوية في العطاء بين جميع الناس الذين يتمتعون بحق المواطنة الاسلامية، دون تمييز لاى سبب من الاسباب.

٣/ الميدان الادارى والسياسي:

لقد باشر الامام اصلاحاته في هذا الميدان، بتجديد مواصفات ولاية الامر، وموظفي الدولة، الذين ترشحهم موازين الاسلام، لادارة شؤون الامة الاسلامية وذلك ببيان اصداره جاء فيه:

«انه لا ينبغي ان يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين البخيل، فتكون في اموالهم نهمة (شهوته) ولا الجاهل فيضلمهم بجهله،

١. شرح نهج البلاغة ج ٧ صفحة: ٣٧ - ٣٩ - ٤٠

٢. شرح نهج البلاغة ج ٧ صفحة: ٣٧ - ٣٩ - ٤٠

٣. شرح نهج البلاغة/ محمد عبده ج ١ ص: ٢٦٩

ولا الجاني فيقطعهم بجفائه، ولا الخائف (الظالم) للدول (المال) فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع (حدود الله) ولا المعطل للستة فيهلك الامة»^(١).

ففي ضوء هذا التحديد الموضوعي لصفات ولاية الامر عند الامام (ع) الى عمليتين:
اولا: الاستغناء عن خدمات قسم الولاة الذين كانوا يتولون اقاليم الدولة الاسلامية، وعزلهم عن الامصار، مبينا اسباب عزلهم قائلا:

«ولكني آسى ان يلي امر هذه الامة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا، وعباده خولا، والصالحين حربا، والفاسقين حزبا فان منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حدا في الاسلام، وان منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الاسلام الرضائع»^(٢).

لقد سبق للخليفة عثمان، ان قرّب ممن طرد هم الرسول (ص) أو اقصاهم، لقد رد عمه الحكم بن امية الى المدينة بعد ان طرده رسول الله (ص) واصبح يسمى طريد رسول الله، وآوى عبد الله بن سعد بن ابي سرح، وكان النبي (ص) قد اهدر دمه، وولاه عثمان مصر كما ولى عبد الله بن عامر البصرة، فحدث فيها من الاحداث ماجعل المؤمنين ينقمون عليه وعلى عثمان»^(٣).

ثانيا: اسناد ولايتها الى رجال من اهل الدين والعفة والحزم، وذلك لانه (ع) وجد ان اكبر عناصر الشكوى، واهم اجزائها هو الجزء الخاص بالامراء والولاة، فبادر الامام (ع) الى تغيير التعيينات القديمة، واصدر امره بتولية عثمان بن حنيف على البصرة وسهل بن حنيف على الشام، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر، وابوموسى الاشعري على الكوفة، وهي من الامصار الكبرى آنذاك.

وقد كلمه الكثيرون، ومنهم المغيرة بن شعبه بشأن ولاية عثمان فأشار عليه بأن يبقى هؤلاء الولاة على اعمالهم، ريثا يستتب له الوضع، ولكنه ابى عليه ذلك وعزّهم، وهكذا فعل مع طلحة والزبير بشأن ولاية الكوفة والبصرة وردّهما ردا رفيقا مما حملها للضغط على

١. نهج البلاغة/صبحي الصالح رقم ١٣١ ص: ١٨٩

٢. نهج البلاغة

٣. النظم لاسلامية، نشأتها وتطورها، د. صبحي الصالح ص: ٩١

الامام (ع) والتشكيك بقيادته، ونكث بيعتهما له والمجاهرة بمطالبة بدم عثمان، متناسين انها كانا من بين المحرضين على الثورة على عثمان، بل وطالبوا الامام (ع) باعادة طرح أمر الخلافة شورى بين المسلمين وزعما انها بايعا عليا عن اكراه وان بيعتهما لهذا لا تجوز»^(١)

ورد على مزاعمهم الامام (ع) بقوله:

«فأقبلتم الی اقبال العوذ المطافيل (الانثى ذات الطفل من الانس والوحش) على اولادها، تقولون البيعة قبضت كفي فبسطتموها، ونازعتمكم یدی فجاذبتموها اللهم انها قطعاني»^(٢)

ويتضح موقف الامام (ع) من إبعاد طلحة والزبير عن ولاية البصرة والكوفة، بالرغم من الآراء التي اعتبرته عملا سياسيا يتسم بقصر النظر.

ولكن تتضح سلامة موقف الامام (ع)، عندما تعرف بأن المواقف الممكنة من طلحة والزبير لا تخرج عن اربعة مواقف، كلها اغمض عاقبة، وأقل سلامة، وأضعف ضمانا من موقفه الذي ارتضاه.^(٣)

فالموقف الاول:

أن يقوم بتوليتهما البصرة والكوفة، وقد كان عبد الله بن عباس على هذا الرأي، ولم يرتضيه الامام (ع) لأن البصرة والكوفة فيها الرجال والاموال، ومتى تملكوا رقاب الناس، يستميلان السفينة بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوى بالسلطان، ثم ينقلبان عليه اقوى مما كانا بغير ولاية.

الموقف الثاني:

أن يعمل الامام (ع) على الوقعة بينهما ليفترقا، ولا يتفقا على عمل، وهو بعمله هذا سوف يعطي احدهما ويحرم الآخر، فمن اعطاه لا يضمن انقلابه، ومن حرمه لا يأمن ان

١. الجين واليسار في الاسلام/احد عباس صالح ١١٨ — ١١٩

٢. نهج البلاغة ص/ ١٩٥

٣. دائرة المعارف الاسلامية/نقلا عن الكاتب عباس محمود العقاد ص/ ٨٤

يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره إلى الشام ليساوم معاوية أو يبق في المدينة على ضغينة مستورة. الموقف الثالث: أن يعتقلها (اعتقالاتاً سياسياً) أسيرين ولا يبيح لها الخروج من المدينة إلى مكة حين سألناه الإذن بالمسير إليها، ثم خرجا منها إلى البصرة ليشن الغارة عليه، وكان يعلم (ع) بأمرهما، حين سألناه الإذن بالسفر إلى العمرة فقال لهما: «ما العمرة تريدان، وإنما تريد أن الغدرة»

وإغلب الظن لو أن الإمام أقدم على حبسهما، لأثار عواطف الناس عليه ونقموا حبسهما قبل أن تثبت البيئة بوزرهما. بل ربما شك بعض أنصاره في سياسته تجاههما. ومن تلك الأحكام المرجحة التي اتهموا الإمام بها قولهم في سياسته الإدارية، (والتي سنأتي عليها شرحاً وتحليلاً فيما بعد) وخصوصاً عزل معاوية وإلي الشام، وقبوله التحكيم في حربه ضده — في صيفين — ومعلوم أن الإمام (ع) لم يقبل بالتحكيم إلا بعد أن أحجم جنده عن الحرب، ووقعت الخلافات في صفوفهم وأخذت تتفاقم إلى حد التهديد بالخطر والاقتتال بين الرافضين والقابليين بالتحكيم، حتى أنهم هددوا بقتل الإمام كما قتل عثمان. وأحاطوا به يلحون في استدعاء الاشترا النخعي الذي كان يلاحق أعداءه، مستأسداً في ساحة الحرب على أمل النصر القريب.

أما المؤرخون الذين صوبوا رأيهم في التحكيم وخطأوه في قبول أبي موسى الأشعري على علمه بضعفه وتردده، ينسبون أن أبا موسى الأشعري كان مفروضاً عليه، كما فرض عليه التحكيم والنتيجة واحدة متشابهة لوزاب عنه الأشعري أو ناب عنه الاشترا أو عبد الله بن عباس لأن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر علياً بالخلافة، وإن توهم بعضهم بأن الاشترا وابن عباس كانا قديراً على تحويل ابن العاص عن رأيه والجنوح به إلى ضرب علي... فليس في أيدي المؤرخين الناقدين إذن حلّ أصوب من الحل الذي أذعن له الإمام (ع) على كره منه، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو يسوى بينه وبين غيره في عقابه»^(١)

أما عزله (ع) لمعاوية، فهي القضية التي استأثرت باهتمام المؤرخين وكتاباتهم، حتى

وصل بهم القول «بأن معاوية ضرورة حتمية في التأريخ العربي، باعتباره مرحلة من مراحل بناء الدولة وتركزها، جاعلين من معاوية رجل دولة وسياسة ودهاء التزم سياسة واقعية بارعة، مقابل سياسة خيالية مفرقة بالمثل الاخلاقية التي اتبعها خصمه الامام علي(ع)»^(١)

والآن نسأل، هل كان بمستطاع الامام علي ان يقر معاوية في عمله بالشام و هل كان موقفه هذا صحيحا لو انه استطاع؟
ويجب الكاتب عباس محمود العقاد «أن ليس بإمكان الامام ان يقر معاوية في عمله لسببين:

اولا: لأنه أشار على عثمان مرارا بعزله، وكان وجود معاوية وأمثاله من الولاة المستغلين، اهم المآخذ على حكومة عثمان، فلو أمره فاذا يكون موقف اشياعه فيه، وما سيقوله الناس؟

ثانيا: اذا هو اعرض عن رأيه الاول فهل في وسعه ان يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج عن حكم عثمان الى حكم جديد؟.. وندع هذا ونزعم أن اقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع، فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى الى الوفاق؟

نقول: كلا على الأرجح، لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل وال طوال حياته ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول الى ماوراءه، لكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده، فجمع الأقطاب من حوله، واشترى الانصار بكل ثمن في يديه وأحاط نفسه بالقوة والثروة واستعد للبقاء الطويل، واغتنام الفرصة في حينها، فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره؟»^(٢)

يقول الامام علي(ع) في هذا المقام «والله ما معاوية بأدهى متي، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدره فجرة وكل فجرة

١. الدولة العربية الى نهاية الدولة الاموية، ليوليس فلهاوزن، ترجمة عبدالحادي ابويرة ص: ١٥٨

٢. دائرة المعارف الاسلامية/نقلا عن الكاتب العقاد، ص: ٨٣ - ٨٤

كفرة ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة»^(١).

وقال في موقف آخر: «ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر اهله الغدر كيسا ونسبهم اهل الجهل منه الى حسن الحيلة، ما لهم؟ قاتلهم الله، قد يرى الجوّال القلب وجه الحيلة ودونها مانع من امر الله ونهيه فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها، وينتهاز فرصتها من لاحريجة له في الدين»^(٢).

طبيعة موقف الامام (ع) ومعاوية من الصراع

من المعروف تأريخيا، أن الامويين كانوا ألد اعداء الاسلام، وانكد خصومه، منذ ان بزغ فجره، وحتى آخر مرحلة من مراحل حكمهم، ولم يدخلوا الاسلام الا بعد (ان رضخت لهم على الاسلام الرضائخ)^(٣)، واستنفذوا جميع امكاناتهم في حربه وباؤوا بالفشل، ولما دخلوا فيه مرغمين، اخذ يعملون بدأب على تهشيمه وتمزيقه، واعادة مظاهر الجاهلية بأسلوب جديد ولبوس الاسلام.

والمعروف عند المؤرخين، ان معاوية^(٤) قد نشأ في وسط اغلظ الجاهليات القبلية التي حاربت الاسلام وأعرافه حتى اخضعها الاسلام بقوة السيف، نشأ فيها حتى صلب عوده وانتقل على كبر سنه من مكة بعد فتحها الى المدينة، ومن الجاهلية الى الاسلام، ولم يمكث في المجتمع الاسلامي الناشئ الا وقتا قصيرا لا يكفي ليتطبع فيه بالطابع الاسلامي الجديد عليه ويتمرن به ليستطيع ان يؤثر على ذلك المجتمع الذي امتدت حضارته الى آماذ بعيدة في الدهر، بل هو الذي تأثر بها.

١. نهج البلاغة، رقم النص ٢٠٠

٢. نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٤١

٣. نهج البلاغة.

٤. هو ابو عبد الرحمن معاوية بن ابي سفيان القرشي الاموي، امه هند بنت عتبة، اسم بعد الفتح وولاه اخوه لما طعن في عمواش ١٨هـ؛ فأقره عمر بن الخطاب وبقي واليا على الشام حتى قتل عثمان فتمرد على الامام علي (ع) وجهاز جيشا لقتاله فتلاقيا في صيفين سنة ٣٦هـ ولما لاح النصر لجيش علي (ع) خدعهم برفع المصاحف ودعوتهم الى حكمه فقرروا التحكيم ففقد عمرو بن العاص بأبي موسى، وفي سنة ٤١هـ صالحه الامام الحسن (ع) فاصبح خليفة المسلمين وتوفي سنة ٦٠هـ.

وكان معاوية من ابرز الرموز التي اشتركت مع قريش في جميع مواقفها العدائية من الاسلام، وكان يبعد من ذلك المجتمع من كان يعترض سبيله من صحابة تطبّعوا بالطابع الاسلامي الاصيل نظراء ابي ذر وابي الدرداء وقراء اهل الكوفة^(١).

ولم يدخل معاوية ولا ابوه وامه في الاسلام، الا قبل وفاة النبي (ص) ببضع سنين وكانوا يظنون الشرك ولكن كما يحدثنا المؤرخون، بأن معاوية كان على قدر كبير من الكياسة والدهاء والمكر، ساعدته على ان يخفي اكثر ما كان يمكنه من سوء للاسلام وظهر للمسلمين بمظهر الحريص عليهم.

ونريد هنا ان نبين حقيقة موقف الامام (ع) ومعاوية من الصراع ومالابساها من ظروف ذاتية وموضوعية، والذي كان له أثر فاعل وعميق في تأريخنا الاسلامي الى يومنا هذا.

وبصدد طبيعة الصراع كان يوجد منذ البدء في طبيعة موقف الامام (ع) الذي مثل اطروحة — الدعوة الاسلامية — وطبيعة موقف معاوية الذي كان يمثل خط الانحراف (الجاهلية)، مايفرض او مايقرب النتيجة التي اليها الصراع بينهما^(٢).

وهناك عدة مؤشرات ونقاط يجب أن تكون موضع اعتبار الدارس، عندما يعرض لطبيعة الصراع المحتوم بين الامام (ع) ومعاوية:

اولا: كانت طبيعة موقف الامام من الصراع وملابسات الظروف تتمثل بالهجوم على معاوية في عقر داره في الشام، وتصفيته سياسيا فعمليته كانت على مستوى الغزو، وكانت عملية معاوية على مستوى الدفاع ورد الهجوم.

فالامام (ع) عندما تسلم مسؤولية الحكم في الدولة الاسلامية وجد نفسه مسؤولا بشكل مباشر عن تصفية «الانشقاق» ومحاولة التمرد — غير الشرعي — الذي أوجده خط بني امية بشخص معاوية «وهم ممن وقفوا من الاسلام موقف خصومة وعداء، وقد اعلنوا اسلامهم تقية ونفاقا».

١. شرح نهج البلاغة للمعتزلي/١/١٥٩

٢. اعتمدنا في تحليلنا على اراء الشهيد الصدر/في محاضراته على طلبته في النجف الاشرف

فكانت مهمة ازالة الانشقاق وتصفيتهما من جسم الامة الاسلامية هي مسؤولية وقدر الامام (ع) ومن مشاكل دولته الملحة التي يجب ان يعالجها بأسرع وقت.

فالامام (ع) حينما اختار عاصمته الكوفة، حيث مركز قاعدته الشعبية فيها، كان مطلبه السياسي الاول هو تعبئة هذه القاعدة — والتي يستند اليها في تسيرالحكم — ثم العمل من خلالها، على تصفية التجزئة غيرالمشروعة. والتي قدر ها ان تتركز في ثغر من ثغور المسلمين في الشام. واجبارهم بالقوة على الانضمام الى الخط الشرعي.

فهمة التخطيط لتصفية الانشقاق كانت تعني بالنسبة للامام (ع) ان يبدأ معاوية بالهجوم والغزو، ناقلا قاعدته الشعبية، ومكلفا اياها بأن تقوم وتتحرك وتخرج من بلادها مهاجرة في سبيل الله تاركة امنها واستقرارها ومعيشتها لكي تقضي على ازمة الانشقاق والتي تمثلت بالانفصال — غير المشروع — الذي اوجده معاوية في جسم الامة الاسلامية.

بينما لم يكن معاوية على هذا المستوى من التخطيط، ولم يكن موقفه موقف الغازی او المهاجم بل كان هم الاوحد أن يمسك بالشام ويكرس انفصالها عن باقي اجزاء الوطن الاسلامي وازاء هذه الحقيقة، لابد من ان ندرك فارقا كبيرا يميز طبيعة كلا الموقفين وأثرها على طبيعة الصراع... فالفرق كبير جدا بين قائد يأمر جيشه بأن يتحرك من بلاده مهاجرا ليخوض معركة — هجومية — لايوجد اى اعتبار او دافع لخوضها، سوى احياء الرسالة الاسلامية واطروحها للحياة، ولم تكن هناك اية دوافع خاصة وراء هذه المعركة حيث ان العراقيين لم تتعطل مصالحهم المادية، بسبب انفصال ولاية الشام عن جسم الوطن الاسلامي ولم يتلقوا معهم بعداوة سابقة، وانما كانت اعتبارات الرسالة ودوافعها الانسانية هي الاعتبار الوحيد، والدافع الذى يستصرخهم ويناديهم الى خوض معركة تصفية الانشقاق، والقضاء على التجزئة التي منيت بها الامة على يد اعدائها القدامى، ولابد من اعادة ارض الشام للدولة والمجتمع الاسلامي.

فهم اذن وعلى ضوء هذه الحقيقة، يجب ان يكونوا مدفوعين للمعركة بدافع رسالي كبير او ان يكونوا بمستوى عظيم من فهم القضية وادراك لأبعادها وتبين لمضمونها، حتى يكونوا بمستوى العطاء لها، سواء بنفوسهم او ارواحهم واموالهم فكان موقف الامام علي (ع) يتطلب ويفترض وي طرح قضية الهجوم على اناس لايملكون في غالبيتهم الوعي لخطورة وضعهم

المانع في مواجهة الانحراف، انطلاقاً من عدم استيعابهم لابعاده.

بينما هذا المستوى من العطاء والجهد لم يكن هو اطروحة معاوية لجيشه، فهو لم يطالب جيشه بغزو العراق ولا باحتلال باقي اجزاء العالم الاسلامي، بل كان يمنيهم بسيادة واستقلال وفي النهاية وعلى الخط الطويل يحقق حلمه في زعامة العالم الاسلامي بعد ان يخلو له الجو، وتتهيأ له الفرص والمناسبات والظروف الموضوعية لكي يتامر على الزعامة المطلقة في كل ارجاء العالم الاسلامي.

اما الاشخاص والقواعد الشعبية التي كانت تدور في فلك الامام (ع) والتي استجابت لنداء الحرب والقتال معه (ع) فقد كان منهم العدد الكبير من الواعين وانصاف الواعين والمتعاطفين لسبب وآخر هؤلاء هم الذين استجابوا لمطالب الرسالة منذ اللحظة الاولى وشعروا بأن واجبه الاسلامي يفرض عليهم تصفية التجزئة ووضع حد لها، فأعطوا من التضحيات ما أعطوا، وخاضوا عدة معارك باسلة، وقدموا للقضية الاسلامية التي طرحها الامام عطاء لا يستهان به.. ولكن كان لابد لهذا العطاء من ان يتناقص تدريجياً، وذلك وفقاً لمستوى وعيمهم للقضية «وخصوصاً رؤساء القبائل الذين دخلوا المعركة، وهم تحت سيطرة الدولة برئاسة الامام علي من ناحية وتشيعاً لأهل العراق ضد أهل الشام من ناحية أخرى، وطمعاً في السيادة والغلب اذا كتب النصر لعلهم وهناك القوى المؤيدة لسياسته من الناحية الاجتماعية سواء عن الوعي او بحكم وضعها الطبقي»^(١)

ولهذا السبب لم تكن الاطروحتان متكافئتين، من حيث درجة الجهة ومن حيث درجة الطرح ومن حيث درجة الدفع والتحريك.

فهناك اطروحة تريد من الجيش ان يخرج من بيته مهاجراً يغزو في سبيل الله، وأطروحة أخرى تريد من الجيش أن يبقى في بيته وأن يحافظ على استقلال وطنه في ارضه. هذا الفرق الكبير بين الاطروحتين، ودرجة الجهد التي تتطلبها كل منهما، كان له دور كبير في طبيعة موقفهما.

ثانياً: كان الامام علي (ع) يواجه انحرافاً من داخل المجتمع الاسلامي الذي يحكمه

نتيجة للظروف والملابسات السياسية والتأريخية التي سبقت حكمه الى مسؤوليته (ع) في مواجهة تصفية التجزئة السياسية (في الشام) والتي كانت لها الأولوية في سلم مهامه الاصلاحية.

وكان لابد للإمام (ع) أن يبادر لخوض معركة ضد الانحراف الداخلي الذي كان يعيشه المسلمون في العراق والحجاز والعالم الاسلامي بشكل عام.

فالامام (ع) كان بين معركتين، معركة ضد (التجزئة السياسية) ومعركة (ضد الانحراف الداخلي) في المجتمع الاسلامي، والذي تمثل في سياسة سابقة، من التحيز للاسلامي^(١)، حتى شاهدنا جليا كيف ان التجربة الاسلامية أخذت تتهار تحت وقع الضربات التي وجهها (المنافقون)، مستغلين قياداتها، ومن ثم صادروا تلك القيادات بكل وقاحة وعنف، حتى تحولت الخلافة الى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويقتل الأبرياء ويبعث الاموال ويعطل الحدود ويحصد الاحكام^(٢).

ومن هناك قدر الامام (ع) في ان يصفي هذه الاوضاع المنحرفة ويقلم اظافرها وان يسترجع الاموال من الخائنين والبدء بحرب دون هوادة على كل الافكار والمفاهيم غير المنسجمة مع خط الاسلام.

وقد شملت اجراءات الامام (ع) بعض الزعماء المتنفيين كطلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام، وقد انكرا على الامام (ع) سياسته واعتبراها مخالفة للنهج الذي الفه الناس.

ورد عليها الامام (ع): ما الذي كرهتما من امرى حتى رأيتما خلافي؟

قالا: انك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما افاء الله علينا بأسياقنا ورماحنا وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا، واخذناه قسرا قهرا ممن لا يرى الاسلام الا كرها^(٣).

وقد دفعت هذه الاجراءات بها ان دبرا حركة تمرد في البصرة استهدفت اسقاط حكم الامام (ع) وذلك تحت ستار الثأر لعثمان.

١. راجع ما كتبه في موضوع الميدان الاداري والسياسي / ص : ٩٢

٢. راجع للاستفادة بحث حول النوايا / السيد التهيد الصادر

٣. علي بن ابي طالب — نظرة عصرية جديدة / د. محمد احمد خنف الله / ص : ٣٢

وعلى ضوء حقائق مجتمع الامام (ع) وظروفه المعقدة، كانت تنتظره معركة كبيرة ومضنية في الداخل، حيث كان من المفروض لهؤلاء ان يكونوا عوناً بجانبه في معركته الخارجية في تصفية الانشقاق.

وعلى العكس بالنسبة الى معاوية، فانه لم يكن يعيش معركة تغيير وتصحيح داخل مجتمعه، بل انه كان يعتمد الى «شراء الضمائر بالمال، ويفضل طائفة بجرمان أخرى ولا يهتم أن ينزل بدافعي الضرائب من الزرع والتجار أفدح الظلم في سبيل الحصول على الاموال الكافية لتغذية اطماع حفنة من رؤساء القبائل لتكون على استعداد تام في قمع ولجم اى حركة تحريرية تقوم بها جماعة من الناس»^(١)

ومن الجدير بالاشارة — وكما تجمع عليه كل المصادر التاريخية — أن الشام دخلت الدولة الاسلامية بالفتح العسكرى، ولم يدخلها الاسلام دخولا كبيرا، بل دخلها بالاسم والشعارات فقط ولم يدخل بمضمونه الحقيقي الواعي الى قلوب اهل الشام، فهم ما يزالون يعيشون راسيا جاهليا متأثرين بالأفكار التي آمنوا بها قبل الاسلام، حتى ان اوضاعهم الفكرية والاجتماعية والسياسية لا تختلف بدرجة كبيرة عما كانوا عليه قبل الاسلام. ولم يكن يرى معاوية اى تناقض بين اهدافه وأطروحاته، وبين المجتمع الشامي، الذى كان بوضعه الفكرى والاجتماعى والسياسي مؤهلا تماما لتقبل اطروحة معاوية.

وكانت اهدافه تتلخص بزعامة ملكية قيصرية وهرقلية، لا تؤمن بالارتباط الحقيقي بالله تعالى، مستهدفة تحويل الاسلام الى مؤسسة تخدم مصالح طبقة المستغلين على حساب مصالح الامة، بينما اطروحة الامام علي (ع) كانت تواجه انحرافا مزمنًا منذ وفاة النبي (ص)، وكان (ع) مسؤولا عن تصفيتها وازالتها دون رجعة.

وقد واجه (ع) الاطماع والاحزاب السياسية، التي تكونت في عهد عمر بن الخطاب حيث تفاقمت مشاكلها وتناقضاتها بعد عمر نتيجة للشورى، مما دعت هذه الزعامات والاحزاب ان تفكر في امر مستقبلها السياسي، وتخطط في كيفية الاستفادة بأكبر قدر ممكن من الفائدة في خضم هذا التناقض.

أما معاوية فلم يمين بصحابة (اجلاء) يعاصرونه، ويقولون له نحن صحابة كما أنت صحابي، بل إن أهل الشام مسلمون لأسلامه واسلام أخيه يزيد من قبل، ولم ير أحد من الشاميين رسول الله (ص) ولم يسمعوا القرآن إلا عن طريق معاوية. ولهذا كنا نرى حالة الاستسلام والطاعة التامة في المجتمع الشامي بالنسبة لمعاوية، ولا يوجد ما يناظرها بالنسبة إلى الإمام (ع) في مجتمع المدينة والعراق. فمعركة الإمام (ع) الداخلية التي كان يواجهها، لم يكن معاوية يواجه نظيرها لها في مجتمعه الشامي.

ثالثاً: إن مركز الإمام (ع) قبل الخلافة، وقبل خوض المعركة كان يختلف اختلافاً كبيراً عن مركز معاوية قبل خوض المعركة مع الإمام (ع). فالإمام (ع) كان قد تكون له في نظر المسلمين — المفهوم الرسمي للخلافة — (الأمر الواقع) قبل تسلمه لمسؤوليات الخلافة وهو أن الإمام علي، ليس الأصحاب جليلاً، له خدمات جليلة أثناء حياة الرسول (ص)، فحالته كحال غيره من الصحابة الأجلاء من ذوي الخدمات الكبيرة في زمن النبي (ص).

هذا الاتجاه الذي أدانته الإمام (ع) منذ اللحظة الأولى واستنكر ما اتجهت إليه مقررات السقيفة من تجميد لأطروحة في الزعامة الفكرية والسياسية، وإسناد السلطة إلى غيره، وامتنع (ع) من تقديم البيعة لسته أشهر كاملة^(١)، حتى إن المسلمين وبالتدريج — وخضوعاً للأمر الواقع — وبحكم السياسة الحاكمة على يد الخلفاء الثلاثة — بدأوا يعاملون علياً على هذا الأساس (باعتباره الصحابي الجليل لا أكثر) ..

وبحكم هذا التقويم، كان يوجد كثير من الصحابة، ممن كانوا يرون أنهم لا يقلون عن الإمام (ع)، وإن قلوا فإنهم يقلون عنه بدرجات، والفرق بينهم وبينه فارق تافه ..

فهم صحابة رسول الله (ص) وهو كذلك، هم أخذوا العلم من الرسول وهو أخذ العلم منه (ص) .. فهم كانوا يعترفون للإمام (ع) بأنه الأفضل والأروع، والأكثر اجتهاداً منهم (على أفضل تقدير) ولكنهم كانوا يرون الفارق بينهم وبينه فارق درجة ليس إلا.^(١)

١. الاحتجاج / الطبرسي، راجع بحث حول الولاية / السيد الشهيد الصدر

هذا الوضع الذي تحدثنا عنه، لم يتواجد نظير له في المجتمع الشامي، فعاوية كان يعيش في بند لم يكن قد نشأت فيه زعامات سياسية طامحة إلى الحكم ولم يكن فيه أناس ذوي سابقة في الإسلام ممن يرى لنفسه الحق بالمساهمة في التخطيط ومن تقدير الأمور. هذا المجتمع الذي لم يكن يعرف غير معاوية وأخيه يزيد، لأن الشاميين — تأريخياً — دخلوا الإسلام على يد أخ معاوية وهو يزيد بن أبي سفيان وإلى بعثة أبي بكر إلى الشام، ولمامات يزيد بن أبي سفيان وإلى ابوبكر بعده أخاه معاوية بن أبي سفيان،^(١) «ولم يك قدمني بتناقضات من هذا القبيل.

وأهل الشام كانوا كفاراً ودخلوا الإسلام على يد معاوية وأخيه يزيد من قبل، فنظرتهم إلى معاوية نظرة احترام وتقدير باعتباره همزة الوصل بينهم وبين الإسلام. هذه الحقيقة، استفاد منها الأمويون، عندما حاربوا الحسين (ع) فيما بعد حاربوه باعتباره شخصاً مارقاً من الدين ومخالفاً للإمام الشرعي، وانطلقوا في محاربتهم إلى ما عهدوه من السند الديني للأمويين في نفوس الشاميين.»^(٢)

فنظرة أهل الشام ورجالهم إلى معاوية — على ضوء الحقيقة التاريخية — تختلف عن نظرة أهل المدينة والعراق إلى الإمام (ع) وهذه النظرة المختلفة بالذات هي التي أوجدت باستمرار في حياة الإمام (ع) تناقضاً وكثيراً من الآراء والاجتهادات المتضاربة وامتناعاً في كثير من الأحيان عن قبول رأي الإمام (ع) بينما كان أهل الشام يتلقون أوامر معاوية بالتسليم والطاعة التامة.

أما الإمام علي (ع) فقد عاش في مدينة الرسول (ص)، حيث حاضرة الإسلام الأولى، التي عاش فيها الرسول (ص) وعاش بعد ذلك ابوبكر وعمر وعثمان، وقد واجه الإمام علي (ع) كثيراً ممن كانوا يرون أن من حقهم المساهمة في التخطيط والمشاركة في رسم الخط وواجه أشخاصاً كانوا يرون أنفسهم نداً للإمام، وغاية الأمر أن الإمام (ع) نذ أفضل ومقدم — ولكنهم بالتالي صحابة رسول الله والإمام صحابي عاشوا جميعاً مع رسول الله (ص). ومن المعلوم بأن خلافة الإمام (ع) جاءت بعد وفاة النبي (ص) بعشرين سنة، ويعني

١. صانعو التاريخ العربي/د. فليبي حتي

٢. الدولة العربية سقوطها وهاوزن/ولصبري ج ٤ ص ٣٣١

هذا أن الامتياز الخاص الذي تمتع به الامام (ع) في عهد النبي (ص) كان قد انتهى مفهومه وتضاءل أثره في نفوس المسلمين، بعد ان عاشوا عشرين سنة وكانوا يرونه مأموماً ومنقاداً وجندياً بين يدي الخنفاء الذين سبقوه في الحكم.

هذا الوضع ولد احساساً نفسياً لدى المسلمين اتجاه الامام (ع) ظهر اثره في مصادرة تلك الآثار التي خلقها عهد النبوة.

فالصحابة الذين ساهموا في حل الامور وعقدوها وساهموا في تثبيت خط السقيفة وقدر لهم ان يمشوا في خط الانحراف والذين قدموا للإسلام في صدر حياتهم، هؤلاء الصحابة كانوا ينظرون للإمام علي (ع) باعتباره الأخ الأكبر دون ان يروا ان اسلامهم مستمد من خطه، هذه الحقيقة التي كانت واضحة في عهد النبوة حرفت من خلال عهد الخلفاء ابني بكر وعمر وعثمان، ولهذا كان الصحابة يعترفون بأن علياً هو الأفضل دون ان يروا انفسهم مجرد تابع يؤمر فيطيع.

فكان هناك صحابة من هذا القبيل، يريدون ان يساهموا في التخطيط ويشاركوا في رسم الخط، في ظرف دقيق وحساس. لا تتحملهم عقولهم القاصرة.

يقول طه حسين «وكان بينه (ع) وبين معاوية اختلاف آخر يغري الناس به ويجمعهم، كان (ع) يدبر امور اصحابه على ملأ منهم، لا يستبد من دونهم بشيء، وانما يستشيرهم في الجليل والخطير من امره، وكان يرى الرأي فيأبونه ويمتنعون عليه، ويضطرونه الى ان ينفذ رأيهم هم، ويحتفظ برأيه لنفسه وكان ذلك يغريهم به ويطمعهم فيه.

ولم يكن معاوية يعطي اصحابه بعض هذا الذي كان يعطيهم (ع) لم يكن يستشيرهم وانما كان المشيرون من خاصته، فكان اذا أمر اطاعه اهل الشام دون ان يجمعوا فضلاً عن ان يجادلوا، ثم كان معاوية يحتفظ بسرّه كله لا يظهر عليه الا ان اراد أن يظهره عليه خاصته، وكانت امور علي (ع) كلها تدبر على ملأ من الناس لا تحق على اصحابه من امره خافية مهما يكن خطرها.

كان علي (ع) يدبر خلافة، وكان معاوية يدبر ملكاً، كان عصر الخلافة انقضى وكان عصر الملك قد اطل»^(١)

رابعاً: استقلال معاوية بإقليم من اقاليم الدولة الاسلامية — الشام — وهذا الاقليم لم يكن فيه للإمام علي(ع) اى رصيد او قاعدة شعبية تسانده او تواليه.

ومن المعلوم تاريخياً أن اقليم الشام دخل الاسلام بعد وفاة رسول الله(ص) والإمام بعيد عن الحياة السياسية، منعزل عن خط العمل الاجتماعي الفاعل، وقد دخل اقليم الشام ودشن حياته الاسلامية بولاية يزيد بن ابي سفيان أخي معاوية الذى تولى قيادة الشام بعد اخيه يزيد.

وتعني هذه الحقيقة — التاريخية — ان الشاميين عاشوا الاسلام بمنظار — آل أبي سفيان — اما علي(ع) فلم يسمع له ذكر عندهم، ولم يتفاعل مع وجودهم الاسلامي والعقائدى وهو بالتالي لا يملك شعاراً له رصيد او قاعدة شعبية تواليه في المجتمع الذى يترعمه معاوية ويحمل فيه لواء الانشقاق على الدولة الاسلامية.

وفي الجانب الآخر نرى العكس، فإن معاوية كان يملك شعاراً له رصيد، وقاعدة شعبية قوية في نفس المجتمع الذى ترعمه الامام علي(ع).

فمعاوية كان يحمل شعار — الخليفة المقتول — والمطالبة بدمه، وكان عثمان الخليفة القاتل زعيم المجتمع الذى تولاه بعده الامام علي(ع). وكان لعثمان قواعد او وجود كبير في هذا المجتمع، ولهذا جاء شعار معاوية متجاوباً ومتلاقياً مع قاعدة ورصيد شعبي داخل مجتمع الامام(ع)، بينما لم يكن شعار الامام علي(ع) يلتقي مع قاعدة ورصيد داخل مجتمع معاوية في الشام.

خامساً: كان هناك فرق آخر بين الامام(ع) ومعاوية، وهو ان الامام(ع) كان يتبنى قضية هي في صالح الأضعف من افراد المجتمع، وكان في حكمه ينهج نهج الاسلام الذى يستجيب لحاجات عامة الناس.

اما معاوية فقد تبنى قضية هي في صالح الاقوى من افراد المجتمع. الامام(ع) كان يتبنى الاسلام بما فيه من قضايا العدالة الاجتماعية التي يمثلها النظام الاقتصادي للإسلام وهذه القضايا لم تكن في صالح الاقوى بل كانت في صالح الأضعف.. ومعاوية كان يمثل الجاهلية بفوارقها وعنفوانها وطبقاتها، وهذا لم يكن في صالح الأضعف، بل كان في صالح الاقوى.

ومن المعلوم تاريخياً انه بعد وفاة رسول الله (ص)، حينما دخل العراق والشام، وبقيّة البلاد ضمن اطار المجتمع الاسلامي، لم يتمكن الخلفاء الذين تزعموا قيادة المسلمين، من تذويب النظام القبائلي الذي كان موجوداً في هذه الاقاليم، بل بقى التنظيم القبائلي سائداً، وبقي زعيم كل قبيلة هو الرابط بين قبيلته وبين السلطان.

وهذا التنظيم القبائلي بطبيعة تكوينه، يخلق جماعة من الزعماء المتنفذين، ومن شيوخ هذه القبائل، الذين لم يربّهم الاسلام، لأنهم لم تتح لهم فرصة معايشة ايام النبوة عيشاً صحيحاً، مما جعل من هؤلاء، طبقة معينة ذات مصالح وذات اهواء ومشاعر في قواعدها الشعبية، مما يوفر لهم اسباب النفوذ والاعتیاد عليهم.

فالمجتمع الاسلامي الذي تركه الخلفاء وورثه الامام (ع) كان يعج بالتقسيمات القبلية بحيث ان كل قبيلة كانت تخضع ادارياً وسياسياً لزعماء واحد من اولئك الشيوخ الذي كان بمثابة همزة وصل بين قبيلته والحاكم، وهذه الحالة تسهل مهمة الحكام المنحرفين في ان يرشوا رؤساء هذه القبائل بقدر الامكان، وهذا ما كان يفعله المنحرفون من الحكام، وكان عاملاً من عوامل القوة بالنسبة الى معاوية.

«وبينما كانت حكومة الامام علي (ع) تسير على نهج اسلامي خالص كانت حكومة معاوية في الشام تسير على نهج آخر في الحكم يقوم على شراء الضمائر بالمال، يغذى به أطماع حفنة من رؤساء القبائل العربية يؤلفون جهازه العسكري المتأهب دائماً لقمع اى حركة تحريرية تقوم بها جماعة من الناس.

فقد كان رؤساء القبائل في العراق يرون سياسة معاوية فيعجبون بها، فهي تلي ما يطمحون اليه من غنى ووجاهة وارتفاع قدر، بينما هم لا يجدون شيئاً من هذا في حكومة الامام.

فكان المجتمع مجتمع قبلي يدين لرؤسائه بالطاعة المطلقة.

وهؤلاء الرؤساء يطمحون الى المزيد من القوة والسطان والغنى والمنزلة الاجتماعية، ولا يجدون شيئاً منها عند الامام (ع) بينما يجدونها عند معاوية كما يشتهون.

ويقول هؤلاء الرؤساء ان حكومة معاوية خير من حكومة علي وهي خير لهم بلاشكال، وتسمع القبيلة مقالة زعيمها فتدين بها.

على هذا النحو كانت سياسية معاوية تؤثر في العراق، وقد وعى ذلك جماعة من المخلصين للامام فقالوا له:

«يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستعمل من تخاف خلافه من الناس»^(١)
ولكن الامام (ع) أجابهم قائلا:

«أنا مروني أن اطلب النصر بالجور. لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وانما المال مال الله؟ ألا وان اعطاء المال في غير حقه تبذير واسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس ويهينه عند الله»^(٢)

وقد صارت الشام ملاذا لمن يغضب عليه الامام لخيانة خانها في عمله او جريرة جرها على نفسه ومطمحا لمن يريد الغنى والمنزلة، فيجد عند معاوية الاكرام والرفعة، والعطاء والمنزلة الاجتماعية.

وقد كتب الامام (ع) الى عامله سهل بن حنيف في شأن قوم من اهلها لحقوا بمعاوية:

«وانما هم اهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون اليها، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه، وعلموا ان الناس عندنا أسوء، فهربوا الى الأثرة، فبعدا هم وسحقا»^(٣)

وقد كان الامام (ع) يعرف كيف يجعلهم الى صفه لو أراد، فيفضلهم، ويعطيهم الاموال ويجعلهم على رقاب الناس، ويرضي غرورهم القبلي، ولكن ذلك كان ينقلب به الى جبار يذعم منكه بالسيف، بدل ان يكون أبا للرعية قد عم سلطانه القلوب، لقد قال لهم مرة:

«واني لعارف بما يصلحكم ويقيم اودكم، ولكني لا أرى اصلاحكم بافساد نفسي»^(٤)

١. شرح نهج البلاغة ١ - ١٨٢

٢. شرح نهج البلاغة ١ - ١٨٢

٣. نهج البلاغة رقم النص ٧٠

٤. نهج البلاغة رقم النص ٦٧

هذه الظروف الموضوعية التي مر ذكرها انفاً، لم يصنعها الامام (ع) وانما صنعت من خلال تأريخ طويل، وهي التي اوجدت معاوية مركزاً قوياً مقابل مركز ضعيف للامام (ع)، ونولا براعة الامام وتضحيته، وكفاءته ورصيده الروحي في قطاعات شعبية واسعة، لما استطاع (ع) ان ي جيش الجيوش لحروب داخلية دامت قرابة اربع سنوات.

سادساً: ان دعوى الامام علي (ع) في معاوية لم تكن على مستوى (الحس) انما كانت على مستوى (الوعي)، والواعون لم يكونوا كل المسلمين «بل اغلب الناس عادة يخضعون في فهمهم للواقع لتفسيرات سطحية، اقرب ماتكون الى الحس، والتي تستسلم للأسباب القريبة الجاهزة التي تبدو للعين من اول نظرة، دون ان يكلفوا انفسهم عناء البحث عما وراء الواقع الحسي، او يحاولوا التعرف على الرسالة البعيدة التي ساهمت في نشوء هذا الواقع او ذاك»^(١)

اما دعوى معاوية في علي (ع) فقد صورها واخرجها وكأنها على مستوى (الحس) والناس كلهم يعيشون «الحس» وقلة منهم يعيشون حالة الوعي الرسالي.

الامام علي (ع) كان يقول في معرض اشارته الى معاوية، بأنه لا يمثل خطأ من خطوط الاسلام ورسالته العظيمة، وانما يمثل جاهلية ابيه (ابوسفیان) وانه يريد ان يقضي على الكيان الاسلامي وتحويل المجتمع الاسلامي الى مجتمع آخر، لا يؤمن بالاسلام وبالقرآن ويريد للخلافة ان تتأطر باطارات قصيرة وكسروية.

كان هذا هو ادعاء الامام (ع) في معاوية.

أما ادعاء معاوية في الامام (ع). فكان يقول: بأن الامام (ع) أثار الناس وهيجهم للثورة على عثمان بن عفان، الخليفة الشرعي وقتئذ، وان اصحابه واهله، كانوا في طليعة الثوار على عثمان، وان علياً (ع) قد خطط عن طريق هؤلاء الاصحاح لقتل عثمان ومن ثم ترعج على كرسي الحكم بعده «ومضى يتجادل على اساس هذه الدعوى الحسية بينا اخفي هدفه الاصيل طي الكتمان، ولم تلبث المجادلات حول الحجة تراكم حتى تغطي فعلا على الحقيقة»^(٢)

١. مفاهيم اسلامية عامة/ الحلقة الخامسة/ السيد محمد حسين فضل الله/ ص: ٤٣

٢. المين واليسار في الاسلام/ ص: ١١٨

ما أقرب دعوى معاوية للتصديق على مستوى (الحس)، وهل هناك شخص يعيش الأرقام التي كان يقدمها معاوية عن هؤلاء الأصحاب والتي باشرت بنفسها قتل عثمان، أو التي ساعدت وحرضت على ذلك أمثال: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر، ومالك الأشتر، وعبيد الله بن مسعود وغيرهم من المسلمين الذين كانوا الدعامة الشعبية لحكم الإمام (ع) «وقد جاهر عمار بالهجوم على الخليفة، كما جاهر أبوذر باتهام الخليفة وعماله بالخروج على الشريعة الإسلامية وراح يحض الاغنياء على ان يطرحوا كنز المال حتى نفاه عثمان الى الشام ليكون تحت رقابة معاوية، وكان يحرص الفقراء، ليقوموا بالثورة وكان محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر في مصر يدعون الى مثل ما دعا به أبوذر وفي الكوفة هاجم الاشتر حكم عثمان بخطاب نارى يتهمه بالجور والظلم»^(٢)

فهل هناك تفسير أقرب الى الحس، من ان يكون الإمام علي (ع) قد قتل الخليفة عثمان بيد، واستلم الحكم ليتربع عليه باليد الأخرى؟..

نقول — على ضوء هذه الحقائق — أن تفسير معاوية كان مقبولا الى حد ما لأنه كان قريبا من (الحس).

اما تفسير موقف الإمام (ع) من معاوية، فقد كان يحتاج الى قدر كبير من الوعي والتفهم.

ولا ننسى باننا اليوم، ننظر الى معاوية، بعد ان انتهى وانكشف لنا امره، وافتضحت نواياه للجميع، عندما صعد المنبر عام الجماعة، معلقا بكل صراحة ووقاحة عن هدفه ونواياه قائلا: «ما حاربكم لتصلوا وتصوموا ولتتجوا ولا تركوا ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد اعطاني الله ذلك وانتم كارهون»^(٣) ونحن ننظر الى معاوية بعد أن ارتكب الفظائع وغير احكام الشريعة وابدع في السنة وقتل اثبات من الابرياء والاخييار كحجر بن عدي والابطال الابرار من اخوان حجر، وبعد ان سم الإمام الحسن بن علي (ع)، وبعد ان

١. دائرة المعارف الإسلامية/ص: ٩٧

٢. اعيان الشيعة ج ٤ ص: ٢٦، وابن أبي الحديد في شرح النج

سقطى ولاية العهد الى ابنه الفاسق الفاجر — يزيد — متحديا معاهدة الصلح التي أبرمها مع الحسن (ع) ضاربا بها عرض الحائط، والذي قال فيها:

«كنت قد متيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي لأفي بشيء منها.. وأن كل مان اودم أصيب في هذه الفتنة لمطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين»^(١)

وكذلك بعد ان امر بست علي (ع) على منابر المسلمين الى ان يشب على ذلك الصغير ويهرم عليه الكبير، والحاقه زيادا بأبيه، مخالفا بذلك حكم القرآن وسنة الرسول (ص)، واجماع الامة، وبدد اموال المسلمين ووزعها على انصاره واتباعه، ولم يخرج من الدنيا الا بعد ان سلط ولده على رقاب المسلمين وهم نه كارهون»^(٢).

نحن الآن عندما نكتب في تأريخ معاوية بن ابي سفيان ننظر اليه من خلال هذه المقاييس والاعتبارات، بعد ان انتهى واصبح في ذمة التأريخ، اما اولئك الجماهير الكبيرة من المسلمين فلم يكونوا ينظرون لمعاوية بهذا الاعتبار وانظاراً لأنهم لم يعيشوا هذه الاحداث بهذا التوضيح الذي ننظر اليه الآن.

فلو اسقطنا النظر عن تأريخ معاوية فيما بعد ولا حظنا معاوية فيما قبل^(٣)، ولا حظناه بنظر وذهنية اولئك الجماهير — غير الواعية، التي عاشت مع ابي بكر وعمر وعثمان، وفضلتهم على الامام علي (ع)، وتأملنا تلك الجماهير — غير الواعية — وهي تطرح السؤال التالي:

من هو معاوية؟ فتكون الاجابة: بأنه احد صحابة رسول الله (ص) وقد تسلم عمله كوالي للشام، بعد وفاة الرسول (ص)، وهو احد معتمدى الخليفة ابي بكر الصديق وقد ارسله الاخير قائدا لجيشه في سوريا، ومن ثم ولاه عمر بن الخطاب عليها، وكان عمر يوليه درجة كبيرة من ثقته، وخصوصا ان الخليفة عمر، هو ذلك الشخص الذي تقدسه الجماهير وحتى ان عمر عندما اراد ان يؤدب ولاته استثنى معاوية من اجراء التأديب، وحينما اراد ان يقاسم

١. ن. م، وسيرة الائمة الاثنى عشر/ الحسن ج ٢ ص: ٩٢

٢. سيرة الائمة/ الحسن ج ٢ ص: ٩٣

٣. صانعو التأريخ لعربي/ حني ص: ٦٥

أموال ولايته، استثنى معاوية من ذلك، فمعاوية كان في نظر الخليفة عمر بن الخطاب واليا موثوقا به، محترما ومعززا من الناحية الاسلامية، وبعد عمر جاء عثمان، ليوسع من نطاق ولاية معاوية بإضافة بلاد أخرى الى ولايته في الشام.

ومن هنا ندرك بأن معاوية بذلك المتظار ليس هو معاوية الذي ننظر اليه هذا اليوم بل كان شخصا عنوانه الاجتماعي انه حريص على كرامة الاسلام، فمعاوية (قبل) كان يطالب عليا بقتلة عثمان، وكان يتهمه بالتحريض على قتل خليفة المسلمين الشرعي (عثمان) ويقول في الامام (ع) بأنه قادر على اقامة الحد والقصاص على قتلة عثمان، وكان يعقب على تساؤه هذا بأن عليا يحاول التخلص من هذه المسؤولية، فإذا لم اذنا لا يسلم قاتل عثمان؟. وان لم يكن يقدر على ذلك، فهو اذن عاجز عن تطبيق الشرع، فليعتذر اذن عن مسؤولية الخلافة وليأت شخص آخر أجدر منه لخلافة المسلمين^(٢) لأن الخليفة الحق يشترط فيه القدرة على تطبيق احكامه فقد كتب للامام يقول له: وقد بلغني انك تتصل من دم عثمان وتبترأ منه، فإن كنت صادقا فادفع الينا قتله كي نقتلهم به، ثم نحن اسرع الناس اليك والا فليس بيننا وبينك الا السيف، والذي لا اله غيره لنطلب قتلة عثمان في الجبال والرمال.^(٣)

بهذه الادعاءات والشعارات المضللة، واجه معاوية الناس ليحرج الامام (ع) امام جاهير — غير الواعية — والامام (ع) في مواجهته لهذه الادعاءات المضللة والمخادعة لم يكن يريد ان يصرح بأن عثمان كان السبب الرئيسي في مقتله، وكان جديرا بأن يقتل لانحرافه لانه لو صرح بهذا لاكد اتهام معاوية ضده امام جاهيره — غير الواعية — وليس هناك من يعرف بأن عثمان يستحق القتل، فكثير من الناس البسطاء يقولون: عثمان قتل مظلوما، فلا بد من القصاص.

هذه هي دعوى معاوية في الامام علي (ع). ومن مجموع هذه الظروف والملاسات المعقدة، تواجدت بالتدريج بذرة (الشك) في مجتمع الامام علي (ع) هذا الامام العظيم الذي خاض المعركة على رأس هذا المجتمع لتصفية الانحراف من الداخل والانحراف من الخارج

والذي كان يريد أن يوعي جماهيره (الشاكاة) بأن المعركة ليست معركة زعامة شخصية أو وجوده الخاص ولا معركة قبيلته أو عشيرته وأمجاده التاريخية، وإنما هي معركة الاسلام مع جاهلية الارض، بل هي معركة الحفاظ على امانة الله التي جاهد من اجلها عشرات الآلاف من الانبياء والمصلحين. وكان يخضب جماهيره موعيا اياهم بقوله «اللهم انك تعلم أنه لم يكن انذى كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الخطام، ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الاصلاح في بلادك وتقام المعطنة من حدودك، اللهم اني اول من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني الا رسول الله (ص) بالصلاة، قد علمتم انه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين، البخل فتكون في اموالهم نهمة ولا جاهل يفضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الخائف للدول فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بهادون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الامة»^(١)

لقد كان الامام (ع) يسعى دائما الى توعية جماهيره على واقع المعركة وطبيعتها المقدسة، ولكن الجماهير بدأت تشك في واقع المعركة وطبيعتها — بفضل الظروف والملايسات المعقدة — واخذوا يزدادون عنادا وتصلبا في موقفهم كلما دعاهم الامام (ع) الى الدخول في طاعته والسير الى قتال معاوية، وكان يقول لهم:

«احمد الله على ما قضى من أمر وقدر من فعل وعلى ابتلائي بكم، ابتها الفرقة التي اذا امرت لم تطع، واذا دعوت لم تجب ان اهملتم خضتم، وان حوربتم خرتم، وان اجتمع الناس على امام طعنتم، وان اجئتم الى مشاققة نكصتم»^(٢)

هذه الجماهير يبدو انها اصابها التعب وأرهقها تكليف الجهاد، بعد ان قدمت للاسلام كثيراً من التضحيات التي لا يمكن أن يؤديها كثير من المجتمعات، الا أن نفسها في مواصلة خط الجهاد لم يكن طويلا ومتوصلا، فقد كان الانحراف ذا نفس أطول.

ان جماهير الامام علي (ع) التي ارهقها تكليف الجهاد الطويل، والقتال من حرب الى حرب، حيث قدموا من التضحيات الشيء الكثير، لقد بذلوا اموالهم وانفسهم في حروب

١. نهج البلاغة ص: ١٨٩

٢. شرح النهج/ ابن ابي الحديد ج ١٠ ص: ٦٧

ثلاثة متوالية، والالاف منهم قتلوا واستشهدوا، وقد تيممت اطفالهم، وترملت نساؤهم، وتهدمت مدنهم وقراهم، حتى انهم صاروا يشعرون بأنهم في حالة غير طبيعة هذه الجماهير اخذت تشعر رويدا رويدا، بأنها طلقت الدنيا وطلقت الاهل والاولاد والاموال، في سبيل قضية لا تمس مصالحهم الشخصية، ومن هذه الارضية، أخذوا يوحون الى انفسهم بالشك، والتميع عادة يوحى بالشك، وقد يخفق في الانسان الشك، لأن من مصلحته ان يشك لأن رغبة هذه الجماهير بايقاف هذا النزيف والحروب المتوالية، كانت رغبة نفسية جامحة وكانت الدافع لخلق الشك ومبرراتها اللامنطقية (الذاتية) وهذه المبررات تأتي — عادة — نتاجا لهذه الرغبة النفسية، في ان يتبدل الحال الى ما كان عليه قبل اعباء هذا الخطب الفادح، وتحمل مسؤولياته،

والمعروف ان كل انسان (بطبعه) يميل الى الدعة والكسل، فأذا وضعت امامه مهام كبيرة، حينئذ اذا وجد مجالا للشك في هذه المهمة فسوف يكون عنده دافع نفسي الى ان يشك.. يشك لأنه يريد ان يشك، ولأن مصلحته ان يشك، وهذا ما حصل مع الامام علي(ع) فالعراقيون قدموا وبذلوا الكثير من التضحيات في حروب ثلاثة، وقد ماتوا واستشهدوا، وحلت بهم الكثير من المآسي والمحن، ولكنهم اخذوا يتساءلون لاجل ماذا هذه الحروب؟ الأجل ان يزداد ما لهم وجاههم لا، وانما لحساب الرسالة وهدفها الكبير، وهذا الهدف الكبير اعز من كل النفوس والدماء والاموال. ولكننا يجب ان نقدر موقف هؤلاء الذين ضحوا وبذلوا ثم اصبحوا يشككون، لأن من مصلحتهم ان يشككوا واصبح الامام يدفعهم الى المعركة فلا يندفعون، ويحركهم فلا يتحركون ماذا؟ لأن من مصلحتهم ان يبرروا للمعركة مفهوما تلفيقيا جديداً وهو ان المسألة مسألة تناطح زعامتين زعامة علي ومعاوية وما بالنا ان يكون احدهما زعيما، نحن نقف على الحياض وننفرج ويتم الامر لأحدهما.

هذا التفسير الذي اوحى به مصلحة هؤلاء، كانت عقبة كأداء دون ان يتحركوا الى خط الجهاد، هذا الحال هو الذي جعل الامام(ع) يبكي من على المنبر وينعى اصحابه الذين استشهدوا ولم يشكوا في خطه والذين كانوا ينظرون اليه كامتداد لرسول الله(ص) من قبيل عمار وامثاله، عمار الذي وقف بين يدي الامام(ع) في صفين واضعا سيفه على بطنه قائلاً لإمامه(ع):

«والله انك تعلم لو كان رضاك ان تغمد هذا السيف في بطني حتى اخرجته من ظهري لفعلته والله انك تعلم اني لا اعم رضا الا في قتال هؤلاء الناكثين والقاسطين المنحرفين».

كان الامام علي (ع) يبكي امثال عمار، لأنهم كانوا قد ارتفعوا فوق هذه الشكوك وقد طلقوا مصالحهم الشخصية لمصلحة الرسالة وفي سبيل اعادة مجد المجتمع الاسلامي ووحده. — اما الباقيون فقد بدأ — الشك يتسرب الى نفوسهم، بدأوا يشكون في امامهم (ع) حتى انه تمنى الموت لأنه اصبح يحس بأنه انقطع عن هؤلاء وانفصل عنهم، وقد أصبحوا لا يفهمون اهداف رسالته ولا يتفاعلون معه فكريا وروحيا.

وما اكثر خطبه وكلماته التي أعلن فيها شكواه منهم، وبرمه بهم من ذلك قوله (ع): «يا اشباه الرجال ولا رجال! حلوم الاطفال، وعقول ربات الحجال، لوددت اني لم أركم، ولم أعرفكم معرفة واللّه جرت ندما، واعقبت سبدا. قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحا، وشحنتم صدرى غيظا، وجرعتموني نعب التهام انفاسا وافسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: ان ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب.»^(١)

بالاضافة الى ما ذكرناه انفا، كانت هناك مؤثرات وعوامل اخرى ساهمت ومهدت لخلق حالة الشك (الذاتي) اللاموضوعي في شخص الامام (ع) نذكر بعضا منها:

اولا: الصحابة الذين كانوا يعرفون بالورع والتقوى، في نظر الناس والمتلبسين بلباس الاتقياء العقائديين المثاليين «وكان بعض هؤلاء يتمتعون باحترام محدود في قواعدهم القبلية، وهذا الاحترام لم ينبع من ولاء فكري، بل من ولاء قبلي، كما كانوا يتمتعون باحترام محدود من جماهير المسلمين تابع من صحبتهم للنبي (ص)، ومن غموض موقفهم من الخيارات المطروحة على الساحة السياسية»^(٢)

هؤلاء الصحابة! لم يبلغوا من الصفاء والوعي درجة تحملهم على الانضواء تحت قيادة الامام علي (ع)، وكانت مصالحهم من جهة وإثارة من التقوى في انفس بعضهم من

١. نهج البلاغة: رقم الخطبة: ٢٧

٢. حركة التأريخ عند الامام علي (ع)/ محمد مهدي شمس الدين ص: ١٤٨

جهة أخرى، قد حملتا هؤلاء على التزام جانب الحيلة والحذر من نهج معاوية (الجاهلي)، فلم ينحازوا اليه في هذه المرحلة، وإن كان بعضهم قد والى النهج في النهاية.

وتمثلت هذه القيادات بأمثال، سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم، والحسن البصري، وسعيد بن مالك وغيرهم من الذين اعتزلوا السياسة العامة، بعد مقتل عثمان بن عفان، تحت شعار البعد عن الفتنة، وكانوا يوصون الجماهير بأن المعركة ليست صحيحة، وبقولهم:

«القاعد فيها خير من القائم، والنائم فيها خير من القاعد، والمأشي فيها خير من الساعي»

وكان هؤلاء في موقفهم هذا قد خدموا معاوية خدمة كبرى حينما جعلوا من انفسهم فريقا يعطى عمل الطاقات الثورية في مجتمع الامام علي(ع)، تحت شعار الورع والبعد عن الفتنة!

هؤلاء عبر عنهم الامام علي(ع) بقوله:

«خذلوا الحق، ولم ينصروا الباطل»^(١)

ولما قال له الحارث بن حوط: أتراني أظن اصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟ قال له الامام(ع):

«يا حارث انك نظرت تحتك، ولم تنظر فوقك فحرت، انك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه»

فقال له الحارث: فإني اعتزل مع سعيد بن مالك وعبدالله بن عمر... فأجابه الامام(ع) قائلا:

«إن سعيدا وعبدالله بن عمر، لم ينصروا الحق، ولم يخذلوا الباطل»^(٢)

ثانيا: الايحاء الذي جاء من قبل الصحابي، أبي موسى الاشعري، كان له أثر كبير اكبر بكثير من الايحاء الذي جاء به الصحابي عمار بن ياسر، فايحاء الاخير يكلف الموت، ومواصلة الجهاد، والتنازل عن الحياة وملاذها.

١. نهج البلاغة: باب احكم رقم: ١٨

٢. نهج البلاغة: باب احكم رقم: ٢٦٢

اما ابو موسى الاشعري، فأيحاذؤه كان يعطي الحياة ويمنح السلام، ولسان حاله يقول لهم: حافظ على حياتك وابتعد عن الاخطار، واجلس في بيتك، ودع الاسلام مع اخطاره واعدائه.

عمار بن ياسر صحابي كبير، وايضا ابو موسى الاشعري صحابي كبير، ولكن احدهما يكلفك بالموت، والآخر يمنحك الحياة.

الانسان الاعتيادي البسيط، حتما سوف يختار ويفضل ايماء ابي موسى الاشعري على ايماء عمار بن ياسر، لأنه يريد الاحتفاظ بحياته ولو كانت حياة رخيصة، تحت ظلال معاوية وظلال جاهليته وأحكامها.

ثالثا: وهناك عامل النزاع التقليدي القائم بين بني امية، وبني هاشم وقد امتد هذا النزاع الى مابعد الاسلام، مساهما هو الآخر بتعميق الشك، حيث بدأت الأذهان والنفوس الشاكّة تفتش عن نقطة ضعف في المعركة، فأخذوا يثيرون هذا النزاع كنقطة ضعف وتبرير للانزمام من واقع المعركة، مشيعين حول معركة الامام (ع) مع معاوية بأنها ليست الاستمرار لذلك الصراع التقليدي التاريخي بين بني امية وبني هاشم سعيا وراء الحكم بما هو سلطان سياسي يوظد سيطرة اسرة قرشية على مقدرات المسلمين بدلا من سيطرة اسرة قرشية أخرى. واخذوا يصورون المعركة بهذا (البعد الذاتي) ولسان حالهم يقول، مالنا نحن وهذا الصراع، ليكون اي منهم زعيما اما نحن لنقف على التل ونفرج على نهاية الصراع.

كل هذه العوامل، وعوامل أخرى، ساعدت على أن يكون الامام (ع) موضع شك من قبل الجماهير، وأن يكون الطامع المثالي والرسالي للصراع غير واضح عند الجماهير، حتى أن الامام (ع) كان يصعد المنبر مرارا، يدعو الناس فلا يستجيب له أحد ويقول لهم:

«يا أهل الكوفة كلنا سمعتم بجمع من أهل الشام أظلمكم انحجر كل امرئ منكم في بيته، واغلق عليه بابه انحجار الضب في جحره والضبع في وجارها المغرور من غررتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب لأحرار عند النداء، ولا اخوان عند النجاء، انالله وانا اليه راجعون، ماذا منيت به منكم، عمى لا يبصرون وبكم لا ينطقون، وصم لا يسمعون، انالله وانا اليه راجعون»^(١)

ويقول في موقف آخر:

«الله انتم أما دين يجمعكم، ولا حمة تشدكم اولى عجا أن معاوية، يدعو الجفأة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء وأنا ادعوكم وانتم تريكة الاسلام وبقية الناس، الى المعونة او طائفة من العطاء فتتفرقون عني وتختلفون علي»^(١)
«اف لكم لقد سئمت عتابكم، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا، وبالذل من العز خلفا اذا دعوتكم الى جهاد عدوكم دارت اعينكم كأنكم من الموت في غمرة، ومن الذهول في سكرة ما انتم لي بثقة سجييس الليالي، وما انتم بركن يمال بكم.

وأيم الله، اني لأظن أن لوهي الوغى واستحر الموت، قد انفرجتم عن ابن ابي طالب انفراج الرأس»^(٢)

وهكذا كان الامام يستثير همهم وعزائمهم، فلا تنبض لهم همّة، ولا تنهض لهم عزيمّة.. لأنهم بدأوا يشكون بالامام (ع)، والشك في القائد، هو اقصى ما يئني به القائد المخلص وهو اخطر وألعن ما تمنى به الامة التي يتزعما هذا القائد البار.

وحرارة الشك وآلامها العميقة الواضحة كل الوضوح في كلام الامام (ع) حيث يقول:

«اللهم اني مللتهم، وملوني، وسئمتهم وسئموني فأبدلني بهم خيرا منهم وأبدلهم بي شرا لهم مني، اللهم مث قلوبهم، كما يماث الملح في الماء»^(٣)
وفي خطبتها الشقشقية يقول:

«فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومقرت أخرى، وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه وتعالى يقول «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين»، اما والذي، فلق الحبة، وبرأ

١. شرح النهج/ابن ابي الحديد ص: ٦٧ ج ١٠

٢. شرح النهج/ابن ابي الحديد ج ٢ ص: ١٨٩

٣. شرح نهج البلاغة/ابن ابي الحديد ج ١ ص: ٣٣٢

النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاتروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، وسقيت آخرها بكأس أولها ولألقيتم دنياكم هذه ازهد عندى من عفة عز»^(١)

إن الامام علي (ع) «قبل الحكم، اذن بمزيج من التشاؤم والامل، ولكن سرعان ما تسرب الذبول الى شعلة الامل، فان القوى المترددة والمتمظهرة بمظهر التقوى واصحاب رسول الله (ص) سرعان ما اخذت تتحازر ويذا رويذا نحو المعسكر المناهض للامام (ع)، ان لم يكن في العلن ففي السر» هذا من جهة ومن جهة اخرى راحت الجماهير الغاضبة، المترعة قلوبها بآمال التغيير تضغط في سبيل التغيير دون ان تقدر ظروف المرحلة، وكان اتباع سياسة متوازنة ضرورة حيوية لئلا ينفجر المجتمع من الداخل بانحياز قوى موالية للامام (ع) ولكنها غير واعية وغير ناضجة، نحو معسكر الثورة المضادة.

وهكذا، فبعد الصدمة التي شلت قوى الثورة المضادة، وبعد فترة الانتظار التي مرت بها الفئات الاخرى من الامة، تفجر الموقف من جديد، وعاد الغليان الى المجتمع، وعادت حالة الاختلاط والاضطراب المحمومة.

وظهرت للامام علي (ع) في هذه المرحلة التي بلغت فيها ازمة الحكم وأزمة الفكر الذروة — بفعل حالة الشك اللاموضوعي — ظهرت له بوضوح تام موجع ومدم للقلب معالم تأريخ المستقبل للامة الاسلامية، حافلا بالأهوال والمآسي، وبكل مافيه من ظلام ودماء، وتمزقات وانهارات، تتخللها هنا وهناك، في بعض الأحيان، لمعات نور وحالات سلام عارضة، وآمال مضيئة ملهمة وخيبات أمل قاسية.

لقد رأى بجدس يضيئه نور نبوي، وعقل مستوعب لحركة التأريخ، رأى الفتنة آتية بكل ظلامها وحينها، وتلبسها الحق بالباطل.

ورأى بعدها انتصار حركة الردة بقيمها الجاهلية، بلبسها للاسلام (لبس الفرو

مقلوبا)

ورأى بعد ذلك معاناة الامة: فسمع بقلبه الكبير أنين المظلومين الذين تسحقهم أنيابها الوحشية، ورأى بقلبه الكبير نزيف الدماء من ضحاياها، وأحس بأعمق أعماق كرامته الإنسانية ذل الانسان المسلم في مجتمع الرذلة، وبكى بحرارة ومرارة لكل ماسيصيب الناس بعده»^(١).

وبالرغم من ملاسبات الشك (الذاتي) ومرارتها في قلب الامام(ع)، لم يضعف ولم يتراجع، بل بقي في خطه يواصل عملية التعبئة لجهاد معاوية، وضرب الانشقاق الى آخر سنة من حياته، بل آخريوم من حياته الشريفة، عندما خرّ صريعاً مضرباً بدمه الطاهر في مسجد الكوفة وهو في قمة محاولاته لتصفية الانشقاق، وقد كانت بدايات جيش مجهز للخروج الى الشام للقضاء على المعسكر المنفصل^(٢)، وقد استشهد الامام(ع) ولكن الصراع استمر بقيادة ولده الحسن(ع).

ولكن باستشهاده(ع) قضت قوى الردة على آخر أمل في إعادة خط التجربة الصحيحة وذلك الأمل الذي اختلج في نفوس المسلمين الواعين، متجسداً في شخص الامام العظيم. الذي عاش منذ اللحظة الاولى، هموم الدعوة والآمها، وشارك في بناء تجربتها الرائدة لبنة لبنة، وأقام صرحها مع الرسول(ص) ورافق معه كل مراحل الدعوة بكل همومها ومشاكلها والآمها فكان(ع) الامل الوحيد في نظر المسلمين الواعين لاسترجاع التجربة خطها الصحيح واسلوها النبوي المستقيم، بعد ان استفحل الانحراف وتعمق داخل اطار التجربة الاسلامية ولم يكن هناك امل بقهر الانحراف وتحديه الا بشخص الامام(ع).

وهذا جاء اغتياله الغادر(ع) تقويضاً حقيقياً لآخر امل حقيقي لقيام مجتمع اسلامي

صحيح.

يقول المفكر الاسلامي (الجزائري) مالك بن نبي:

١. راجع حركة التأريخ/محمد مهدي شمس الدين/ص: [١٥٠]

٥. قال الشريف الرضي في نبح البلاغة، روى عن نوف البكالي: قال خطبنا امير المؤمنين(ع) بالكوفة وهو قائم على حجارة، وكان جبينه ثفنة بغير فقال(ع).. قال: وعقد للحسين(ع) في عشرة آلاف ولفيس بن سعد في عشرة آلاف، ولابي ايوب الانصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على اعداد أخر وهو يريد الرجعة الى صفين، فادارت الجمعة، حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله فتراجعت العساكر فكثا كأغنام فقدت راعيها تحتفظها الذئاب من كل مكان

«لقد عرف العالم الاسلامي، اول انفصال في تأريخه في معركة (صفين) عام ٣٨ هـ، اذ كان يحمل بين جنبيه بعد قليل من سنوات ميلاده، تناقضا داخليا، حيث كانت «حمية الجاهلية» تصطرع مع «الروح القرآنية»، فجاء معاوية فحطم ذلك البناء الذي قام لكي يعيش، ربما الى الأبد بفضل ماتضمنه من توازن بين عنصر الروح وعنصر الزمن ومنذ ذلك الانفصال الأول، فقد العالم الاسلامي توازنه الأولي على الرغم من بقاء الفرد المسلم متمسكا في قرارة نفسه بعقيدته التي ينبض بها قلبه المؤمن»^(١)

«ولم تكن صفين تأريخا عاديا، بل كانت تأريخا فاصلا بين الكيان الاجتماعي والسياسي النبوي العظيم، الذي حل الدفعة القرآنية الفذة، وبين كل ماسيأتي بعدها حتى سقوط نظام الخلافة.

وبالتأكيد لم يكن ذلك الانفصال الذي شق وحدة الأمة يعني نهايتها، ذلك لأن تواصلها الاسلامي استمر اكثر من ثلاثة عشر قرنا فيما بعد، ولكنه كان يعني أن التوازن الاسلامي الذي صاغ دولة رسول الله (ص) ومجتمعه، قد اصابه خلل خطير»^(٢)

«ولذا فقد كانت صفين مرحلة بين حكم الاسلام وبين الانحراف وقد كان هذا هو جوهر كلمات عبدالرحمن بن ابي بكر، حين وقف مروان بن الحكم يدعو الى اخذ البيعة ليزيد ليخلف اباة بعد وفاته ويؤكد على ان في ذلك خير للمسلمين ودرة لانقسامهم، فقام عبدالرحمن صارخا في وجهه، كذبت والله وكذب معاوية، ما الخيار اردتها لأمة محمد ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل»^(٣)

وكان ان بدأت منذ يوم صفين، عملية تفاعل وتآكل لا تتوقف، بين بنية المجتمع الاسلامي، والنظام الاسلامي الصحيح فلئن كانت نهاية دولة الخلافة، اشارة هامه على عودة بعض النزاع الجاهلية الى العمل، فإن تحول الخلافة الى ملك قد أثر تأثيرا كبيرا في استمرار الذروة الرائعة التي عاشها المسلمون في السنوات الاولى، وما ان جاء النظام الجديد حتى — اصبحت للطبقة الحاكمة امتيازات ولأذياها منافع ولحاشيتها رسوم وانقلبت الخلافة

١. مالك بن نبي/وجهة العالم الاسلامي ص: ٢٥

٢. راجع مجلة المختار الاسلامي/العدد ١٩/السنة الثانية/١٥ صفر ١٤٠١ يناير ١٩٨١

٣. ابن الاثير/ج ٣ ص: ١٩٩ نقلا عن كتاب النظريات السياسية الاسلامية. ضياء الدين الريس ص ١٥

ملكاء، وملكاً عضوضاً، كما قال عنه رسول الله (ص) في وثبة من وثبات الاستشفاف الروحي العميق»^(١)

وهكذا تكاثرت المنتفعون من حول النظام بدلاً من أهل الرأي والنصيحة، وبدأ ان الحق العام تتسلل إليه أيدي من لاحق لهم، ورغم اتساع رقعة الاسلام إلا ان «روحه انحسرت بلا جدال»^(٢)

فقد كانت عوامل القوة التي سكنت المجتمع الاسلامي كآثر من آثار (الدفعة القرآنية الاولى) هي التي تقدمت بالاسلام لترفع رايته فوق نصف المعمورة ولتنشي تلك النهضة العالمية الكبرى، ولكن ظهور النوازع الجاهلية، وانحراف الحكم عن جوهر النظام الاسلامي، ثم تلك الشوائب التي شابت صفاء المنبع هي التي ادت بمجموعها الى انحسار الروح الاسلامية»^(٣)

«وكانت تلك النقطة في الفكر الاسلامي اتجاهاً نحو اقرار ما بعد صفين، لم تعد الامة الاسلامية كمصدر للسلطة تحت حاكمية الله، هي التي تحدد منظور البحث والممارسة. وسيطر قبول عام بالأمر الواقع، فن مفهوم الخلافة الى الملك العام القوي ومن الملك العام الى عصبية الصوائف والدويلات.

ونرى ان هذا الواقع المنحرف انعكس بشكل واضح وذا صبغة تبريرية لواقع الحكام. في كثير من كتابات المفكرين الستة كأبن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية» وذلك في قبوله بالفكرة القائلة:

«ان السلطان ظل الله في الارض، وان ستين سنة من امام جائر اصلح من لية واحدة بلا سلطان»..^(٤)

* * *

١. راجع العدالة الاجتماعية/ سيد قطب ص: ٢١٧-٢١٨

٢. راجع العدالة الاجتماعية/ سيد قطب ص: ٢١٧

٣. مجلة المختار الاسلامي ص: ٥٠

٤. تأريخ الطبري ج ٣ ص: ٢١٠ نقل عن مجلة المختار الاسلامي

الإمام علي (ع) يختار الكوفة مركزا لخلافته:

المعلوم — تأريخيا — ان الإمام (ع) بعد أن فرغ من حرب الجمل، انتقل بحكومته من المدينة الى الكوفة واتخذ الكوفة قاعدة لحكمه، والكوفة يومئذ مركز الثقل في المجتمع الاسلامي الناشئ، ووجود الاتباع والقواعد الشعبية الموالية لحكم الامام (ع) روحيا وعاطفيا، وان كانت هذه القواعد لم تع رسالة الامام (ع) وعيا حقيقيا كاملا.

وكانت المدينة المنورة تمثل مركز القيادة السياسية والروحية للامة الاسلامية، اذ كان فيها اغلب المهاجرين والانصار.

والسؤال هنا لماذا تغيير مركز الخلافة؟ وخصوصا ان المدينة كانت تتمتع بقدسية خاصة في نفوس المسلمين، وقد استطاعت ان تثبت عمليا صلاحيتها لذلك مايقرب من خمسة وثلاثين سنة فهل كان هذا التغيير امرا عفويا من الامام (ع) ام انه امر مدروس، في نطاق خطة ذات ابعاد استراتيجية واعتبارات عسكرية وقيادية؟

ويمكن لنا ان نتعرف على ملامح هذه الخطة، من ملاحظة الظروف والاحداث القاسية التي واجهت الامام (ع)، فقد كان يواجه تحديا سافرا من تلك الفئات التي كانت تحلم باخصول على امتيازات اكبر على حساب الدين والامة وعلى حساب الشرعية فبعد معركة الجمل، وبعد ان تفرق ائتمردون وارجعت عائشة الى بيتها، وجدد الناس بيعتهم له (ع) في البصرة واستتب الأمن، ولاها ابن عمه عبدالله بن العباس، وخرج منها بعد شهر وشهرين من انتهاء المعركة متجها نحو الكوفة ليتخذها مقراله، ^(١) لأن الامام (ع) قبل وقوع انصيان المسلح الذي قام به الحلف الثلاثي (طلحة، والزبير، وعائشة) كان يعد العدة لارسال جيش قوى الى الشام يتولى قيادته بنفسه لإقصاء معاوية عنها، مما دعاه الى ان يرجئ مر معاوية ريثما يسوى حسابه مع هذا الحلف، ويفوت عليهم الفرصة التي كانوا يحلمون بها، وبالطبع خلال تلك المدة كان معاوية قد استعد استعدادا كاملا، ووجد في تمرد المتشقين عنه في الخجاز، فرصة لانجاح خطته. فانقاد اليه اهل الشام، وأظهروا غضبهم لمقتل عثمان، وحرصهم على الطلب بدمه من علي واصحابه وألحوا عليه في ذلك وهو مع ذلك يتأني ويتخذ

التدابير الكافية لكل الاحتمالات، وكان مع ذلك يطمع في العراق ويرسل الى زعمائها وقادة الجيوش من بينهم ويغريهم حتى انقاد اليه جماعة منهم، كل ذلك لم يغيب عن علي (ع)، وقد وضعه في حسابه فأثر ان يكون على مقربة من معاوية فاختار الكوفة، ليكون في مركز القوة عسكرياً وسياسياً.^(١)

وواضح من اختيار الامام (ع) ان المدينة لا تتوفر فيها عوامل النجاح العسكري والسياسي اذا ما اخذ حجم التحدي بنظر الاعتبار، ومهما يكن من امر فإننا نستطيع أن نجعل وضع المدينة في مجال تقييم قدرتها على تحمل المواجهة في الامور التالية:^(٢)

اولاً: ان المدينة لم تكن تتوفر فيها كثافة سكانية كافية تستطيع ان تتحمل اعباء المواجهة للتحديات التي تنتظر هذا الحكم الجديد اذا ما أخذ حجم هذا التحدي بعين الاعتبار، فقد كانت تلوح في الافق رايات العصيان والتمرد على الشرعية، فلقد استغل اهل الأطماع فئات كبيرة من الناس وضللوها بالشبهات واستغلوا فيها بساطتها وعدم نضجها الرسالي، لأنها منذ البداية لم تتح لها فرصة التعرف على الاسلام الصحيح، وانما عاشت الاسلام المتمثل بالسقيفة وما افرزته من اسلام منحرف تربت ونشأت عليه وكلنا يعرف ان الاسلام الاموي، ماهو الا اسلام اطماع ومآرب ولا يمكن ان يقاس بإصالة اسلام الامام علي (ع) وعمقه ووعيه للرسالة.

واذا كانت كل هذه الفئات لم تتفاعل مع الاسلام الحقيقي تفاعلاً يسمح لها بالرؤية الصحيحة لأنهم لم تعرف غير الاسلام الاموي ولا سيما بلاد الشام التي افتتحها يزيد ومعاوية ابن ابي سفيان عسكرياً في عهد ابي بكر، وظلت تعيش في ظل حكمهم باستمرار فن الطبيعي ان لا تتورع عن مناهضة الشرعية والتمرد عليها.

ومن اين لمدينة أن تؤمن لعلي (ع) الجيش الذي يقدر به على المواجهة والاحتفاظ بالواقع، فضلاً عن انزال الضربة القاصمة والنصر؟! وبديهي ان الاستعانة بالاعراب حول المدينة، ان لم تكن مضرة، فلا اقل من انها سوف لا تكون كافية لتحقيق كامل الاهداف وبشكل مرضي ودقيق.

١. راجع سيرة الأئمة/الحسيني ص: ٤٦٥ - ٤٦٦

٢. راجع للاستفادة: مجلة الحكمة/ العدد الرابع السنة ١٤٠٠هـ. / استراتيجيات الامام / لعاملي ص: ٣٣

أما الاعتماد على النجيدات من سائر الاقطار الأخرى كالعراق وفارس مثلا، فلربما يكون من السهل جدا على اعداء علي (ع) عرقلة ومنع وصول من يريد الوصول اليه منهم بشكل طبيعي وسليم.

ثانيا: لا تتوفر في المدينة الموارد الاقتصادية الضخمة التي تستطيع تأمين احتياجات جيش يعدّ بعشرات الألوف، لأنها ارض صحراوية قاحلة، ليس بها زرع ولا ضرع. وهي بعيدة عن مناطق التموين.

ثالثا: ان المدينة لم تكن شديدة الولاء للشرعية المتمثلة بعلي (ع) حيث مركز ثقل الامويين ومحبيهم من التميميين، والزييريين، ومن ينتمي اليهم من اهل الاطماع، وبالتالي كل من وترهم الاسلام على يد الامام علي (ع).. ومعنى اعتماد المدينة كقاعدة لنخلة وعاصمة لها هو ان تكون الاسرار العسكرية، متوفرة لدى الجهة المناوئة، وان تكون جبهة الامام (ع) امام تحدى الانهيار من الداخل، وعرضة للأعمال الخيانية لصالح الناكثين والفاستين. وذلك لوجود لعوانهم ومحبيهم بين ظهري السلطة الحاكمة التي يستحيل ان تقدم على اى اجراء ضد اى شخص مادام ذلك الشخص لم يثبت اى اتهام ضده، حتى تثبت ادانته بالطرق الشرعية.

رابعا: ان الجيل الجديد الذى تربى في المدينة لم يكن قد اعتاد الحياة الصعبة التي تتطلبها الحروب الطويلة انطاخنة التي خاضها الامام علي (ع) لأن شباب المدينة كانوا قد اعتادوا حياة الرخاء والدعة، لأنهم صاروا يعيشون على العطاءات السخية التي كان يغدقها عليهم الخلفاء الذين سبقوا عليا (ع) حتى اصبح من الصعب عليهم التخلص من اجواء الرفاه التي يعيشونها ثم التضيحية بأنفسهم والتعرض للمصاعب والمشاق التي تتطلبها الحروب.

خامسا: فقد كان الاسلام جديدا على العراق، وكانت العادات القبيلية والجاهلية، لا تزال تتحكم في روابطه وعلاقته الاجتماعية وكانت الحروب فيه محكومة لزعماء القبائل عموما، لا للإيمان والعقيدة، وكانت المدينة أبعد عن ذلك وبشكل محدود، فكان اغواء اهل العراق من قبل معاوية اقرب احتمالا واسهل منالا، واذا صار للعراق مع معاوية، فان وضع المدينة العسكرية والاقتصادى، سوف يصير حرجا جدا، ولهذا فلا بد من تدارك الامر وحفظ العراق أولا، ثم استغلال روح التنافس التي كانت قائمة بين القطرين العراق

والشام. وحتى الروح القبلية ايضا وتوظيفها في صالح الاسلام والامة بدلا من ان يستغلها معاوية في غير هذا السبيل.

وهكذا نجد ان المدينة لا تستطيع في هذه الظروف بالذات ان تكون عاصمة للخلافة، ومنطقا لتحركاتها بحرية، وانما نجد الكوفة على الضد، فهي بالاضافة الى قربها من الشام والبصرة، وموقعها الوسط في قلب العالم الاسلامي، مضافا اليها المميزات التالية:

١/ امتلاكها للطاقت البشرية، والتي تمكنها من مواجهة التحدي مهما كان كبيرا.
٢/ قدرتها الاقتصادية، على التكوين المستمر للجيش التي سوف تواجه الحرب. لما تملكه هي المناطق القريبة اليها من ثروات زراعية وموقع تجارى حيوى في المنطقة سواء بالنسبة للفرس او العرب على حد سواء.

٣/ ضلالة قدرة الأخطبوط الاموى، والشيعة، والزبيرى ومن وترهم الاسلام على يد علي(ع)، على التحرك والمناورة فيها.

٤/ لم يكن اهل الكوفة قد تعودوا على لذائذ الحياة وزبارجها، فكان يسهل عليهم التضحية وخوض غمار الحروب وتحمل الصعاب.

ولهذه الاسباب جميعا، جاء اختيار الامام(ع) للكوفة، وذلك لاعتبارات استراتيجية وعسكرية فرضت عليه ذلك، ولم يكن نقل العاصمة ضربا من العفوية والارتجال.^(١)

رفض الامام(ع) للمساومات، هل كان عنادا؟!

بقيت ظاهرة مهمة في حياة الامام(ع) عندما كان حاكما متصرفا ومصرفا لشؤون المسلمين نود مناقشتها والقاء الضوء عليها، ألا وهي اصرار الامام(ع) وتأكيد انواعه منذ أن مارس الحكم الى ان خسر صريعا، على رفض كل الصيغ وانصاف الحلول التي واجهته في تصفية الانحراف، ولم يفكر مطلقا بمساومة الانحراف ومهادنته على حساب الأمة بأى شكل من الاشكال.

١. راجع للاستفادة مجلة الحكمة/العدد الرابع/السنة ١٤٠٠ هـ مقالة استراتيجية الكوفة في خلافة الامام

علي(ع)/للعاملي/ص: ٢٩ - ٣٣

هذه الظاهرة من حياة الامام (ع) السياسية — رفض انصاف الحلول او قبول المساومات — استرعت انتباه واقدام اغلب المؤرخين، قديما وحديثا، وقد جاءت تحليلاتهم وكتاباتهم فجأة بعيدة عن واقع التاريخ وعن فهم صحيح لحقيقة موقف الامام (ع). اما الامام علي (ع) فقد كان حريصا كل الحرص في معالجة مشاكل عصره، وعلى اعطاء العناوين الاولى الاصلية للصيغة الاسلامية للحياة، والوقوف على التكليف الواقعي — الاولي — كما يسميه الأصوليون — دون ان يتجاوزها الى ضرورات استثنائية تساومية تفرضها طبيعة الملابس والظروف الآنية العاجلة.

وسوف نتناول هذه الظاهرة، ونناقشها على مستويين: المستوى السياسي والمستوى الفقهي.^(١)

الدوافع والاسباب:

١/ المستوى السياسي: وعى الصعيد السياسي، نرى أن هناك اشخاصا عاصروا الامام (ع) وكان رأيهم في الامام (ع) ومعالجته لمسائل الحكم واصرارهم على استبعاد او رفض كل اشكال المساومات وانصاف الحلول لونا من ألوان العناد، وهو بالتالي يعقد الموقف ويثير الصعاب في دولته، ومعناد ترسيخ تلك المشاكل، وبالنهاية عجز الامام (ع) عن مواجهة حلها، وسوف تشغله عن مهامه الرئيسية في ادارة الحكم والمضي بتجربته الى حيث يريد، وخصوصاً ان الاصرار والإخاح على التمسك بالمواقف المبدئية سيجعل القضية في طريق مسدود ولا بأس أن يعتبر كلا الطرفين المتنازعين ان هذا الأمر تنازلا مرحليا من قبله ليخطط على ضوئه للمرحلة المقبلة من المفاوضات مثلاً.^(٢)

وقد جاءه المغيرة بن شعبة مقترحا ابقاء معاوية وأبنا على الشام ريثما تستتب الأمور وبعد ذلك سوف لا يبايع، وبالإمكان استبداله وتغييره بعد ان تتم البيعة في كل أطراف الدولة للإمام (ع).

ونفس القول قاله جرير بن عبد الله للإمام (ع) طالبا منه ان يوسط للأمر «ابعثني يا

١. استفدنا في هذا البحث على ما جاء في محاضرة للسيد الشهيد الصدر على طلبته في النجف الاشرف

٢. من حياة اهل البيت/التسخيري ص: ٢١

أمير المؤمنين إلى معاوية فأتته فادعوه على أن يسلم لك هذا الأمر، وبجامعتك على الحق على أن يكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمالتك»^(١)

ولكن الإمام (ع) رفض عرض جرير بن عبد الله ورد عليه قائلاً:

«أذهب إلى معاوية بكتاني، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وألا فانبذ إليه وأعمته إلى لأرضي به أميراً، وإن العامة لا ترضى به خليفة»^(٢)

أما معاوية فيزور جريراً بمنزله مساوياً إياه بقوله:

«يا جرير اني قد رأيت رأياً، قال: هاته. قال: اكتب إلى صاحبك (علي) يجعل لي الشام ومصر جباية فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي واسلم له هذا الأمر، وكتب إليه الخلافة»

ويكتب جرير ناقلاً مضمون الرسالة للإمام (ع) ويحييه الإمام (ع):

«أما بعد فأما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة وإن يختار من أمره ما يحب، وأراد أن يرثك حتى يذوق الشام، وإن المغيرة بن شعبة قد كان أشار علي أن استعمل معاوية على الشام، وأنا بالمدينة فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله لي رائي اتخذ المضيق عضداً، فإن بايعك الرجل، وألا فأقبل»

فالإمام (ع) في جواب هذا الشخص رفض كل هذه المساومات وانصاف الحلول.

واستمر في خطه السياسي الرافض، مؤكدا سياسته في رفض هذه التنازلات بقوله (ع):

«ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا، وعباده خولا، والصالحين حرباء، والفاسقين حزباء، فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حدا في الإسلام، وأن منهم من لم يسلم إلا بعد أن رضخت له على الإسلام أرضائخ»^(٣)

وقال بصدد الأموال المغصوبة وردها إلى بيت المال:

«وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإن الحق لا يبطئه شيء»

١. كتاب صفين ٢٧ - ٢٨ لتصرفين مزاحم

٢. ن. م. ص: ٢٨

٣. نهج البلاغة ج ١ ص: ٥٩

ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه اضيق»^(١)

ومن هنا بالذات، جاء قول بعض معاصريه، ويردده عندنا بعض المؤرخين والكتاب بأن الامام (ع) كان بإمكانه أن يسجل نجاحا اكيدا ونصرا محققا من الناحية السياسية على أعدائه لو قبل انصاف الحلول وممارسة هذا اللون من المساومات ولو بشكل مؤقت.

٢/ المستوى الفقهي: ونتناوله من خلال مفهوم فقهي شائع يدعى (بقانون التراحم) أو يسمى في فقه ابناء العامة (بالاستحسان)، ويعنون به، أن الواجب الأهم إذا توقف على مقدمة محرمة، لا يجوز تركه بحجة حرمة المقدمة بل يجب المحافظة على الواجب الأهم، فثلا عندما يتوقف انقاذ انسان من الغرق على اجتياز ارض لا يرضى صاحبها باجتيازها ففي هذه الحالة، يحيز لنا الشارع المقدس اجتياز الارض حتى ولو بدون رضى المالك، وتسقط حرمة هذه الملكية لأن عملية الانقاذ أهم من المقدمة المحرمة، وهي اجتياز الارض دون رضى المالك، وكذلك اذا تترس الكفار المحاربون اثناء الحرب بالمسلمين الاسرى واضعين ايهم امامهم ليتقوا هجوم المسلمين، ولم يكن للمسلمين سبيل بالوصول الى العدو الا باختراق صفوف المسلمين الاسرى، وبسفك دمائهم، فيكون جائزا سفك دمائهم اذا كانوا يشكلون عقبة في انتشار الرسالة الاسلامية وهذا المعنى كتب الشهيد الاول في اللمعة الدمشقية يقول:

«وهكذا يجوز قتل الترس من لا يقتل، ولو تترسوا بالمسلمين كف ما أمكن ومع التعذر فلا قود ولا دية»^(٢)

وكذلك عندما كان الرسول (ص) في بعض غزواته مضطرا الى الخروج من المدينة عن طريق معين. تعترضه مزارع مملوكة لأصحابها. وكان الجيش بطبيعة مروره يتلف كثيرا من محاصيل هذه المزارع، مما دعا اصحابها ان يطالبوا الرسول (ص) بالتعويض عما اصابهم من ضرر فلم يجبهم الرسول (ص)، كل ذلك لأن النتيجة كانت أهم من المقدمة، لأن هذا الجيش الفاتح كان يسير لأجل ان يغير وجه الدنيا، ويخرج اهلها من الظلمات الى النور، فما

١. نهج البلاغة ج ١ ص: ٥٩ وشرح النهج ج ص: ٢٦٩ - ٢٧٠

٢. اللمعة الدمشقية/العالمي نقلا عن حياة اهل البيت/انتخيري ص: ٢٢

قيمة تلف مزرعة صغيرة، اذا كان الجيش الاسلامي بأهدافه العظيمة سوف يحفظ لنا المبدأ الاسلامي العادل في توزيع الثروات في العالم على الخط الطويل.

وهذا امر معقول من الناحية الفقهية، لأن القاعدة تقرر بأن الواجب اذا توقف على مقدمة محرمة، وكان ملاك الوجوب أقوى من ملاك الحرمة، فلا بد من تقديم الواجب على الحرام.

ومن خلال هذا المفهوم الفقهي، وذاك الاجتهاد السياسي، يثار هذا السؤال حول الظاهرة التي نحن بصدد مناقشتها وتحليلها هو:

ماذا لم يطبق الامام(ع) هذه القاعدة الفقهية في تصرفاته ومواقفه السياسية؟

ومن هنا يقرر المعارضون لسياسة الامام(ع)، لو أن عليا استفاد من تطبيق هذه القاعدة الفقهية، واتجهت جهوده الى الواجب الاكبر في تملك زمام قيادة المجتمع الاسلامي والعمل على احراز المكاسب الاسلامية الكبيرة من خلالها، ولا بأس أن تبقى بعض المحرمات في سبيل الحفاظ على الواجب الاكبر مادامت مبرراتها الشرعية (الفقهية) موجودة، ولا سيما ان تملك الامام(ع) لزمام القيادة سوف يفتح على المسلمين ابواب الخير والسعادة ويقم فيهم حكومة الله على الارض.

فالسؤال بشكل أدق، هو لماذا لم يتجه الامام(ع) الى تحقيق الهدف الاكبر ويترك معاوية ولاية الشام ولو الى حين، ويصرف نظره عن الاموال المسروقة التي نهبا بنوامية من بيت مال المسلمين مؤقتا، ولماذا لا يكون عمله هذا تطبيقا حيا لمفهوم التراحم الذي تكلمنا عنه، وذلك بتقديم الالم على المهم، كما يريد هؤلاء؟!، حيث صرحوا للامام في معرض اقتناعه بضرورة المساومة، من ان بقاء معاوية وان كان له ضرره وخطره على الامة الاسلامية، الا ان بقاء وديمومة دولة الامام(ع) وانتشار نفوذه، وفرصة بناء القاعدة الشعبية لحكم الامام(ع) واجلاء الأطروحة الاسلامية الصحيحة مما علق بها من المسخ والتشويه وتأكيد معالمها في الحياة الاجتماعية بالاضافة للجوانب الحياتية الأخرى، وبعد ان يتمكن من كل هذا ويتقوى على عدوه فإنه(ع) يبادر حينذاك بتصفية البؤر المضادة لحكمه واحدا بعد الاخر ومن موقع القوة.

فهؤلاء المعارضون تصوروا قيام (تراحم) بين اهم ومهم فجاء اقتراحهم هذا لابقاء

معاوية على ولاية الشام لكي تبقى دولة الامام (ع)، ومن ثم التحرك على الفتنة والقضاء عليها.

ونحاول الاجابة على كل هذه التساؤلات، ونقول بأن القاعدة الفقهية التي تحدثنا عنها سابقا، ليست صالحة للانطباق على مواقف الامام (ع)، ولم يكن الامام كقائد رسالي يمثل الاسلام واهدافه. ان يقبل هذه المساومات وانصاف الحلول وذلك للملاحظة النقاط التالية واخذها بنظر الاعتبار:

النقطة الاولى:

كانت من اهم اهداف الامام (ع) التي رسمها منهاج سلوكه السياسي: هو توطيد وترسيخ قاعدة حكمه في قطر من اقطار العالم الاسلامي، الا وهو العراق، وذلك لوجود الاتباع والقواعد الشعبية الموالية لحكمه روحيا وعاطفيا، وان كان العراقيون لا يعون رسالته وعيا حقيقيا كاملا.

ولهذا كان الامام (ع) بحاجة ملحة لبناء طليعة واعية في دولته الجديدة التي كان يخطط لإنشائها في العراق. تلك الطليعة الواعية التي تكون امينة على الرسالة واهدافها، وساعدا ومنطلقا له على ترسيخ هذه الاهداف في كل ارجاء العالم الاسلامي.

فالامام (ع) منذ تسلمه للحكم، كان يشعر بوجوب بناء هذه الكوادر الطليعية المؤمنة والتي سوف تشرف على القاعدة الشعبية والتي ستكون سنده في تسير الحكم.

فالامام لم يكن يملك هذه الطليعة الواعية، بل كان بحاجة الى ان يبنها.. وكيف تواتيه فرصة البناء العقائدي وهو في جو ملبد من المساومات وانصاف الحلول، حتى ولو كانت (المساومة) جائزة شرعا، ومستوفية لشروط قانون التزاحم الفقهي، وذلك لأن التربية الروحية والفكرية والعاطفية التي استهدفها الامام في طليعته الواعية لا يمكن ان تنمو بذورها في اوساط قواعد الشعبية، والامام (ع) يعيش جو المساومات وانصاف الحلول، فالمساومات حتى ولو كانت جائزة من الوجهة الشرعية، فان جوازها لا يغير من مدلولها التربوي في التأثير على نفسيات وبناء الطلائع الواعية من حوله شيئا.

فالامام (ع) يشعر شعورا قويا وملحا بأن دولته والأمة من بعد دولته لا بد لهما من

طليلة وقاعدة واعية تعتمد في حمل الاهداف الرسالية وترسيخها في واقع الأمة وأرجاء عالمها المترامي، كانت هذه القاعدة الواعية قديرة في ممارسة الحكم الاسلامي الصحيح.

هذه القاعدة الشعبية الواعية لم تكن جاهزة عند استلامه الحكم، حتى يستطيع الاتفاق معها أو ان يقنعها بوجهة نظره في المساومات وتبرير ضرورتها الاستثنائية.

بل ان الظروف وملابسات الواقع انذاك، تطلبت منه بذل كل الجهود لبناء جيش عقائدى واع بروحه وفكره وعاطفته امثال عمار بن ياسر وابي ذر ومالك الاشتر وغيرهم من طليعة الامام الواعية.

فبناء هذه الطليعة وتلك القاعدة، ليس سهلا ولا ممكنا لو ان الامام (ع) اتجه لنسلك سبيل المساومات، وانصاف اخنول، فهي تتناقض وعمله التربوى في بناء الجيش العقائدى الواعي، فافتقاده (ع) لهذا الجيش معناه فقدان القوة الحقيقية التي يعتمد عليها في بناء الدولة الاسلامية واخط الطليعي في الامة على مدى الاجيال.

والمعروف ان اى دونة عقائدية لا بد أن تعتمد على طليعة مؤمنة تستشعر بشكل واعى ومعمق اهداف تلك الدونة وواقع اهميتها وضرورتها التاريخية.

ومن هنا كانت قناعة الامام (ع) وحرصه على ان يحتفظ بطهر وصفاء عملية التربية في بناء جيشه العقائدى الواعي، فجاءت ممارساته ابحاث تربوية تغييرية يكون فيها القدوة تتعلم فيها القواعد وتزود بها الطليعة الواعية، فكان عليه ان يظهر امامهم قائدا لا ترعزعه المغريات، ولا يتنازل لأى نوع من المساومات، حتى يعين (ع) تلك الطلائع من خلال هذه المواقف الثابتة أن يبنوا المدلول الرسالي لأطروحاته بأبعادها الواسعة للحياة.

ومن هنا نفهم موقف الامام (ع) في رفضه لكل المساومات واخنول الوسط من أجل اتمام هدفه في بناء جيش عقائدى وخلق جو نفسي وفكرى وعاطفي ليكون ذلك الجيل مواكبا للأهداف العظيمة في حياته وبعد مماته.

وكان يعني ان قبول الامام (ع) لأى شكل من اشكال التنازل معناه فشله في تربية الفئة الواعية المدركة لمبادئها واهدافها، وضياع لأهم ضمان للنجاح، وهو اطمئنان اصحابه وقواعده بقائدهم والشعور بالثقة الكاملة بصلاحيته واخلاصه، ولا يمكن ان يتصور هؤلاء امامهم (ع) الذى قال بحق معاوية وامثاله من بني امية:

«الا وان أخوف الفتن عندى عليكم فتنة بني امية، فانها فتنة عمياء مظلمة، عمت خطتها وخصت بليتها، وأصاب البلاء من ابصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها، ترد عليكم فتنهم شوهاء مخشية وقطعا جاهلية، ليس فيها منار هدى ولا علم يرى»^(١)
ويصف رأيهم بأنها:

«رأية ضلال، قد قامت على قطبها وتفرقت بشعبها تكيلكم بصاعها وتخطكم بباعها قائدها خارج من الملة، قائم على الظلة»^(٢) «وانهم مطايا الخطيئات وزوامل الآثام»^(٣)

ومن هنا نخلص الى نتيجة مؤداها، أن جوال المساومة لا يخلق الجو الرفيع نفسيا وفكريا وروحيا، ولا يتلاءم مع خططه التربوية الكبرى في بناء جيل عقائدى واعى.

النقطة الثانية:

ان استلام الامام (ع) للحكم، جاء اعقاب الثورة على خليفة المسلمين عثمان أى على اثر ارتفاع وانفجار العواطف التي وصلت ذروتها في مقتل عثمان والاطاحة بحكمه لانحرافه عن كتاب الله وسنة نبيه (ص)، حيث ان مجيء الامام (ع) لم يكن مجيئا اعتياديا يقول الامام (ع) بهذا الصدد «فأقبلتم اليّ اقبال العوذ الخفافيل على اودلاها تقولون: البيعة البيعة! قبضت كفي فبسطتموها ونازعتم يدي فجاذبتموها»^(٤). بل جاء في لحظة الثورة وهي تركيز وتعبئة وتجميع كل الطاقات العاطفية والنفسية في الامة الاسلامية، فكان لابد للامام (ع) ان يغتم هذه اللحظة المليئة بكل ما استبطنته من زخم وطاقات عاطفية ونفسية وفكرية، وماذا ينتظر القائد الرسالي، غير لحظة ارتفاع في حياة امة، لكي يستطيع ان يستثمر هذه اللحظة في سبيل اعادة هذه الامة الى مسيرها الطبيعي.

١. نهج البلاغة ص: ١٣٨

٢. ن. م ص: ١٥٦

٣. ن. م ص: ٢٢٤

٤. نهج البلاغة رقم النص: ١٣٧

وهذا الارتفاع العاطفي المتأجج، الذى وجد في حياة الامة الاسلامية، لم يكن من الهين اعادته الى مساره، بل كان قدر الامام (ع) بعد استلامه لمسؤولية الخلافة، أن يعمل على تركيز وتعميق هذه الحالة العاطفية واستثمارها لصالح الأمة عن طريق تمرير الاجراءات الثورية والجذرية التي قام بها فيما بعد خلال مواجهته لمشاكل المجتمع المعقد.

«وقد كان لهذه السرعة في تطبيق الاصلاحات الجذرية اثرها المزدوج في الوصول نحو الهدف، فهو من جهة: يستفيد من الطاقات المتأججة فعلا، والتي تسترخص البذل في سبيل تحقيق النتيجة، ومن جهة أخرى: يشارك في ابقاء الجذوة متقدة لفترة اطول، مما يساعد على امكانية التقدم بعملية الاصلاح وترسيخها في المجتمع، وهذه السرعة بالتالي ستفاجئ القوى المنحرفة فلا تدع لها مجالا للتخطيط والمؤامرة»^(١)

ومن هنا نواجه سؤالا مهما، ونقول ماذا يكون مصير الامام (ع)، وهو في هذا الجو المشحون عاطفته وثورة؟ لو أبقي الباطل يصول ويجول، دون ان يمسه باجراء اصلاحي؟ أو أن يعمد (ع) الى جانب الصمت والسكوت عن تلك التصرفات الكيفية التي قام بها الحكام من قبل ويسكت عن معاوية بالذات؟ وهل يكون موقف الامام صحيحا لو انتظر لتهاد العاطفة وينكمش التيار النفسي والعاطفي المتأجج للثوار؟! ولو اننا افترضنا ذلك فن ذا الذى يضمن أو يقبل أن يرجع الظرف للامام مرة أخرى ليقوم بمثل هذه الاجراءات؟ فإن افضل ظرف مؤات للامام (ع) لتمرير اجراءاته التغييرية، هو هذا الظرف الثورى الذى عاشته الامة الاسلامية ابان ثورتها على عثمان ولم يكن بالأمكان، وتحت اى مبرر، تأجيل هذه الاجراءات الى ظرف آخر تنطفئ فيها الشعلة الثورية المستعرة، وتبرد فيها العواطف وتنميع من خلالها المشاعر وتذوب.

النقطة الثالثة:

اراد الامام (ع) أن تدرك الامة انذاك وتفهم بأن واقع المعركة بينه وبين خصومه ليست معركة ذاتية بينه وبين معاوية او بين قبيلتين (بنو هاشم وبنو امية)، وانما هي معركة الاسلام مع الجاهلية، وقد حرص (ع) كل الحرص في توعية الناس بأن واقع المعركة هي عين

معركة رسول الله (ص) مع الجاهلية التي حاربه في بدر وأحد.

ومن الطبيعي الآن ان نفهم، بأن هذا الحرص الذي بذله الامام (ع) سوف يعنى بنكسة، وتصادر آثاره، لو أن الامام (ع) أقر معاوية وابقى خلفات عثمان السياسية والمالية (اللاشرعية) طليقة في حياة الناس.

فإقرار الامام (ع) كان يعني شيئاً واحداً، هو ترسيخ فكرة (اقرار الانحراف واللاشرعية) في اذهان الناس، ولعرف الناس بأن القضية المختلف عليها ليست قضية رسالية، وانما هو اختلاف على سلطان وجاه، وخصوصاً عندما يلحظ الناس انسجام هذه الاهداف مع واقع هذه المحلفات (اللاشرعية) وهذا مما يوسع الشك بقيادة الامام (ع)، ذلك "الشك المصطنع" الذي نَمِيَ عند الامة في شخص الامام (ع). بالرغم من انه لم يكن يوجد له أى مبرر موضوعي، بل كانت بواعثه تبريرية (ذاتية)، مع كل ذلك نرى ان ظاهرة الشك بالامام تكبر وتتسع ويمتحن الامام (ع) بهذا الشك، ويلتحق بالرفيق الاعلى، والامة شاكة، ثم تستسلم الامة بعد استشهاده (ع) لتتحول الامة الى كتلة هامة بين يدي الامام الحسن (ع)، فالامة وصلت الى هذه الحالة (المؤسفة)، بالرغم من ان الشك لم يكن له أى مبرر موضوعي على الاطلاق.. فكيف اذا افترضنا ان ظاهرة الشك وجدت ولها مبررات موضوعية من ناحية الشكل؟!

كيف لو ان المسلمين رأوا امامهم (ع)، الذي هو رمز الاطروحة ورمز لاهداف معينة، تراه يساوم، ويبادر لبيع الامة — ولو مؤقتاً مع (خيار الفسخ) — !! ولكن نسأل من اين تأتى للامة أن تدرك الفرق بين أن يبيع الامام (ع) بلاخيار الفسخ او مع خيار الفسخ ولكن البيع في نظر الامة، مهما تكن طبيعته هو البيع لا يغير من مدلولها النفسي والايحائي شيء!

والامام علي (ع) كانت مهمته الرسالية الكبرى، هي ان يحافظ على وجود الامة دون ان تتنازل الامة الاسلامية عن كيانها وكرامتها ووجودها.

فهذه الامة التي خاطبت يوماً خليفتها عمر بن الخطاب بأنها ستقومه بحد السيف لو انحرَف عما تعرفه من احكام الله وسنة رسوله (ص).. ولكن نفس هذه الامة الشجاعة رأيناها بعد ذلك، تتنازل راضية، عن وجودها وكرامتها، وعملية التنازل هذه كانت ممثلة

برمز معاوية بن أبي سفيان، وجذوره في تاريخ الاسلام، والذي حاول تغيير الاسلام وتوجيهه الى حكم هركلي وكسروى وتحويل الامة عن تجربتها الاسلامية في الحكم، من امة تحمل رسالة اخية، الى ملك وسلطان يحمل هذه الرسالة، وذلك بمستوى وعيه لهذه الرسالة واخلاصه لها سلبا وإيجابا.

هذه المؤامرة الكبيرة التي اثمرت نتائجها الخبيثة على شكل تنازل الامة عن وجودها وكيانها، والتي كانت اساس المآسي والمحن والكوارث، والتي جاءت نتيجة خداع الامة وتزييف وعيها وضميرها والضغط عليها، حتى تنازلت عن وجودها واصالتها في عقد لا يقبل الفسخ.

الامام (ع) ادرك الامة في اللحظات الأخيرة من وجودها المستقل وقد حاول جاهدا في الحفاظ على وجودها المستقل، وحاول ان يشعرها بأنها ليست سلعة تباع وتشتري، وليست شيئا يساوم عليها.

ولكن كيف يتأتى للامام (ع) ان يشعر امته بهذا المعنى، بأنها ليست سلعة تباع وتشتري وفقا لرغبات الحكام اذا كان هو (ع) يبيعها ويشتريها، ولو في عقد مؤقت قابل للفسخ وكيف يمكن له ان يفهم الامة ويشعرها بأنها امة تمثل خلافة الله في الارض، لأجل ان تحقق اهداف هذه الخلافة، وهو يبيع قطاعات من هذه الامة لحكام فجرة من قبيل معاوية بن أبي سفيان، في سبيل ان يسترجع ويكسب هذه القطاعات، ولو بعد حين.

ولا يمكن تفسير عمل الامام (ع) الا انه راض وقابل بمواكبة المؤامرة، التي كانت روح العصر كله انذاك، والتي كان الامام (ع) يقف ضدها ويتصدى لاحباطها، لكي ينقذ الامة من شرورها، ولا يمكن نفترض بأن للامام (ع) ان يساهم في هذه المؤامرة. ولو ان الامام (ع) هادن معاوية، فإن موقفه المساوم هذا يعني امرين:

الاول: منح معاوية فرصة ثمينة، ليحكم قبضته، ويستفيد من الموقف، ويكسب الشرعية، وهذا يعني في ادراك الامام (ع) التفريط في مستقبل الامة، ومستقبل تجربتها الاسلامية ككل

وهذا يعني أن تباع الامة بعقد يقبل الفسخ، لأناس ارادوا أن يبيعوها بعقد لا يقبل الفسخ.

الثاني: تفاقم ظاهرة الشك (المصطنع) وفقدان الثقة بالقائد، وشرط الثقة بالقائد، من الشروط المهمة لحصول التأثير المطلوب في الامة.

وكان الامام (ع) يمثل رمز القيادة الواعية، التي تريد ان تربي الامة على المدى الطويل، فاذا وجدته الامة وهو يساوم عندها ويبيعها لحكام ظلمة، فقدت بالضرورة ثقتها وولاءها به ومن الملاحظ - تاريخيا - في اواخر حياته (ع)، ان روح الشك، قد سرت في بعض قطاعات الامة، (الشك في واقع معركته مع معاوية)، رغم ان عوامل ذلك الشك كانت عوامل تبريرية (ذاتية) للشاك، دون ان يكون لها مبرر موضوعي (خارجي).

فاذا كان الشك قد سرى في هذه القطاعات، مع اتخاذ الامام (ع) كل تلك الضمانات والمواقف الحازمة غير اندهانة، فما ظننا بهذه القطاعات، وهي ترى إمامها يساوم بابقاء الولاة المنحرفين ويطلق ايديهم في حياة الناس، ومن ثم يرجع ليعزلهم بعد ذلك، فان هذا العمل، بلا شك سيكون مبررا موضوعيا كبيرا للشك، مما يفقد الامام (ع) القدرة وامكانية المضي في تطبيق تجربته الكبرى.

ولهذا كان تصميم الامام (ع) على ان يحايه المؤامرة ويفضحها قبل ان تتجذر في واقع الامة، فأعلن الحرب دون هوادة على كل هذه الجور، بعد ان أعلن ان طلبوا منه قبول انصاف الحلول، انه قد قلب هذا الامر، ظهره وبطنه فلم يجد الا القتال او الكفر بما انزل الله على محمد (ص)^(١).

النقطة الرابعة:

لم يركز الامام (ع) في طريقة تعامله مع مشكلة الانحراف، وابتعاد حل لها، بالفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط، وانما كان يحمل طموحا وهدفا اكبر من ذلك، كان يتعامل مع التأريخ أكثر مما كان يتعامل مع فترة حكمه القصيرة.

فقدّم منهجه لتأريخ فحنده التأريخ، كأعظم انسان بعد النبي (ص) واكمل خطاه وسار على منهجه اروع سيرة، فكان اسلاما مجسدا حقا.

الإمام علي(ع)، كان قد وعى مشكلته انذاك ، بأنه قد ادرك المريض، وهو في آخر مرضه، حيث لا ينفع العلاج.

هذه الحقيقة الجلية، دفعت امامنا(ع) ان يفكر بأشواط اطول واوسع لخوض معركته الرسالية، ولم يدر في خلدّه يوماً، ان يركز، على الفترة الزمنية القصيرة من سني حكمه التي عاشها، بكل كان يتلخص ايمانه بأن الاسلام بحاجة الى أن تقدم له في خضم تعقيدات الانحراف أطروحة واضحة نقية لاثباته فيها ولاغموض، ولاالتواء ولا تعقيد، ولا مساومة فيها، ولا انفاق.

هذه الأطروحة، هي التي كانت تحتاجها الامة انذاك لأن الامة الاسلامية، كتب عليها ان تعيش احكم الاسلامي المنحرف، منذ ان نجحت — مؤامرة السقيفة — والاسلام الذي اعطته (السقيفة) للامة، بامتدادها التاريخي الطويل، اسلام مشوه ممسوخ، لا يحفظ الصلة لعاطفية والفكرية بين الامة ككل، وبين اشرف رسالات السماء.

وهذه الامة — والتي هي اشرف أمم الارض (برسالتها) — لا يمكن لها ان تحفظ هذه العلاقة بينها وبين الاسلام على اساس معطيات (اسلام السقيفة)، الذي انتج للامة الاسلامية قادة منحرفين امثال — معاوية بن ابي سفيان، ويزيد، وعبد الملك بن مروان، وهارون الرشيد. ولكي تحفظ هذه الصلة، بين الامة ورسالتها العظيمة، لابد من اعطاء صورة واضحة محدّدة للاسلام، وهذه الصورة اعطيت نظرياً: على مستوى ثقافة اهل البيت(ع) واعطيت عملياً: على مستوى تجربة حكم الامام علي(ع).

وهذا كان الامام(ع) يستغل كل انقراض، ليعمل على تعميق وعي الاسلام في الامة ويربي الطليعة المؤمنة التي تشكل على المدى الطويل، الرابط الحقيقي بين الاسلام والامة، وليضع المنهج الذي يبق في وعي الامة منهاجاً اسلامياً حقاً، وتبقى تقارن بينه وبين منهج اى حكم يأتي من بعده، فتعيدها هذه المقارنة الى صحتها وتبرق في ضميرها بوارق العودة الى الاسلام من جديد.^(١)

ومن هنا جاء تأكيد الامام(ع) على العناوين الأولية في التشريع الاسلامي وعلى

١. راجع للاستفادة/ص: ١٣٣ من حياة اهل البيت/التسخيري

خطوطه الرئيسية، لكي يقوم المنهج الاسلامي واضحا، غير ملوث بلوثة الانحراف التي كتبت على تاريخ الاسلام مدة طويلة من الزمن.

ولكي يحقق الامام (ع) هذا اهدف، كان قدره في طرح هذه التجربة بهذا النوع من الظهر والنقاء والوضوح دون ان يعمل بما اسميناه — بقانون التزاحم — الذي اشرنا اليه آنفا.

وقد استمر الامام (ع) في صموده ومواجهته لكل المؤامرات التي ساهمت في صنعها الامة — المضنة والغافنة — على اساس جهلها، وعدم وعيها وادراكها وشعورها بالدور الحقيقي الذي يمارسه الامام (ع) في سبيل حماية وجودها من الضياع، وحماية كرامتها من ان تتحول الى سلعة تباع وتشترى.

ولهذا كان يحرص الامام (ع) كل الحرص على طرح الصيغة الاسلامية الكاملة للحياة والوقوف على التكليف الواقعي، دون القفز عليه او تجاوزه الى ضرورات استثنائية تفرضها طبيعة الملابسات والظروف المعقدة^(١).

ونخلص الحديث ونقول: ان قبول انصاف الحلول او المساومة في حل قضية الانحراف كانت في الواقع اشتراكا في المؤامرة من قبل الامام (ع)، ولم تكن تعبيرا عن الاعداد لإحباط المؤامرة، لأن المؤامرة لم تكن يوما مؤامرة على شخص او حاكمة الامام علي (ع) بالذات، حتى يقال بأن الامام علي (ع) يهد هذه الحاكمة بشيء من هذه الحلول الوسط، وانما المؤامرة كانت تستهدف وجود الامة الاسلامية وشخصيتها، وان تقول كلمتها في الميدان بكل قوة وجراءة وشجاعة على ان تسخ عن شخصيتها ووجودها وينصب عليها قيم من اعلى يعيش معها عيش الاكاسرة والقياصرة هذه هي المؤامرة بكل خيوطها وهي ماسعت اليه (السقيفة) بالتدريج — بوعي او بغير وعي الى تعميقها وانجاحها في المجتمع الاسلامي.

ولو ان الامام (ع) كان قد مارس قبول انصاف الحلول وباع الامة عن ارادتها — مع خيار الفسخ — اذن لكان بهذا قد اشترك في انحاج هذه المؤامرة وسلخ الامة عن ارادتها وشخصيتها، — وكانت الامة انذاك بحاجة كبيرة لكي تستطيع ان تكون على مستوى

المسؤولية والمقدرة لكي تتخلص من تبعات هذه المؤامرة، فكان لابد لها ان تشعر بكرامتها وارادتها وحريتها واصالتها وهي تعيش الصراع مع الجاهلية، وهذا كله مما لا يتفق مع ممارسة الامام (ع) لأنصاف الحلول.

النقطة الخامسة:

تحدثنا الروايات التاريخية، بما لا مزيد عليه، عن صور واللوان مخزية من الانحرافات والفساد بكل معنى الكلمة فقد كان وضعاً يشهد سباقاً الى اللهو والمجون والفجور.

«ولم يكن ولاية عثمان هؤلاء من ذوى السابقة في الدين والجهاد في الاسلام، وانما كانوا متهمين في دينهم، بل كان فيهم من أمره في الفسق، ورقة الدين معروف مشهور: كان فيهم عبدالله بن سعد الذى بالغ في ايداء النبي (ص) والسخر منه وبالغي اهزاء بالقرآن حتى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممن امرهم في الفسق معروف مشهور، وقد نزل فيه قرآن يعلن فسقه»^(١)

اما سعيد بن العاص الذى خلف الوليد فقد استقبله الكوفيون بالكراهية وعدم الرضا لأنه كان شاباً مترفاً لا يتخرج من الاثم ولا يتورع من الإفك .

روى ابن سعد: أن قال مرة في رمضان — بعد ان ولي المصر — : من رأى منكم لهلالاً؟ فقال له هاشم بن عتبة الصحابي العظيم: «أنا رأيته».

فوجه اليه لاذع القول وقساه قائلاً:

بعينك العواء رأيته؟! فالتاع هاشم واجابه على الفور: تعيرني بعيني وانما فقتت في سبيل الله؟ وكانت عينه اصيبت يوم اليرموك .

واصبح هاشم في داره مفطراً عملاً بقول رسول الله (ص): «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» وفطر الناس لافطاره وبلغ ذلك سعيداً فارسل اليه وضربه وحرق داره»^(٢)

١. عن ثورة الحسين/شمس الدين/ص: ٣٨

٢. عن كتاب حياة الامام الحسن/ص: ٦٦٣

وكذلك عبدالله بن عامر بن كريز، إذ ولي البصرة وهو ابن أربع وعشرين سنة وقد سار سيرة البذخ والترف. وقد قام بعد مقتل عثمان بنهب ما في بيت مال المسلمين في البصرة، وسار إلى مكة وانضم إلى المتمردين على الإمام علي (ع)^(١) وناهيك عن الخديث عن معاوية وترفه.

فإذا كان ولاية لامصار الهامة هم بهذه المنزلة فإذا نتوقع من الجهاز الإداري الأصغر من هؤلاء والذي كان يضح بالترف والفساد.^(٢)

من خلال هذه الحقيقة، نفترض ونقول: لو أن الإمام علي (ع) كان قد أمضى هذه الأجهزة الفاسدة، بكل فسقها وفجورها، فليس من المعقول — بمقتضى طبيعة الأشياء — أن يتمكن الإمام (ع) من ممارسة عملية التغيير الحقيقي في تجربته السياسية التي يتزعم قيادتها. الواقع أن هذا الفهم لموقف الإمام (ع) مرتبط بشكل عضوي، بحقيقة بديهية مطقة تشمل كل المواقف الرسالية والعقائدية المشابهة لموقف الإمام (ع).

والحقيقة هي: أن أي موقف رسالي يستهدف تغييرا جذريا واصلاحا حقيقيا في بيئة أو أي مجتمع من المجتمعات تشمه هذه الحقيقة المطلقة وهي أن كل اصلاح وتغيير، لا يمكن أن ينشأ أو أن ينبثق من خلال الأوضاع والأجهزة الفاسدة نفسها، بل لابد من نفس وإزالة هذه الأوضاع ومؤسساتها المعطلة لمهمة التغيير والاصلاح.

فلو افترضنا أن القائد، المسؤول عن التغيير والاصلاح أقر الأجهزة الفاسدة التي يتوقف التغيير والاصلاح على إزالتها وتعاون معها وامضاها — ولو مؤقتا — بمنطق ما يسمى اليوم « مبدأ الانحاء للعاصفة » أو « خطوة إلى الخلف وخطوتين إلى الإمام »، حتى يكتسب المزيد من القوة والقدرة على أمل الامتداد افقيا وعموديا، في ابعاد تجربته السياسية لحاكمة، وبعدها يعمل على استبدال الركائز الفاسدة بأخرى صالحة.

هذا المنطق — الآنف الذكر — كان لا يتفق (يوم ذاك) مع طبيعة عمل الإمام الاجتماعية وذلك لمنافاته مع طبيعة الأشياء والوضع الاجتماعي والسياسي — آنذاك — وذلك لأن هذا القائد من أين يستمد قوته؟ وكيف تتسع قدرته افقيا وعموديا؟ هل تهبط عليه كل هذه

١. أسد الغابة ج ٣/ص: ١٩٢

٢. راجع للاستفادة من حياة أهل البيت (ع) / لتسخيري/ ص: ١٤٣

القدرات بليلة وضحاها، بمعجزة من السماء؟

الجواب: لا، بل ان القائد، يستمد قوته وقدرته (من اسباب النصر الطبيعية أى من تلك الركائز نفسها، بعد ان تعمق وتنمو هذه القدرات عنده باستمرار، من خلال اجهزته ومؤسساته التي هي قوته التنفيذية، والتي هي واجهته وتعبيره وتخطيطه الى الامة. فاذا افترضنا، ان هذه الاجهزة، كانت هي الاجهزة الفاسدة التي يريد المخطط (الاصلاحي) ازلتها وتبديلها بأجهزة بديلة أخرى.. فليس من المنطقي ان تعتمد المقولة التي نصح بها الامام (ع) والقائلة: «دع هذه الاجهزة معك، تعمل من خلالها، حتى تمتد وتتجذر فيها، وبعد، حاول ان تقضي عليها وتصلحها».

ولكننا نقول، ان هذا التجذر والامتداد الناتج من هذه الاجهزة الفاسدة، لا يمكن القضاء عليه، لأن النتيجة — كما يقول المناطقة — ترتبط بمقدماتها، وركائزها واسسها فهذا التجذر والامتداد، المستمد من ركائز واجهزة فاسدة لا يمكن للقائد المصلح من ان يعود اليها ثانية، فيتمرد عليه، لأن هذا القائد، حتى ولو كان حسن النية، وصادقا في تصوره، وسنك سلوك المفرد المواكب للأجهزة الفاسدة، دون استبدالها وتغييرها، فسيجد نفسه في نهاية الطريق، بأنه عاجز عن مواصلة مهمة التغيير وتحقيق اهدافه المنشودة لأن القائد مهما كان حكمه وسلطانه مهيمنا، لا يتمكن من تغيير مجتمعه، بحجة قلم او اصدار امر (فوق) وانما لا بد لعملية التغيير من اجهزة ومؤسسات تخطط وتنفذ لارادة هذا القائد.

فطبيعة الاشياء، وواقع العمل التغييرى، في أى بيئة او مجتمع، تفرض على أى قائد يبداً العمل هو ان يفكر ببناء زعامته، بصورة منفصلة عن تلك الاجهزة الفاسدة، وهذه الحقيقة هي التي دعت الامام علي (ع) الى يتوقف دون امضاء تخلفات عثمان الادارية والسياسية والاقتصادية.

وهنا يتضح بشكل جلي، لاجمال لأن يطلب من الامام (ع) أن يمضي هذا الجهاز طليقا في حياة الناس، ثم يشرع بعملية التغيير، ويقوم بعد ذلك، بطرد العناصر الفاسدة من اجهزته التنفيذية، فهذا العمل يتنافى مع المنطق السياسي للتأريخ كما يتنافى مع المنطق الرسالي الذى كان فوق كل شيء عند الامام علي (ع).

النقطة السادسة:

ان الامام (ع)، لو كان قد امضى — ولو مؤقتا — الاجهزة الفاسدة التي خلفها عثمان بن عفان، وعلى رأسها، اقضاء حاكمة معاوية بن ابي سفيان، وبتعبير آخر، لوباع الامام (ع) الامة لمعاوية بيعا مرحليا مؤقتا (مع خيار الفسخ)، لحصل (كل مافي الامر) على نقطة قوة — مؤقتة — (وفقا للنصائح التي اسديت للامام في هذا المجال)، ونطقة القوة هنا، هي ان معاوية سوف يبايعه، ومعه اهل الشام.. هذه القوة التي سيكسبها الامام (ع) في حساب عملية التغير، تقابلها نقطة قوة سوف يحصل عليها معاوية، الا وهو اعتراف الامام (ع) بشرعية معاوية في الحكم، وبأن معاوية رجل — على اقل تقدير — سيوصف بانه عامل قدير على تسير مهام الدولة، وحماية مصالح المسلمين ورعاية شؤونهم.

فهناك اذن اعتراف من قبل الامام (ع)، يعطي نقطة قوة لمعاوية، في مقابلها نقطة قوة يأخذها الامام عن طريق الامضاء المؤقت لولاية معاوية، ورضوخه لسلطان الامام الشكلي وتحييده من مخالفته للاسلام والامام، وهذا الامضاء المؤقت سيتيح للامام الفرصة للقضاء على اعدائه بالتدريج وتصفية بؤرهم، وتنقيذ اطروحتة في نهاية الامر.

واذا اردنا ان نقارن بين هاتين النقطتين، فسوف لن ينتهي الباحث الى نتيجة مطمئنة، تؤكد ان نقطة القوة التي يحصل عليها الامام (ع) هي اهم في حساب عملية التغير الاجتماعية التي يمارسها (ع)، من نقطة القوة التي يحصل عليها معاوية وخصوصا — اذا علمنا — ان مهمة تغير الولاة داخل الدولة الاسلامية — وقتئذ — لم تكن عملية سهلة ويسيرة، بالشكل الذي تنصوره في دولة مركزية، سيطرت حكومتها (المركزية) على كل اجزاء الدولة وقطاعاتها..

ولا يفي هذا ان معاوية عندما يبائع او يأخذ البيعة لخليفة في المدينة، أن جيشا في الحكومة المركزية سوف يدخل الشام وان هناك ارتباطا عسكريا حقيقيا سوف يوجد بين الشام وبين الحكومة المركزية وانما يبقى — بعد — أخذ البيعة ايضا — هذا الوالي، همزة الوصل الحقيقية والفعالة بين هذا البلد وبين الحكومة المركزية.

فضعف الحكومة المركزية من ناحية.. وترسخ معاوية وقدم ولايته في الشام من ناحية أخرى، وخصوصا ان الشاميين لم يعرفوا حاكما مسلما قبل معاوية واخيه يزيد، منذ

دشن الشام حياته الإسلامية الاستثنائية، والتي أعطيت له من قبل عمر بن الخطاب، وأعطيت له معها الصلاحيات الاستثنائية، في أن ينشئ له سلطنة ومملكة في الشام، بدعوى أن هذه السلطنة ستكون مظهر عز وجلال للإسلام، في مقابل دولة القياصرة.

هذه الصلاحيات — الاستثنائية — التي أخذها معاوية من عمر، لأجل انشاء مظاهر ملكية مستقلة في الشام، لا تشبه الوضع السياسي في الدولة الإسلامية، ثم الصلاحيات الواسعة التي أخذها بعد ذلك من عثمان بن عفان، بحيث لم يبق طيلة مدة خلافة عثمان أى ارتباط حقيقي بين الشام والمدينة وإنما كان معاوية — كل شيء في الشام — حيث كانت الشام تعيش حالة شبه — انفصالية — في الواقع، وإن لم تكن منفصلة من ناحية الشكل الدستوري للدولة الإسلامية.

ونستنتج مما سبق ذكره، أن هذه الحقيقة تعقد على الامام (ع) موقفه، وتجعل من نقطة القوة التي يحصل عليها — وهي مجرد البيعة، في الأيام الأولى من حكمه — نقطة غير حاسمة.

بينما الامام (ع) إذا أراد — بعد هذا الموقف — أن يعزل معاوية، من ولاية الشام كان باستطاع معاوية، أن يثير في وجه الامام (ع) — بالإضافة الى جانب وجوده المادى المترسخ منذ زمن طويل في الشام — الشبهات على المستوى التشريعي والإسلامي متسانلا امام الناس.

لماذا يعزلي الامام علي؟! وخصوصا بعد أن اعترف بأني حاكم كفؤ صالح لإدارة شؤون المسلمين؟!!

مثل هذه الاسئلة كان بإمكان معاوية أن يلقيها في وجه الامام (ع)، ولم يكن للامام (ع) أى جواب مقنع، يتقدم به امام الرأى العالم الإسلامي. بينما لو بادر الامام (ع) منذ البداية بعزله وتنحيته، على اساس، أنه يؤمن بعدم صلاحيته وبأنه شخص لا تتوفر فيه شروط الحاكم الإسلامي، ولأنه والي منحرف، وهو برئ ولا يتحمل مسؤولية وجود معاوية كحاكم في الفترة السابقة أثناء خلافة عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان لكان جوابه مقنعا امام الرأى العالم الإسلامي!

النقطة السابعة:

وهنا نفترض، ان الامام علي (ع)، لو كان قد امضى حاكمية وولاية معاوية بن ابي سفيان، لبايعه ولنح الامام (ع) نقطة القوة..
 ولكن كل المؤشرات والقرائن التي كانت تكتنف موقف الامام (ع) تنبئ عن انه لم يكن ليبايع الامام (ع) نوابقاه في ولاية الحكم، وكل الملابسات التاريخية كانت لا توجي بصحة هذا الافتراض، القائل بأن امضاء حاكمية معاوية كأسلوب وكمرحلة، يعني ان معاوية سوف يمضي خلافة الامام (ع) ويعطيه البيعة فإن معاوية لم يعص الامام (ع) لأن الأخير عزله عن الولاية وانما كان ذلك — في اكبر انظن — جزءا من مخطط مؤامرة طويلة الأمد (للأموية) الحاقدة على الاسلام. الأموية التي كانت تخطط لنهب مكاسب الاسلام بالتدريج.

«فمعاوية كان عارفا بالمعادلة القائمة حينئذ، ومذكرا ان الفرصة الآن هي اسنح له من اى وقت آخر، وكان يعلم ان الامام اذا هادنه، فانما ذلك ضرورة استثنائية، ولا بد ان الامام سينهي هذه الهدنة عندما يتمكن منه وسيعمل لتصفيته وافناء قواعده، لأنه يعرف الامام جيدا وقد خبره في كثير من المواقف الحاسمة، ويعي مدى نظره واخلاصه.
 وكانت تصريحات معاوية وتصرفاته كلها توجي بأنه لم يكن ليبايع للامام (ع) وكان يطالب بدم عثمان، وقتل قتلته، ويتهم اكثر اصحاب الامام (ع) وقادته بذلك.
 وكان يوهم العامة من الناس، ان المقام الذي يمتلكه انما هو حق طبيعي وكرامة الهية من الله بها عليه.

فهو يقول في خطبة له بحضور مندوب الامام (ع) الذي جاء يأخذ البيعة:
 «غير ان الله اخميد كسانا من الكرامة ثوبا، لن ننزعه طوعا ما جاوب الصدى وسقط الندى وعرف الهدى حلهم على خلافتنا البغي والحسد فالله نستعين عليهم ثم يمضي يقول: «ايها الناس اني خليفة امير المؤمنين عمرين الخطاب واني خليفة عثمان بن عفان عليكم»^(١) «وقتل مظلوما وتعلمون اني وليه»^(٢)

١. صفين/النصرين مزاحم ج ١ ص ٣٢

٢. ن. م. / ص: ٨١

وهو بهذا يهدف ليعلم نفسه خليفة للمسلمين، بعد أن يجعل نفسه امتدادا للخلافة ولم تكن اطماع معاوية في الخلافة لتخفى على احد، ولم يكن الجيش الذى أعدّه وهبائه الا ليحارب من يتولى الخلافة كائنا من كان، لقد كان يفضل بدعوته الى اعادة الأمر شورى بين المسلمين بعد أن يقتص من قتلة عثمان، وكتب للامام (ع) يقول:

«وقد ابى الناس الاقتالك حتى تدفع لهم قتلة عثمان فان فعلت كانت شورى بين المسلمين وانما كان الحجازيون هم الحكماء على الناس والحق فيهم فلما فارقه كان الحكماء على الناس اهل الشام»^(١)

وهكذا قدر للمؤامرة (الاموية) ان تنفذ على مراحل كانت المرحلة الاولى منها، هو ترسيخ وجود الاخوين في الشام يزيد بن ابي سفيان ومن بعده اخيه معاوية ومن ثم استقطاب اهل الشام عن طريق معاوية بتكريس بقائه هذه المدة الطويلة.

لقد كان معاوية يتحين الفرص لمقتل الخليفة عثمان، لأن مقتله سيمكّنه من سلاح غير منظور يستطيع به الدخول الى ميدان الصراع مع الامام (ع)، وعين هذه الحقيقة، تفسر تباطؤه عن نصرة عثمان، بعد ان استنصره واستصرخه، وكتب له مبينا بأنه يعيش لحظات الخطر الأخيرة. ولكن معاوية لم يجبه وكان معاوية — على اقل تقدير — قادرا ان يؤخر هذا المصير المحتوم (بخليفة عثمان) الى مدة اطول، لو انه بادر لنصرته، ولكن معاوية بالعكس كان يخطط لكي يبقى هذا التيار — الثورى — يهدف لسقوط عثمان على يد الثوار المسلمين قتيلا، وبعدها يأتي ويطالب مدعيا بأنه ابن عم الخليفة المقتول وولي دمه^(٢).

ومن المعلوم أن معاوية لم تكن تتاح له هذه الفرصة الثمينة كل يوم، فهي فرصة تلي الآمال والاطماع الاموية التي كان يحلم بها منذ ان دخل الاسلام معترك الحياة، وذلك لكي ينهب مكاسبه ومنجزاته.

هذه الفرصة الذهبية لم يكن من المظنون — ان معاوية سوف يغيرها عن طريق الاكتفاء بولاية الشام، بل ان ولاية الشام كانت مرحلة في تزعم ونهب كل الوجود

١. نقل عن سيرة الأئمة الاثني عشر ج ١/ص: ٤٦٨

٢. صفين/نصر بن مزاحم ج ٨١

الإسلامي واخضاعه لاطماع بني أمية.

وهذا يعني أن تعيين وإبقاء معاوية واليا على الشام، سوف لن يكون على مستوى اطماعه في المرحلة الاولى التي بدأت بمقتل عثمان بن عفان من مراحل المؤامرة الأموية على الإسلام.

نستنتج مما سبق ان فرضية ركون معاوية الى البيعة لو أقره الامام (ع) افتراض غير منطقي لا ينسجم مع طبيعة الأحداث والأشياء.. اما اسلوب المساومة وقبول انصاف الحلول فلم تكن الا اسلوبا من اساليب معاوية لكسب الوقت، واتخاذ جانب المظلوم ورفع شعاره لاغراء الناس به.

ويمكن ان نشير الى كثير من الخسائر التي كان يمكن أن تمنى بها حركة الامام (ع) وذلك بقبوله للمساومات.

نلخصها بالآتي:

١/ امضاء الظلم واتخاذ المضلين عضدا، وامضاء الأطروحة الاموية اللااسلامية.

٢/ اضاعة فرصة التربية القيادية، وذلك عن طريق لعب اوراق انصاف الحلول والمساومات.

٣/ اضاعة الفرصة المؤاتية للقضاء على ألد اعداء الإسلام وذلك بالتفريط بحالة الصحوة الثورية للجماهير الاسلامية. عقيب مقتل عثمان.

٤/ ان المواقف المساومة وانصاف الحلول تؤدي الى غياب وفقدان الرؤية الواضحة للأطروحة الصحيحة التي ينشدها الامام (ع) لأمتة التي ابتليت (باسلام السقيفة) المشوه المسوخ الى غير ذلك من الخسائر والمضار التي اعتبرها الامام (ع) الكفر بعينه. (١)

النقطة الثامنة:

الوضع الذي كان يعيشه الامام (ع) — مع ملاحظة طبيعة الامة في ذلك الوضع لم

يكن ليوحي بالاعتقاد بأن الامام عاجز عن امكان تحقيق النجاح في عملياته التغييرية دون اللجوء الى حل وسط.. لأن المفهوم الفقهي (لقانون التراجع) انما يتحقق فيما اذا كان هناك توقف بالفعل وهو توقف الواجب الأهم على المقدمة المحرمة، فاذا توقف هذا الواجب الأهم، وتأكد انه لا يمكن التوصل اليه الا عن طريق هذه المقدمة المحرمة، ولكن كل الظروف انذاك لم تكن توحى او تؤدى الى اليقين بمثل هذا التوقف.

وذلك لأن المؤامرة التي اضطلع بمسؤولية احباطها الامام (ع) لم تكن قد نجحت بعد بل كانت الامة في يوم قريب سابق عن يوم مصرع عثمان، كانت قد عبرت تعبيراً معاكساً ومضاداً لواقع هذه المؤامرة ولمضمونها.

صحيح ان المؤامرة على وجود الامة واصالتها تمت بجذورها تأريخياً الى امد طويل الى ايام الجاهلية، لكن الامة التي سهر عليها الرسول (ص) لكي يمنحها اصالتها وكرامتها وشخصيتها ووجودها الحضارى، نرى حتى ان الرسول (ص) نفسه الزم نفسه، وقد الزمه ربه في الكتاب الكريم بضرورة التشاور مع المسلمين، وذلك من اجل تربيتهم نفسياً واعدادهم لتحمل مسؤولياتهم واشعارهم بأنهم الامة الجديدة بتحمل مسؤوليات هذه الرسالة العظيمة التي انزلت رحمة للعالمين.

ولكن المؤامرة ومخططيها بدأوا يعملون بالتدريج للقضاء على وجود الامة واصالتها وتحويل وجودها الى سلطنة وملك عضوض، حيث تمت مصادرة الوجود الاسلامي الاصيل للامة، واعطي هذا الوجود للحاكم والسلطان. حيث نشاهد اول بذرة من بذور المؤامرة بذرت يوم السقيفة، واعطيت على شكل مفهوم جاهلي عندما قال قائلهم في اجتماع السقيفة متحدياً «من ينازعنا سلطان محمد».

وهذا هو اول شعار رفعته المؤامرة، يوم قامت السقيفة، والسقيفة وان كانت بمظهرها الخارجى اعترافاً بوجود الامة، وكانت الامة تتشاور في امر تعيينها للخليفة بعد رسول الله (ص).. ولكن المفهوم الذى طرحته السقيفة، ونجح بعد ذلك وامتد بأثره في التأريخ الاسلامي، هذا المفهوم السقيفي، كان يحد ذاته ينكر وجود الامة وينظر الى النبوة على انها سلطان قريش، وهذه العشيرة هي التي يجب ان تحكم وتسود.

هذه النظرية السياسية للحكم التي تحدث وجود الامة وانكرت على الامة اصالتها

وجودها وشخصيتها، طرحت كمفهوم في اجتماع السقيفة، ثم امتدت بعدها واتسعت عمليا ونظريا في التاريخ الاسلامي.

فقد كان الخليفة عمر بن الخطاب، يعمق هذا المفهوم في وسط الامة، وذلك عندما سمع يوما وهو يمر على جمع من المسلمين، وهم يتحلقون حلقا حلقا، يتحدثون في مستقبل الحكم بعد حياته، ويتساءلون من الذي يحكم المسلمين بعده؟.. فالمسلمون في مطلعهم هذا كانوا يحملون هم التجربة، وهم المجتمع والامة، فهم يبحثون عن مستقبلهم بعد موت الخليفة عمر.. وهذا اللون من التفكير، هو تعبير واضح عن حضور الامة في الساحة السياسية.. ولكن الخليفة عمر اظهر انزعاجه وقلقه من هذا الحضور، لأنه يعرف ان وجود الامة في الميدان معناه وجود علي (ع)، وجود خط المعارضة في الساحة، وكلما نمت الامة وتأصل وجودها واكتسبت ارادتها ووعيا بدرجة اعظم، كلما كان علي (ع) المرشح الأقدر والاكفأ لممارسة التجربة السياسية.

ولهذا نرى الخليفة عمر يصعد المنبر ويخاطب المسلمين بقوله:

«مالي اسمع قوما يقولون: من يحكم بعد امير المؤمنين؟ ألا ان بيعة ابي بكر كانت فلتة وفي الله المسلمين شرها».

والخليفة عمر أراد بقوله هذا ان يقول، بأن المسلمين لا يجوز ان يعودوا مرة أخرى، الى التفكير المستقل في انتخاب (خليفة) وانما الخليفة يجب ان يعين من اعلى ولكنه لم يجرأ في الافصاح عن رغبته، ولكن في داخله وقرارة نفسه كان يرى ان الامة يجب ان ترجع اليه وهو يعين لها الحاكم (الخلف)، دون ان يسمح للأمة ان تفكر في تعيين حاكمها، كما فكرت مثلا عقيب وفاة رسول الله (ص) لأن ذلك كان فلتة وشر.. والامة يجب ان لا تعود او تكرر اخطأها مرة أخرى.

إذا ما هو البديل الذي كان يراه عمر؟

هذا البديل لم يبرزه عمر في زمانه، بل اسر في نفسه، ولكنه عبر عن هذا البديل بكل صراحة، حينما اغتيل، وحينما طلب منه حاشيته المتعلقون، ان يوصي بعده، والا يهمل أمة محمد (ص) بدون تعيين، وقد قال عمر حين طلب منه الناس الاستخلاف:

«لو ادركني احد رجلين لجعلت هذا الأمر اليه، لو ثقته به، سالم مولى ابي

حذيفة، وإبي عبيدة الجراح، ولو كان حيا ما جعلتها شورى^(١)؟

وواضح من هذا النص «أن الخليفة لم يكن يفكر بعقلية نظام الشورى، وأنه كان يرى من حقه تعيين الخليفة وأن هذا التعيين يفرض على المسلمين الطاعة، ولهذا يأمرهم بالسمع والطاعة، فليس هو مجرد ترشيح أو تنبيه، بل هو الزام ونصب». ولذا نرى أن عمر، يسند الأمر إلى ستة أشخاص ويوكل أمر التعيين إلى الستة أنفسهم دون أن يجعل لسائر المسلمين أى دور حقيقي في الانتخاب.

والخليفة عمر بعمله هذا كان متحفظا، لأنه لم يعين واحدا بعينه، وإنما وضعها في ستة انفار، وكأنه يريد أن يوحي للأمة، بأنه قد منحها درجة من المشاركة في اختيار خليفته، وتعيين واحد من هؤلاء المرشحين للخلافة. وهكذا نرى أن الخليفة عمر، أراد أن يمرر (رغبته) على الأمة بالتدريج وعلى مراحل متدرجة.

أما عبدالرحمن بن عوف، فقد كان قطب الرّحى في هؤلاء الستة، لم يستطيع، هو الآخر، في تلك المرحلة أن يطفئ دور الأمة، لم يستطيع أن يحل المشكلة عن طريق التفاوض فيما بين هؤلاء الستة في اجتماع مغلق، وإنما ذهب يستشير المسلمين، بمرشحهم المفضل — من هؤلاء الستة — وراح يسألهم، من تريدون من هؤلاء الستة؟ ويقول ابن عوف معقبا على نتائج استبياناه للأمة بقوله:

«ما سألت عربيا، إلا وكان علي بن أبي طالب مرشحه، إلا عشيرة واحدة كانت تريد عثمان بن عفان، لأنها كانت تعلم بأن مجيئه إلى الخلافة معناه تكريسا لعملية النهب، وتطمينا لمصالحها الذاتية»

وحينما جاء عثمان إلى الحكم، بمساعدة — اللعبة المعروفة التي أجاد إخراجها ابن عوف في استبعاد مرشح الجماهير الإمام علي (ع) — تكشفت المؤامرة، وأسفرت عن وجهها الكالح، أكثر فأكثر حتى أصبحت العشيرة هي التي تحكم، تبعثر الأموال، وتعطل الحدود، وتجمد الأحكام، وتتلاعب بمقدرات الناس، حتى أصبح الفتي والسود بستانا لقريش،

والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني امية.

وصار المسلمون لأول مرة، يسمعون ادعاءات بطانة الحكم العثماني، متحدثين مشاعر المسلمين «بأن المال مالنا، والخزاج خراجنا، والارض هي ملكنا ان شئنا اعطينا وان شئنا حرمننا الآخرين».

هذه الادعاءات كانت تقال خارج نطاق، دستور الدولة.. اما في نطاق الدستور، كانت لا تزال الصيغة الاسلامية الصيغة المعتمدة التي تنص على:

«ان المال مال الله، والناس سواسية والمسلمون كلهم عبيد الله لافرق بين قرشيم، وعربيم، واعجميم، او بين مسلم وآخر».

هذه الصيغة الدستورية، استمرت حتى في عهد عثمان... ولكن ولاته الامويين بتغطرسهم وعجرفتهم وتهورهم، كانوا يترجمون الواقع السيء، وينطقون به والواقع هو غير الدستور المكتوب، الذي يعترف نظريا بأن الامة، هي صاحبة الرأي وسيدة الموقف وان ارض السواد هي ملك لها..

هكذا كان الأمر.. وهذا يعني ان عناصر المؤامرة المخطط لها لم تستكمل شروط نجاحها بعد، بالرغم من كل هذه المقدمات والارهاصات، النظرية والعملية.

فالأمة كانت بخير، تحتفظ باصالتها ووجودها، هذه الامة كانت تأتي الى خليفتها عثمان بن عفان وتقول له: «لانريد هذا الوالي، لأنه منحرف لا يطبق كتاب الله وسنة نبيه (ص).. ولم يكن يستطيع عثمان ان يجيب الأمة بصراحة، او ان يمنعها من هذا الطلب او ان يتحداها في ارادتها الصلبة، او ان يرد عليهم بأنه ليس لكم هذا.. انا الخليفة وانا الحاكم المطلق وهذا الوالي يمثلني شخصيا.. لم يستطع ان يقول كل هذا، بل كان يضطر الى الاعتذار، ويقبل ويرجع ويناور مع الأمة.. نفس هذه الامة عندما احست بتفاقم الخطر على وجودها وكرامتها، عبرت تعبيرا ثوريا عن وجودها وكرامتها، فقتلت خليفتها، لتتجه بعد مقتله الى الامام علي (ع) الذي رأته فيه رمزا ثوريا، يعبر عن جديد عن وجودها وكرامتها المستباحتين.. استنجدت بالامام (ع) لكي يقضي على كل انحراف خرج به الحكماء عن الدستور وعن الصيغة الاسلامية التي جاء بها القرآن للحياة.

فن هنا كانت القضية لا تزال في بدايتها، تحتاج الى الكثير لتبيح ارادتها،

فالامة — ولو بحسب مظهرها على اقل تقدير — كانت تحتفظ بروحها (القرآنية) روح صدر الاسلام، التي اندفعت بها لتقتل خليفتها (المنحرف) في سبيل ان تحتفظ بوجودها وكرامتها، وقد اتجهت صوب أملها الامام علي(ع)، لأنها كانت ترى فيه الشخص الوحيد الذى يؤمل فيه ان يصني عملية الانحراف عن كتاب الله وسنة نبيه(ص).

فالظروف والملابسات التي احاطت بالامة انذاك ، لم تكن لتؤدى الى يأس، بل كانت تؤدى الى أمل بقهر الانحراف.

وما حدث من خلال سني حكم الامام(ع) الاربعة، كان يؤكد هذا الأمل، فالامام(ع) استطاع ان يسيطر على المواقف بسهولة، ولولا مسألة التحكيم ولولا شعارا — ميكافيليا — طرح من قبل معاوية (رفع المصحف) ينعكس بشكل خاطئ لدى جماعة معينة من جيش الامام(ع) وتشق صفوفه.. ولولا هذا لكان بينه وبين معاوية وتصفيته الى الأبد بضعة امتار وقليل من الزمن!

وبعد ان ادركنا كل هذه الحقائق، نرى ان امل الامة واعتقادها في ان عليا(ع) يمكنه ان يحقق الهدف ويعيد للأمة وجودها وكرامتها، من دون حاجة الى المساومات وانصاف الحلول، يكون امل الامة هذا املا معقولا وراجحا.. ومن هنا كانت نظرية الامام(ع) بأنه لم يكن هناك أى مجوز يقوده لمزالتق المساومات وانصاف الحلول..

وهكذا كان(ع) وظل امامنا العظيم صامدا مواجهها لكل المؤامرات التي كانت الامة المفضلة تساهم في صنعها وحياتها على اساس جهلها وعدم وعيها وشعورها بالدور الحقيقي الذى يمارسه الامام(ع) في سبيل حماية وجودها من الضياع وحفظ كرامتها من ان تتحول الى سلعة يساوم عليها بالبيع والشراء، حتى خرّصريعا في مسجده، وخاب باستشهاده الأمل الذى اعتمد في نفوس الواعين.. وانتهى آخر امل حقيقي في قهر الانحراف وقدر للمؤامرة ان تنضج وأن تؤتي مفعولها في التاريخ الاسلامي.

وان نجاح المؤامرة في فهم الامام علي(ع) لم يكن يعني القاء السلاح، بل يتحدث الى ولديه ليقول لهما: نعم يالودتي لقد نجحت المؤامرة باغتيالتي، ولهذا سوف تشردون وتقتلون انتم وشيعتكم.. ولكن هذا يجب ان لايفت في عضدكم، لأن المعركة لم تنته بعد يجب ان تقاوم حتى تقتل مسموما، ويجب ان يقاوم اخوك الحسين حتى يقتل بالسيف، ولا بد ان يستمر

الخط، حتى بعد ان سرق من الامة وجودها، لأن محاولة استرجاع الوجود اذا بقيت حية في ذهان الامة فسوف يبقى نفس الجهاد فيها، ويبقى هناك ما يحصن الامة ضد التميع وفقدان الارادة.. لأن الأمة حينما تتنازل عن ادراتها وشخصيتها للطاغوت حينئذ تكون عرضة للتميع والذوبان في اتون هذا الطاغية وذلك الجبار... ولكن اذا بقي لدى الامة محاولة استرجاع هذا الوجود باستمرار، فهناك أمل في ان تتمكن الامة من استرجاع وجودها، وعلى اقل تقدير، سوف تحقق هذه المحاولة كسبا أنيا باستمرار، وهو تحصين الامة ضد التميع والذوبان المطلق في ارادة واطار الحاكم الطاغية.. وهذا ما وقع لأهل البيت (ع).

«وفي نصف القرن الاول بعد وفاة النبي (ص) كانت القيادة الشعبية — بعد اقصائها عن الحكم — تحاول باستمرار استرجاع الحكم بالطرق التي تؤمن بها، لأنها كانت تؤمن بوجود قواعد شعبية واعية أو في طريق التوعية من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان ولكن بعد نصف قرن — وبعد ان لم يبق من هذه القواعد الشعبية الشيء المذكور ونشأت اجيال مائعة في ظل الانحراف — لم يعد تسلم الحركة الشعبية بقيادة اهل البيت (ع) للسلطة محققا للهدف الكبير لعدم وجود القواعد الشعبية المساندة بوعي وتضحية، وأمام هذا الواقع كان لابد من عمليتين:

احدهما: العمل من اجل بناء هذه القواعد الشعبية الواعية التي تهيأ أرضية صالحة لتسلم السلطة.

والآخر: تحويل ضمير الامة الاسلامية وارادتها، والاحتفاظ بالضمير الاسلامي والارادة الاسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين.

والعمل الاول، هو الذي مارسه الأئمة (ع) بأنفسهم والعمل الثاني، هو الذي مارسه ناثرون علويون، كانوا يحاولون بتضحياتهم الباسلة أن يحافظوا على الضمير الاسلامي والارادة الاسلامية، وكان الأئمة (ع) يستندون المخلصين منهم..»^(١)

شهادة الامام علي (ع) في الميزان:

وباستشهادة الامام (ع) قضت قوى الردة على آخر أمل في إعادة خط التجربة الصحيحة، ذلك الأمل الذي اختلج في نفوس المسلمين الواعين متجسدا بامامهم العظيم (ع)، الذي عاش منذ اللحظة الاولى من تسلمه لزام الخلافة هموم الدعوة وآلامها وشارك في بنائها لبنة لبنة، وأقام صرحها مع الرسول (ص)، ورافقه معه كل مراحل الدعوة بكل مشاكلها وهمومها وآلامها.

ولهذا كانت حادثة اغتياله الغادر، تقويضاً حقيقياً لآخر أمل حقيقي لقيام مجتمع اسلامي صحيح.

فقد خرّ الامام (ع) صريعاً مضرجاً بدماء الشهادة الطاهرة وهو في محراب الصلاة، فقال: فزت ورب الكعبة!

لنضع علياً في الميزان وهو في آخر لحظة من لحظات حياته (ع) حينما صرخ: فزت ورب الكعبة.. هل كان (ع) اسعد انسان او كان اتعس انسان؟

لكي نجيب على هذا السؤال، هناك مقياسان في هذا المجال، فتارة نقيس الامام (ع) بمقياس مادي (دنيوي) صرف وآخر نقيس الامام بمقياس — قرآني — الهي.

فلو كان الامام (ع) قد عمل للعالم الدنيوي ولزعامته الدنيوية، فهو ولاشك اتعس انسان، وليس هناك اتعس حظاً منه، لأنه (ع) بنى كل ما بنى، وأقام كل ما أقام من صرح، حيث شارك رسول الله (ص) في بنائها لبنة لبنة، ورافقه في كل مراحل الدعوة للاسلام، ثم يجرم (ع) من كل هذا الجهد والبناء، ومن كل هذه الصروح؟. هذا الاسلام الشامخ العظيم الذي امتد شرقاً وغرباً بني بدم علي (ع) وبخفقات قلبه وآلامه، لقد كان (ع) شريك البناء بكل محنه وكوارثه ومآسيه..

أتى لحظة محزنة وجدت بتاريخ هذا البناء، لم يكن علي (ع) حاضراً، فيها وهو القائد الشجاع الذي تتجه اليه انظار المسلمين جميعاً، من اجل ان ينفذ عملية البناء، ولم لا؟ وهو الامام الحق الذي خبرته الجماهير في تضحياته من اجل الاسلام، حيث لم يتردد ان يضع دمه على كفه في كل غزوة ومعركة، وكل تصعيد جديد لهذا العمل الاسلامي العظيم.

وقد كان لجهاد علي (ع) الأثر الكبير لقيام دولة مترامية الأطراف، حيث اتسعت

دولة الاسلام بسيفه وأرسيّت دعائها بدمه الطاهر الشريف .

ولكن ماذا استفاد علي (ع) من كل هذه الجهود والتضحيات المضيئة، بمقاييس (الدنيا)؟ ماذا حصل امامنا من كل هذه التضحيات والبطولات، غير الحرمان والاقصاء عن حقه الطبيعي — واذا اردنا ان نقطع النظر عن تعيين الله تعالى له وحيث النصوص المتدفقة في امامته، فإن حقه الطبيعي، ان يحكم بعد موت النبي (ص) لأنه الشخص الثاني عطاء للدعوة وتضحية في سبيلها.. ولكنه اقصى من حقه الطبيعي والشرعي (بمؤامرة السقيفة) وقاسى الوان الحرمان، وانكرت عليه كل امتيازاته، حتى أن معاوية بن ابي سفيان يقول محدثاً محمد بن ابي بكر عن علي (ع):

«بأنه كالنجم في السماء ايام رسول الله (ص) ولكن اباك والفاروق ابتزا حقه وأخذوا امره، وبعد هذا نحن شعرنا أن بامكاننا ان ندخل في ميدان المساومة مع هذا الرجل»

فعلي (ع) حينما واجهه عبدالرحمن بن ملجم بتلك الضربة القاتلة على رأسه كان ماضيه ماضي حرمان وألم وخسارة لم يكن قد حصل على شيء منه... ولكن الذين حصلوا على المكاسب هم اولئك الذين لم يساهوا في بنائه (كمعاوية مثلاً) والذين كانوا على استعداد دائم للتنازل عن مستوى هذا البناء في اية لحظة من اللحظات.. اما علي (ع) فلم يفكر أن ينهزم لحظة او ان يتلصق في اى آن، ولم يتلصق في قول او عمل. ولكنه يحرم من هذا البناء ولم يحصل على اى مكسب منه.

ما تعس امامنا بمقاييس (الدنيا) فهو الذى بنى وغير الدنيا بعمله، ثم يمنع من ثمار هذا التغيير!

هذا هو ماضي الامام (ع).. فاذا عن مستقبله؟ لننظر الى المستقبل الذى كان (ع) ينظره بعين الغيب، كان يرى ان عدوه اللدود سوف يطأ منبره ومسجده وينتهك كل اخرامات والكرامات التي ضحى وجاهد في سبيلها.. كان يرى عدوه يستقل هذه المنابر التي شيدت بجهاده ودمه، يستغلها في لعنه وسبه عشرات السنين، وهو القائل (ع) لبعض خواصه من الصحابة:

«انه سوف يعرض عليكم سبي ولعني والبراءة مني، اما السب فسبوني، واما

«البراءة مني فلا تبرؤوا»

كان الامام (ع) يرنو بعين الغيب الى المستقبل، ولم يكن يرى في افق المستقبل نوعاً من التكذيب، يتدرك به هذا الحرمان.. وبالرغم من هذا كله، كان يهتف فرحاً لحظة استشهاده: فزت ورب الكعبة، وقد ادرك انها اللحظة الاخيرة من حياته، وأنه انتهى خط جهاده وهو في قمة هذا الجهاد، وانتهى خط محنته وهو في قمة صلاته وعبادته بين يدي الله، قال: فزت ورب الكعبة، لأنه لم يكن انسان الدنيا.. ولو كان كذلك، لكان اتعن انسان على الاطلاق، لكان قلبه يتفجر ويتمزق ألماً وحسرة.. ولو كان انسان الدنيا، لندم ندماً لا ينفع معه شيء لأنه بنى صرحاً شاهقاً، ثم انقلب عليه ليحطمه.

ومع كل هذا هتف «فزت ورب الكعبة».. لأنه كان اسعد انسان، ولم يكن اشقى انسان، لأنه عاش من اجل اهداف نبيلة ولم يكن يعيش للدنيا الفانية، عاش لاهدافه ولم يعيش لمكاسبه، ولم يتردد لحظة وهو في قمة هذه المآسي والمحن في صحة ماضيه وحاضره وانه ادى دوره الذي كان يجب عليه.

وهنا تكمن العبرة.. لاننا يجب ان نستشعر دائماً ان السعادة والفوز في عمل العامل لا تتبع من المكاسب التي تعود نتائجها لهذا العمل.. لا يمكن تقييم سعادة العامل على هذا الاساس، لاننا نقيمناه على هذا الاساس، فقد يكون حظنا كحظ هذا الامام المسكين الذي بنى صرح الاسلام ووجه امة، ثم بعد هذا انقلبت عليه هذه الامة لتعنه على المنابر ألف شهر!

وعليه لا يمكن ان نجعل مقياس سعادة العامل في عمله، المكاسب والفوائد العاجلة التي تنجم عن هذا العمل وانما المقياس الحقيقي لتقييم العمل هو، رضى الله سبحانه وتعالى. وحينئذ سوف نكون سعداء، سواء أثر عملنا او لم يؤثر، وسواء قدر اناس عملنا ام لم يقدروا، وسواء ان رمونا باللعن والحجارة.. نحن سعداء لاننا ادينا الواجب وتلك هي السعادة الحقيقية.

هنيئاً لك ايها الامام المعلم العظيم، وسلام عليك يوم ولدت ويوم تبعث حياً.

القسم الثالث
دور الإمام الحسن «ع»

تعريف بشخصية الامام ونشأته:

هو الحسن بن علي بن ابي طالب.

ولد في اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك للسنة الثالثة للهجرة، بالمدينة المنورة، عاش سبع واربعون سنة، وتوفي في السابع من شهر صفر، وعلى رواية أخرى الخامس والعشرين من ربيع الاول، من السنة التاسعة والاربعين للهجرة، وقيل: الحسين للهجرة متأثرا بالسم الذي دسسته له زوجته — جعدة بنت الاشعث بأمر من معاوية، دفن في المدينة المنورة.

امه: فاطمة الزهراء (ع) بنت الرسول (ص)

وقد عاصر الامام الحسن (ع) جده الرسول (ص) سبع سنين وهي السنين الاولى من حياته، وانتقل بعدها لأبيه علي (ع).

وكان جده النبي (ص) يؤكد على الناس في كل مناسبة أن يحفظوه فيه، وفي اخيه

الحسين (ع)، ويقول مشيرا اليهما:

«هذان امامان قاما او قعدا اللهم اني احبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما»^(١)

١. سيرة الائمة الاثني عشر/ القسم الاول/ هاشم معروف الحسني، ص: ٥٢٧، ٥١١.

مكانته (ع) من خلال الكتاب والسنة:

١ - الكتاب: آية المودة «قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى» الشورى

٢٣، اجمع المفسرون، ان الآية نزلت في علي، وفاطمة، والحسن، والحسين (ع) (١)

٢ - السنة

آ - روى البخارى ومسلم عن البراء قال: رأيت رسول الله (ص) والحسن علي عاتقه وهو يقول «اللهم اني أحبه فأحبه»

ب - روى الترمذى عن ابن عباس انه قال: كان رسول الله (ص) حاملا الحسن (ع)، فقال رجل نعم المركب ركبت يا غلام، فقال (ص): نعم المركب هو وقال فيه «ان هذا ريحانتي».

ج - عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله (ص) «من مره ان ينظر الى سيد شباب اهل الجنة، فلينظر الى الحسن بن علي».

وقال: حسن مني وانا منه، أحب الله من احبه «والحسن (ع) هو سيد شباب اهل الجنة باجماع المحدثين، وأحد اثنين انحصرت بهما ذرية رسول الله (ص) وأحد الاربعة الذين باهى بهم رسول الله نصارى نجران، ومن اصحاب الطهر «الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا». ومن القربى الذين امر الله عودتهم وجعلها اجرا لرسالته «قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى». وأحد الثقلين الذين من تمسك بهما نجا ومن تخلف عنها ضل وغوى، ومن اهل البيت الذين شبههم الله بسفينة نوح.

وقال فيه الرسول (ص) وفي اخيه الحسين عشرات المرات:

«هذا ريحنتاى من الدنيا من احبني فليحبها ومن ابغضها أبغضني، ومن ابغضني أبغضه الله وأدخله النار، وانها سيدا شباب اهل الجنة، وأن أبهما خير منهما» (٣)

١. ذخائر العقبى/ الطبري، ص: ٢٥، ومسنند احمد بن حنبل وتفسير الثعلبي وتفسير الطبرسي

٢. وراجع آية التطهير وآية الباهلة ص ٦٧-٦٨ من هذا الكتاب

٣. راجع سيرة الائمة الاثني عشر/ الحسيني/ ص: ٥١٤

د - وعن الغزالي في الاحياء جاء أن النبي (ص) قال للحسن: أشبهت خلقي وخلقى (١)

شخصية الامام الاخلاقية:

تروى كتب السيرة: انه (ع) مرّ على جماعة من الفقراء قد وضعوا على وجه الارض كسيرات من الخبز كانوا قد التقطوها من الطريق وهم يأكلون منها فدعوه لمشاركتهم في أكلها فأجاب دعوتهم قائلاً:

«ان الله لا يحب المتكبرين»، ولما فرغ من مشاركتهم دعاهم لضيافته، فأجزل عليهم المال، وأطعمهم وكساهم.

وروى أنّه (ع) مرّ على صبية يتناولون طعاماً فدعوه لمشاركتهم فأجاب الدعوة ثم دعاهم الى داره واجزل لهم العطاء.

اخلاقه مع معارضيه:

روى أن شامياً ممن غدّوا بالحقّد على آل البيت (ع) رأى الامام راكباً، فجعل يلعنه واحسن لا يرد عليه، فلما فرغ الرجل اقبل عليه الحسن ضاحكاً، وقال: «ايها الشيخ اظنك غريباً ولعلك شبهت، فلو استعبتنا أعتبنك، ولو سألتنا اعطيناك، ولو استرشدتنا ارشدناك وان كنت جائعاً اشبعناك، وان كنت محتاجاً اغنيّاك، وأن كنت طريداً آويناك .. الخ» فلما سمع الرجل كلامه بكى ثم قال:

«اشهد انك خليفة الله في ارضه، الله اعلم حيث يجعل رسالته كنت انت وابوك أبغض خلق الله إلّى، والآن انت وابوك احب خلق الله إلّى». (٢)

سخاؤه:

سئل مرة (ع): لأى شىء لانراك ترد سائلاً؟ قال (ع):

١. الفصول المهمة/ابن الصباغ المالكي واعلام الورى/للطبرسي.

٢. سيرة الائمة/الحسنى/ص: ٥١٨

«انني لله سائل وفيه راغب وانا استحي ان اكون سائلا وأرد سائلا وان الله عودني عادة أن يفيض نعمة عليّ، وعودته أن افيض نعمة على الناس، فأخشى أن قطعت العادة أن يمنني العادة»^(١)

الحسن (ع) في عهد الخلفاء:

لم يحدثنا التاريخ بشيء، عن حياة الامام (ع) في عهد الخليفة ابي بكر، لأنه لم يتجاوز سن الطفولة، فقد كان في سن العاشرة من عمره يوم توفي ابو بكر.

واما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وبعد بلوغه العشرين من عمره، وهو سن يخوله الاشتراك في الحروب والغزوات، انضم (ع) الى جنود المسلمين الذين اتجهوا الى افريقيا بقيادة عبدالله بن نافع وأخيه عقبة^(٢) في جيش بلغ عشرة آلاف مجاهد، وتطلع المسلمون الى النصر والفتح متفائلين بوجود حفيد الرسول وحبيبه يجاهد معهم.

«وجاء في الفتوحات الاسلامية، وغيرها من المصادر، أن سعيد بن العاص غزا طبرستان سنة ثلاثين من الهجرة، وكان الأصهد قد صالح سويد بن مقرن، على مال بذله في عهد عمر بن الخطاب، وفي عهد عثمان بن عفان، جهز اليهم جيشا بقيادة سعيد بن العاص كان فيه الحسن والحسين وعبدالله بن العباس وغيرهم من المهاجرين والانصار وتم لهم الاستيلاء على تلك المناطق والتغلب عليها»^(٣)

وهناك العديد من المرويات التي تؤكد بأن الحسن والحسين قد اشتركوا في كثير من الفتوحات الاسلامية، وكان لها دور بارز في سير تلك المعارك .

اما في عهد ابيه، فقد اشترك في جميع حروبه في البصرة وصفين والنهروان، مقاتلا الناكثين والقاسطين والمارقين. ولكن اباه كان شديد الحرص عليه وعلى اخيه الحسين فلم يسمح لهما بمواصلة القتال، مخافة ان يصيبها سوء فتقطع بقتلها ذرية رسول الله (ص)، وكان يقول (ع) عنها:

١. اهل البيت/توفيق ابو علم

٢. كتاب العبر/ابن خلدون نقلا عن سيرة الائمة/الحسن ص: ٥٣٥

٣. تاريخ الامم والملوك/ج ٥/ص: ٥٧، والمجلد (١) من الفتوحات الاسلامية/ص: ١٧٥

«انها عيناي، ومحمد بن الحنفية ساعدى ويدي والمرء يدفع عن عينيه بيديه وساعديه»^(١).

وقد تميز دور الامام (ع) في عهد ابيه بالخضوع التام لايه قدوة واماما مفترض الطاعة، وتحلى دوره في تجسيد مفهوم الانقياد لامامة ابيه (ع) فعندما تعرض معسكر الامام علي (ع) الى العدوان بتمرد طلحة والزبير في البصرة وحركة المنشقين البغاة بقيادة معاوية في الشام، نرى ان الامام (ع) يرسل على الفور نجلة الحسن (ع) برفقة عمار بن ياسر الى الكوفة وذلك بسبب تحاذل ابي موسى الأشعري، وتحريضه جماهير الكوفة على القعود عن نصره الامام علي (ع)، وما ان وصل الحسن (ع) الكوفة، الا واحتشدت عليه الجماهير معلنة ولاءها ونصرتها فألقى فيهم خطابا أيقظ فيهم الهمم وحفز نفوسهم على مواصلة حل راية الجهاد^(٢).

وكذلك انتدب الامام الحسن من قبل ابيه بعد مهزلة التحكيم التي انتهت بخذلان ابي موسى الأشعري للامام علي (ع) حيث سار الاضطراب في معسكر الامام (ع) فقرر الامام علي ان يشرح للقوم حقيقة الموقف، وقد اسند مهمة ذلك للحسن فقام (ع) خطيبا ليبين حقيقة الموقف:

«ايها الناس قد اكثرتم في هذين الرجلين (عبد الله بن القيس) و (ابو موسى الاشعري)، وعمر بن العاص، انما بعثا ليحكما بالكتاب على الهدى، فحكما بالهوى على الكتاب، ومن كان هكذا لم يسم ولكنه محكوم عليه، وقد اخطأ (الاشعري) اذ جعلها لعبد الله بن عمر، فأخطأ في ثلاث خصال: واحدة، انه خالف اباة اذ لم يرضه لها، ولا جعله في اهل الشورى، وأخرى انه لم يستأمره في نفسه وثالثها: انه لم يجتمع عليه المهاجرون والانصار الذين يعتقدون الامارة و يحكمون بها على الناس، وأما الحكومة فقد حكم النبي (ص) سعد بن معاذ فحكم بما يرضى الله به ولا شك لو خالف لم يرضه رسول الله (ص)^(٣)

١. شرح نهج البلاغة/ج ٣ ص: ٩ نقل عن الحسيني/ج ١ ص: ٢٨٣

٢. حياة الامام الحسن/القرشي ج ١/ص: ٣٨٧

٣. حياة الامام الحسن/القرشي/ص: ٤٧٩

لقد اشترك الامام الحسن مع ابيه في حياته السياسية والعسكرية وكان بجانبه في كل حروبه وكان له دور حاسم فيها، حيث خاض تلك المعارك واتخذ تلك الفتن مجردا من كل دافع سوى دافع الحرص على نقاء الاسلام.

الامام الحسن بعد استشهاد ابيه:

قبل استشهاد الامام علي(ع)، وفي ايام جرحه اوصى الامام الراحل الى وئده الحسن(ع): قائلا له:

يا بني انه أمرني رسول الله(ص) أن اوصي اليك وأدفع اليك كتيبي وسلاحتي، كما اوصى الىّ ودفع الىّ كتبه وسلاحه وأمرني أن آمرك اذا حضرك الموت أن تدفعها الى اخيك الحسين.. الخ»^(١)

وبعد ان امرالحسن(ع) بقتل «ابن مبرج» وبعد الفراغ من امره، والانهاء من مراسم دفن لامام الراحل (ع) .. اتجه الامام الحسن (ع) في صبيحة ذلك اليوم الى مسجد الكوفة، وقد سبقته الجماهير في حشود هائلة الى الجامع، وهي تعيش صدمة هول المصاب، باستشهاد قائدها وامامها الامام علي(ع) وقد غمص بهم الجامع على سعتة فوقف الحسن(ع) خطيبا، وحوله من يقي من وجوه المهاجرين والانصار، وهو يوجه أول بيان له بعد رحيل القائد العظيم(ع) مؤبنا اباه ومعرفا بنفسه للجماهير قائلا:

«لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولم يدركه الاخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله(ص) فيقيه بنفسه وابنا وجهه رسول الله كان جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه».

ثم تمثل له ابوه وماعاناه في حياته من الآلام والمتاعب، ليتوقف عن الاسترسال بخطبته حتى يكي ويكي معه الناس.

ثم استأنف بيانه معرفا بنفسه وطارحا مواصفات القائد الراحل كما طرح مؤهلاته هو ومكانته في دنيا الاسلام والمسلمين وكونه الأولى بقيادة المسلمين، قائلا:

١. اعلام انوري/الطبرسي ص: ٢٠٦، وكشف الغمة في معرفة الائمة ج ٢/ص: ١٥٥ والبحار ج ٤٢/ص: ٢٥٠.

«ايها الناس من عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي وانا ابن النبي والوصي وانا ابن البشير النذير والداعي الى الله باذنه وانا ابن السراج المنير، وانا من اهل البيت الذين كان جبريل ينزل الينا ويصعد من عندنا، وانا من اهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، واقتصر مودتهم على كل مسلم»^(١).

وبعد الفراغ من قراءة بيانه نهض ابن عباس يطلب من الناس البيعة للحسن (ع) بقوله «معاشر الناس، هذا ابن نبيكم ووصي امامكم فبايعوه»

وقد تمت البيعة للحسن (ع) خليفة وامير المؤمنين في الكوفة وفي امصار أخرى كالحجاز واليمن وفارس، وسائر المناطق الاسلامية الأخرى، وكان اول متقدم لمبايعة الامام هو قيس بن سعد بن عباد الانصاري^(٢).

رد فعل معاوية على بيعة الامام الحسن (ع):

أول رد فعل اظهره معاوية بعد وفاة الامام علي (ع) شماتته بوفاته (ع) واحتفال عاصمته، وازهار الفرج والبهجة بهذا الحدث الجلل.. وقد اغتاض معاوية لبيعة الامام الحسن (ع) فطلب اجتماعا موسعا، ضم كل مستشاريه وقادته في مؤتمر طارئ لرسم خطوط سياسته الجديدة التي يريد من خلالها مواجهة الامام الحسن (ع).

فقد جاء في شرح النهج، ومقاتل الطائيين وغيرهما من المصادر التاريخية، ان معاوية ومستشاريه قرروا بتوثرهم هذا، بث شبكة من الجواسيس والعملاء داخل مجتمع الامام (ع) لبث الارهاب — واشاعة الدعايات والახبار الكاذبة ضد حكم الامام ولصالح الفتنة في الشام، ومحاوله كسب نزعات والوجوه الاجتماعية المؤثرة في سير الاحداث في العراق، وذلك من خلال ارشائها وغرائها بالنعوذ الى غير ذلك من الاساليب الاندئية وتحرك معاوية فورا ليضع قراراته موضع التنفيذ وارسل لغرض نفسه رجلين احدهما (حميرى) ارسله للكوفة وآخر (قيني) ارسله للبصرة فاخذوا وقتلا.^(٣)

١. مبرة الائمة/الحسيني ج ١/ص: ٥٢٦، وحياة الامام الحسن/القرتي ج ٢/ص: ٣٢

٢. م/ص: ٥٥٧

٣. الفصول العشرة/الابن الصباغ المالكي ص: ١٣٥ نغلا عن الحسيني ص: ٥٥٧

وكن الإمام الحسن (ع) سرعان ما أظهر رد فعله باكتشاف خبث نوايا معاوية وأرسل له كتابا يتوعده ويهدده باعلان الحرب، قائلا له:

«اما بعد فانك دسست الى الرجال، كأنك تحب اللقاء لا أشك في ذلك، فتوقعه ان شاء الله، وبلغني انك شمت بما لم يشمت به ذووا الحجى»^(١)

واعقبها معاوية برسالة جواوية، مراوغا فيها، نافيا شماتته بموت الإمام علي (ع) وبعدها تبودلت رسائل كثيرة بينها.. وكان أهمها كتاب الإمام لمعاوية بوجوب التخلي عن انفصاله وضرورة اعلان ولائه للحكم الشرعي.. ولكن معاوية ابى الاستجابة لنداء الإمام، ومن ثم تصاعد الموقف بعدها ووصل الحال بمعاوية ان يكتب رسالة للإمام يطلب منه بكل صلف ووقاحة ان يتنازل عن الحكم وينضوى تحت حكمه على ان تكون الخلافة له من بعده غير ان الإمام (ع) اجابه بكتاب مختصر يحمل روح الاصرار والحزم قائلا له:

«اما بعد فقد وصل كتابك تذكرفيه مذكركت وتركت جوابك.. وبالله اعوذ من ذلك.. فتابع الحق تعلم اني من اهله وعلى اثم ان اقول فأكذب.. والسلام»

وبعد هذه الرسالة قرر الإمام عدم مراسلته بشئ، حتى أعلن معاوية من جانبه الحرب وبادر الحسن (ع) الى اعلان حالة الدفاع لمواجهة العدو الزاحف.

الإمام وظروف استلامه للحكم:

تولى الإمام الحسن (ع) مسؤولية الخلافة في مناخ قلق غير مستقر وفي ظروف الشك والتعقيد التي برزت في أواخر حياة ابيه علي (ع) وذلك على شكل بذور — شك — في تجربته السياسية التي تزعم قيادتها في إعادة كامل الصيغة الاسلامية للحياة، حيث اخذت ظاهرة الشك بالتجذر والتوسع في عهد الإمام الحسن (ع).

وقد سبق لنا القول في فصل الإمام علي (ع). بأن ظاهرة الشك بالقائد ونظريته واطروحته التي كافح من اجلها المنحرفين والقاسطين والناكثين، لم يكن شكاً حقيقياً واقعياً

بل كان شكاً ذاتياً مصطنعاً — خلقتها ظروف الحرب النفسية الطويلة القاسية والحرب الإسلامية — الإسلامية (الباغية)، ولن تكن اطلاقاً (ظاهرة الشك) نتاجاً لسيرة الامام (ع) بل جاء الشك تبريراً مستوحى من ارهاق قاعدة الامام وقصر نفسه في مواصلة خط الجهاد المضني الطويل.

والذي نريد ان نلقي الضوء عليه الآن، هو ان هذا الشك تفاقم وتصاعد (بحكم ظروف الامام الحسن الجديدة والتي سيمر ذكرها)، من شك بسيط — ذي دوائر بسيطة (سلبية) الى شك واسع ذي دوائر متنامية (ايجابية).. كان شكاً (سلبياً بسيطاً) انعكس في زمن الامام علي على مستوى التخاذل والتبجح، والتشاغل لنداء الجهاد، والتلكؤ في تلبية الاوامر العسكرية للامام (ع).. بينما نرى هذا الشك يأخذ مدى اوسع ينعكس انعكاساً (ايجابياً متنامياً) ليشمل قطاعات عريضة من المجتمع، وتشتد حالتها بالتدرج وتمتد الى قواعده الشعبية، التي كان يفترض بها ان تساهم في مواصلة العمل والجهاد لدعم التجربة السياسية التي يقودها الامام الحسن (ع).

ونود بعد هذا التمهيد ان نناقش ونحلل بشكل اعمق ظاهرة الشك واسباب تناميها في مجتمع الامام، بأن نتبع بداياتها الاولى في عهد الامام علي، حيث اكتسبت مضمونها ومحوها من موقف الامام من معاوية في معركة الاسلام مع الجاهلية المقتنعة (باسلام السقيفة) — حيث ان معركة الامام (ع) مع معاوية كانت معركة الصيغة الإسلامية الكاملة للحياة مع منهج الجاهلية واطروحها الكسروية والهرقلية للحياة، هذه الجاهلية التي لم تكن تؤمن يوماً بالنبوة وبافكار الاسلام في الحياة، ايماناً حقيقياً بل خضعت لسلطان الاسلام، بعد ان اكمل سيطرته التامة على مقاليد كسرى وقيصرو، واصبحوا بإزاء حكم الاسلام أمام الأمر الواقع، فكانت مبادرتها الى تعديل موقفها فبدلاً من ان ترفض الاسلام وتنكره ككل بدأت تتأمر وتحاول ان تنكره على المبدأ القائل «خطوة الى الوراء من اجل خطوتين الى الامام» فانكرت بعضاً او جزءاً منه وخصوصاً تلك الاجزاء التي تتعارض صراحة مع واقع مصالحها السياسية ومكاسبها الاجتماعية، تمهيداً للقضاء على الاسلام.

هذه المعركة كان يدرك خطورة ابعادها الامام (ع) وقد اعطاها كل وجوده ومشاعره، ولم يكتف (ع) بالقول والشعارات، بل عاش المعركة بكل سلوكه وعمله المتواصل

موعيا قواعده الشعبية على أهداف وطبيعة المعركة، ليجعلهم مواكبين لأهداف الاسلام في مسيرته المظفرة.

وقد اكد الامام علي(ع) اهتمامه على شعب العراق، لأنه كان حديث العهد بالاسلام، ولم يكن قد عاش الكثير من ايام الاسلام الاولى (ايام النوحى)، حيث نجح الامام علي في كسب قواعده — بدرجة ما — الى قناعاته، ولكن سرعان ما أخذت هذه القناعة (المتربّقة) بانتميع والنزول، وذلك بظهور حالة الشك التي ترافقت مع صراع الامام علي ومعاوية، حيث تم تصوير هذا الصراع في نظر الامة على انه صراع بين شخصين او اتجاهين متحاربين قبل الاسلام واستأنفا صراعهما وخلافاتها بعد الاسلام، وماهي — في نظرهم — الا استمرار لذلك الاتجاه التاريخي من الصراع، وهي نتاج لعلاقة تاريخية متأخرة بين قبيلتي بني هاشم وبني امية.

هذه الحالة من الشك (المذاقي) — الذى كان سببه انقطاع نفس خط الجهاد عند اصحاب الامام علي(ع) ورغبتهم الجارحة لايقاف النزيف وموادعتهم وحبهم ورغبتهم في حياة السلامة والدعة — بدأت تستفحل وتشتد — كما وكيفاء، بعد عهد الامام علي، وباستسلام الحسن(ع) لِسُوءِ الحُكم، وذلك بتأثير عوامل عديدة نذكر منها مايلي:

اولا: عندما تسلم الحسن(ع) مقاليد الحكم، تسلمها وهناك كيان سياسي (منشوق) قائم وحاكم في جزء من العالم الاسلامي، متمثلا بحكم معاوية في الشام، وقد اكتسب هذا الكيان (المنشوق) في نظر كثير من اهل الشام، وحاكمها معاوية بن ابي سفيان شرعية الخلافة على أثر حادثة التحكيم الشهيرة في معركة صفين، ومن هذه الواقعة بالذات رأينا ان معاوية أخذ يسلك ويعيش مع قاعدته كما يعيش الخليفة مع رعيته.

وعندما خلت الساحة السياسية من الامام علي، وجاء ابنه الحسن(ع) بعده، كان احساس العامة من الناس بضرورة مئى الفراغ السياسي، وكانوا امام خيارين:

اما ان شروع ببناء كيان سياسي جديد، او الالتحاق بهذا الكيان القائم.

هذا الاحساس او الشعور من التفكير لم يكن موجودا ايام حكم الامام علي، لأن

الكيان السياسي (المنشوق) في الشام بزعامة معاوية كان كيانا طارئا (لا شرعي) بينما الآن اصبح كيان الامام الحسن(ع) يعتبر في ذهن الانسان المسلم العادى هو الطارئ.

هذا الواقع النفسي، استغله معاوية بمكر ودهاء، وضمها في رسالة مطولة ارسبها للامام (ع)، استخدم فيها كل ادوات الخداع والتضليل، وحاول فيها ان يضع لنفسه فيها مخرجاً مما خطط له تجاه الرأي العام الاسلامي، وان يحتمل الحسن (ع) تبعة كل خلاف وشقاق كما يبدو ذلك من رسالته التالية، فكتطف منها مايلي:

«لقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت به محمداً رسول الله من الفضل... وقد والله بلغ وأدى ونصح وهدى حتى انقذ الله به من الهلكة وأثار به من العمى وهدى به من الجهالة والضلالة فجزاه الله افضل ما جزى نبيا عن امته... وقد ذكرت وفاة النبي وتنازع المسلمين الأمر من بعده وتغلبهم على ابيك فصرحت بتهمة ابي بكر الصديق، وعمر الفاروق، وابي عبيدة الامين وحواري رسول الله وصلاح المهاجرين والانصار فكرهت ذلك لك، انك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظنين ولا المسي ولا النسيم، وأنا احب لك القول السديد والذكر الجميل.

ومضى يقول: إن هذه الامة لما اختلفت بينها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم ولا قرايتكم من نبيكم ولا مكانتكم من الاسلام، قرأت الامة ان تخرج هذا الامر لقريش لمكانتها من نبيها ورأى صلحاء الناس من قريش والانصار وغيرهم وسائر الناس وعوامهم ان يولوا هذا الامر من قريش أقدمها اسلاما واعلمها بالله وأحبها اليه وأقواها على امر الله فاخثاروا ابا بكر وكان ذلك رأى ذوى الدين والفضل، فأوقع ذلك في صدوركم هم التهمة ولم يكونوا متهمين ولا في اتوا بالخطئين، ولو رأى المسلمون ان فيكم من يغني غناه ويقوم مقامه ويذب عن حريم الاسلام ذبه ماعدلوا بالامر الى غيره رغبة عنه ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوا صلاحا للاسلام وأهله والله يجزهم عن الاسلام وأهله خيرا... وقد فهمت الذى دعوتني اليه من انصلح الحال فيما بيني وبينك اليوم مش الحال الذى كنتم عليها انتم وابوبكر بعد وفاة النبي (ص) فلو علمت انك اضبط مني للرعية واحوط على هذه الامة واحسن سياسة واقوى على جميع الاموال واكيد للعدو لأجبتك الى ما دعوتني اليه ورأيتك لذلك اهلا ولكني قد عملت اني اطول منك ولاية وأقدم منك بهذه الامة تجربة واكبر منك سنا،

فأنت احق ان تحييني الى هذه المنزلة التي سألتني فادخل في طاعتي ولك الامر من بعدى ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما بلغ معونة لك على نفقتك .. ولك ان لا يستولي عليك بالاساءة ولا تقض دونك الأمور ولا تعصي في امر اردت به طاعة الله، اعاننا الله واياك على طاعته انه سميع مجيب الدعاء».

وكتب معاوية رسالة ثانية بعد تلك الرسالة، والتي لم يتلق ردها، مما اثار الحسن (ع) باهماله له اخلاقيته الدينية، فجاءت رسالته متوعة الامام ومهددة اياه قائلاً فيها:

«أما بعد: فان الله يفعل بعباده ما يشاء، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، فاحذر ان تكون منيتك على ايدي رعاي الناس، وان انت اعرضت عما انت فيه وبايعتني وفيت لك بما وعدت، وأجريت لك ما شرطت... ولك الخلافة من بعدى فأنت اولى الناس بها»^(١)

هذا الاسلوب الاستعلائي الماكر لم يكن يستعمله او يجراً عليه مع الامام علي (ع) من قبل ولم يخاطبه بمثله، اما في عهد الحسن (ع) فلقد كان يتكلم بلغة الخليفة المهمين على الكيان السياسي للدولة الاسلامية، وقد اطمأن معاوية على مصيره، وعلاقته المتينة مع اكثر القادة الذين اتسموا الأمان لأنفسهم وعشائريهم»^(٢)

هذا الواقع الذي تحدثنا عنه اصبحت ماثراً شاك لدى المسلمين العاديين (غير الواعين) واثار تساؤلهم فيما اذا كان من الضروري الحفاظ على هذا الكيان القائم بزعامه معاوية الوالي القديم والحاكم المجرب، او بناء كيان جديد الى جانب ذلك الكيان الذي سيكلفهم حرباً ونزيفاً جديداً من الدماء ام بالأمكان الانسحاب من ذلك الكيان؟!!

«وخصوصاً بعد ان تعود المسلمون تدريجاً من خلال حكم الخلفاء الثلاثة على النظر الى أهل البيت (ع) بوصفهم اشخاصاً اعتياديين، أمكن الاستغناء عن مرجعيتهم اساساً واسنادها الى بديل معقول، وهذا البديل ليس هو شخص الخليفة بل الصحابة وهو بديل يستسيغه النظر بعد تجاوز المرجعية المنصوصة لأن هؤلاء هم الجيل الذي رافق النبي (ص)

١. راجع سيرة الأئمة/ احسن/ ص: ٥٦٤

٢. ن. م/ ص: ٥٦٦

وعاش حياته وتجربته ووفى حديثه وسنته.»^(١)

وهذا المعنى واضح من خلال رسالة معاوية الأنفة للامام (ع).

ثانياً: بدأ الحسن (ع) حكمه مع جماهير شاكة مترددة لا تؤمن ايماناً واضحاً وكاملاً برسالية المعركة وبأهدافها، ولا تتجاوب دينياً وإسلامياً مع متطلبات هذه المعركة. ومن الاسباب التي عمقت (الشك) بأهداف المعركة هو ان الامام الحسن (ع) (وذلك طبقاً لظروفه الموضوعية) لم يبادر بالاسراع، باعلان عزمه لمواصلة القتال ضد معاوية مع معرفته التامة بنوايا معاوية، وما ينطوي عليه من الكفر والاحاد والعداء لمحمد ورسائله مع ادراكه لهذه الحقائق، فقد تريت باعلان الحرب عليه، الا بعد ان كتب اليه اكثر من مرة يدعو الى جمع الكلمة وتوحيد الصف، حتى لا يبقى لأحد عذر او حجة في التخلف عن نصرته.

فكتب الامام (ع) الى معاوية رسالة يقول فيها:

«اما بعد فإن الله جل جلاله، بعث محمدا رحمة للعالمين.. ينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فبلغ رسالات الله وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصر، وبعد ان اظهر الله به الحق ومحق به الشرك وخص قريشا به خاصة، فقال له، وانه نذكر لك ولقومك، فلما توفى تنازعت سطرانه العرب، فقالت قريش نحن قبيلته واسرته وأوليأؤه، ولا يحل لكم ان تنازعونا سلطان محمد وحقه، فرأت العرب ان القول ما قالت قريش، وان الحجة لهم في ذلك على من نازعهم امر محمد فأنعمت لهم وسلمت اليهم، ثم حاجبنا نحن قريشا بمثل ما حاجبت به العرب، فلم تنصفنا قريش انصاف العرب ها، انهم اخذوا هذا الامر دون العرب بالانصاف والاحتجاج، فلما صرنا آل بيت محمد وأوليأؤه الى محاجتهم وطلب النصف منهم باعدونا واستولوا على الخلافة بالاجتماع على ظلمنا.

لقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا وسنطان نبينا، وان كانوا ذوى

فضيلة وسابقة في الاسلام، وامسكنا عن منازعتهم مخافة ان يجد المنافقون والاحزاب في ذلك مغمرا يثلمونه به او يكون لهم بذلك سببا الى ما أرادوا من افساده واليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على امر لست من اهله لافضل في الدين ولا أثر في الاسلام محمود وانت ابن حزب من الاحزاب وابن اعدى قریش لرسول الله (ص) ولكتابه الكريم. — والله حسيبك فسترد وتعلم لمن عقبى الدار، وبالله لتلقين عن قليل ربك ثم ليجزينك بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد»

«ان عليا لما مضى لسبيله.. ويوم من الله عليه بالاسلام، ولآتي المسلمون الأمر من بعده، فأسأل الله ان لا يؤتينا من هذه الدنيا الزائلة شيئا ينقضاه في الآخرة بما عنده من كرامة، وانما حلني على الكتابة اليك الا عذارفها بيني وبين الله عز وجل في امرك، ولك في ذلك ان فعلته الحظ الجسيم والصلاح للمسلمين فدع التماذى في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فانك تعلم اني احق بهذا الامر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ ومن له قلب منيب واثق الله ودع البغي واحقق دماء المسلمين وادخل في السلم والطاعة ولا تنازع الأمر اهله ومن هو احق له منك ليطفى الله الثائرة ويجمع الكلمة ويصلح ذات البين، وان انت ابيت الا التماذى في غيك سرت اليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين»^(١)

فتريث الامام (ع) في اعلان الحرب على معاوية كان من المسائل التي استغلها معاوية بدهائه ومكره (الميكافيلي) الخبيث، حيث خطط لإشاعة دسها بين اصحاب الامام (ع)، بأن الحسن (ع) يفكر بالصلح معه مما ادت هذه الاشاعة دورا مغربا ومعقلا لحالة الشك عند المسلمين (غير الواعين) وترددهم في محاربة معاوية.

ثالثاً: الفارق التاريخي بين شخصية الامام الحسن (ع) وشخصية ابيه الامام علي (ع)، ونعني بالفارق التاريخي، هو رصيد كل واحد منهما في ذهان الناس، اذ ليس

هناك فارق بينهما في حساب الله عز وجل، فأن كل واحد منها معصوم، ولكن بمنطق وحساب الجماهير لم يكونا سواء، فالجماهير كانت تحمل وتعيش اعتبارات كثيرة عن الامام علي (ع) دون ان تعيش نظيرها عن الامام الحسن (ع).. فسوابق الامام علي ايام رسول الله وصحبته الطويلة له ومواقفه العظيمة في ايام الرسالة الاولى للاسلام، وسلطته الروحية والعلمية على كثير من الصحابة، كل هذه الاعتبارات جعلت من الامام علي (ع) في نظر الجماهير رجلا عظيما وقائدا مؤهلا لتسلم مقاليد الحكم.

اما الحسن (ع) لصغر سنه، وعدم وجود تاريخ مماثل من هذا القبيل، وهو بعد لم يملك القدرة النفسية والتجربة التاريخية التي امتلكها ابوه (ع) في اخضاع المسلمين لقيادته.

والمسلمون وبمرور الزمن بعد وفاة النبي (ص)، وتعودهم تدريجيا على النظر الى اهل البيت بوصفهم اشخاصا اعتياديين، امكن الاستغناء عن مرجعيتهم المنصوصة عليها في كثير من الاحاديث الواردة عن النبي (ص) واسنادها الى بديل معقول، حيث وضح بالتدريج مبدأ مرجعية الصحابة ككل بدلا من مرجعية اهل البيت، والمسلمون انذاك وبسبب — سياسة الخلفاء الثلاثة — لم يكونوا يؤمنون بفكرة النص على امامة اهل البيت، سوى القلة منهم، ولذلك لم يعاملوا الامام الحسن (ع) كإمام — مفترض الطاعة، منصوب عليه، وانما عاملوه على ان امامته امامة عامة وامتداد (لحظ السقيفة) ومفهومها للخلافة.

وكذلك الفارق الذي جاء من البيعة التي حصل عليها الامام علي (ع)، كانت اوضح شرعية في نظر الجماهير (هذه الجماهير التي آمنت — بحكم اوضاع — بخط السقيفة ومفهومها للخلافة). من بيعة الامام الحسن (ع)، وخصوصا ان بيعة الامام علي تمت في المدينة التي كانت مركز الكثير من الصحابة حيث لم يتخلف عن بيعة الامام علي (ع) الا القلائل اما الباقيون، فكلهم بايعوا، مما اعطى لخلافة الامام علي من الشرعية والوضوح، القدرة على التأثير والنفوذ واخضاع انفس لسلطانه، وهذا الامر ما لم يمتلك نظيره الامام الحسن (ع) في نظر الجماهير.

رابعا: تسلم الامام الحسن (ع) لمقاليد الحكم بعد استشهاد ابيه مباشرة، كان الدافع والسبب المباشر في تقوية وتعميق موجة الشك في رسالية المعركة التي يخوضها الامام الحسن (ع) حتى ان احياء الشك كان لديهم قويا بأن المعركة هي معركة بيت مع بيت،

امويين مع هاشميين، وهي بالتالي ليست معركة رسالة مع رسالة.

هذه الحقيقة بالذات هي التي دعت الامام علي(ع) بأن يكتف امر معالنة الجماهير— رسميا— بخلافة ولده الحسن(ع) واشغاره لمركزه السياسي حتى يتفادى أى حساسية او شعور ذاتي، ولكنه عالن(ع) فقط ثلة من جماعته المخلصين ممن يؤمنون بالنظرية الاسلامية الصحيحة لمفهوم الامامة، حيث اوصى اليهم بأمامة ولده الحسن(ع) وعرفهم بأن الحسن هو الامام والحجة من قبل الله من بعده، ولكن الامام علي(ع) بوصفه حاكما ورئيسا للدولة لم يعلن اعلانا رسميا بضرورة تسلم الامام الحسن(ع) الأمر من بعده^(١).

هذه العوامل هي التي ادت الى توسيع نطاق الشك الذاتي (المصطنع) في عهد الامام الحسن(ع) حيث توسع كما وكيفا، ليتحول من شك يعيشه بعض الافراد والجماعات الى شك تعيشه قطاعات واسعة من المجتمع الاسلامي الذي حكمه الامام(ع)، هذه الظاهرة اتضحت معالمها بشكل مكبر منذ اللحظة الاولى لتسلم الحسن(ع) مقاليد الحكم وحتى اللحظة الأخيرة من صلحه مع معاوية.

لماذا قبل الحسن(ع) «البيعة»؟!

وهنا نحن امام هذا الحشد من الحقائق التاريخية نتساءل لماذا قبل الحسن(ع) عرض الخلافة والبيعة — وهو يعيش كل هذا الوضوح (التزايد) لحالة الشك المتنامي، وهي حالة سوف تعجزه بالضرورة عن تحقيق اهدافه ورسالته بنجاح؟

فالسؤال بشكل ادق، لماذا وافق الحسن(ع) على استلام الخلافة وهو في لحظة

يائسة؟!

ويمكننا ان نجيب عن هذا السؤال وذلك بملاحظة بعض الحقائق وهي:

لوان الامام(ع) لم يقبل ممارسة الحكم بعد استشهاد ابيه، رافضا البيعة لقليل، ان ظاهرة الشك التي كان يعيشها المسلمون — بدرجة من الدرجات — قد تسربت الى الامام الحسن نفسه، واصبح كغيره من المسلمين يعيش حالة الشك في صحة واهمية المعركة وضرورتها الرسالية.

١. راجع نص تعيين الامام لولده ص: ١٦٤ من هذا الكتاب

ومن هنا جاء قدر الامام الحسن (ع) بضرورة التصدي للأمر وان يحاول توعية المسلمين بأنه واهل البيت (ع) مازالوا يؤمنون بالقضية واطروحتها، بنفس مستوى الايمان بها منذ الساعة الاولى لنشوء الفتنة في حياة المسلمين، وهو مستعد لتحمل كامل المسؤولية في الحكم وتحمل تبعاتها في مواجهة المنحرفين والضالين، فقد تحمل امامنا (ع) مسؤولية الخلافة (بعد ابيه) بالرغم من حالة الشك — المتزايدة — حتى لا يفهم اويقال، بأن الامام (ع) ايضا كان شاكاً او متردداً في صحة المعركة وابعادها الرسالية.

ولكن الذي حدث ان الامام الحسن (ع) بعد استلامه مسؤولية الحكم — بعد ابيه — قرر التريث وعدم الاسراع في خوض المعركة مع معاوية، بل اراد ان يتفرغ لمواجهة حالة الشك بالعلاج والتصفية، ومواجهة ظروفه الداخلية محاولا التخفيف — بقدر الامكان — من حالة الشك الذاتية، بعد ان يقضي على مقدماته ويعالج بعض اسبابه، حتى يتمكن — اخرالشوط — من ان يكسب القواعد الشعبية الموالية ويقنعهم بصحة اطروحته، وبعدها يتفاهم معها بضرورة استئناف المعركة مع معاوية من موقع الوعي والقناعة التامة.

هذه الحقائق كانت خلفية دوافع كتمان الامام (ع) وعزمه لإعلان الحرب في اللحظات الاولى من استلامه للحكم.

ولكن الامام (ع) واجه انفعال وتسرع بعض اصحابه والباحثهم بضرورة معالنة معاوية بارادة القتال دون ان يعطى معاوية فرصة اتخاذ قرار الحرب من جانبه.

«وقد كتب عبدالله بن عباس الى الامام الحسن (ع) من البصرة كتابا يحرضه فيه على قتال معاوية، وجاء في كتابه اليه: اما بعد فإن المسلمين ولوك امرهم بعد ابيك فشمر للحرب وجاهد عدوك وقارب اصحابك واشتر من الظنين دينه بما يثلم دينك وول اهل البيوت والشرف تستصلح به عشائركم حتى يكون الناس جماعة.. واعلم بانك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الاسلام حتى ظهر امر الله فلما وحيد الرب ومحق الشرك وعز الدين اظهروا الايمان وقرأوا القرآن مستهزئين بآياته وقاموا الى الصلاة وهم كسالى وأدوا الفرائض وهم لها كارهون.. فجاهدوهم ولا ترض دنية ولا تقبل خسفا، فإن علياً أباك لم يجب الى الحكومة حتى غلب على امره، وهم يعلمون انه اولى بالأمر ان حكموا

بالعدل، فلما حكموا بالهوى رجع إلى ما كان عليه حتى أتى أجله ولا تخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام»^(١)

ولكن الإمام (ع) أعلن رفضه لهذا العرض وغيره من العروض التي جاءت من أصحابه، وكان رفضه (ع) مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالظروف النفسية التي كان يعيشه المجتمع الإسلامي آنذاك .

لقد أدرك الإمام (ع) الظروف النفسية التي كان يمر بها المسلمون آنذاك ، وكان شعوره بأن الأمة كانت تحتاج إلى علاج وترويض أكثر مما هي بحاجة إلى قرار سريع ينقلها إلى ساحات الحرب والاقتتال، بل بحاجة إلى توعية على أهداف الحرب واطروحها الرسالية وهم بحاجة إلى فرصة لكي يدرسوا ويتبينوا ملامح اضطروحه وأهدافها، ويدركوا بفناعة تامة خيراتها وبركاتاتها لهم، قبل أن يكلفوا مكربين بقتال جديد.

هذه الأسباب هي التي جعلت الإمام (ع) يترئس في موضوع إعلان الحرب مع معاوية، إلا أن معاوية لم يمهله، بل حاول أن يمسك زمام الأمر بيده، وكتب — معماً إلى جميع عماله في بلاد الشام، يطلب منهم التجهز والاستعداد لغزو العراق، علّه يستفيد من الفراغات السياسية والفكرية والنفسية التي خلقتها تلك الظروف واللازمات وأن يحقق من خلالها مكسبه السياسي في كسب نتائج المعركة لصالح اطماعه وشهواته.

ففي رسالة بعثها إلى عماله في بلاد الشام يقول فيها:

«أما بعد: فإني أحمد اليكم الله الذي لا اله غيره، والحمد لله الذي كفاكم مؤونة عدوكم وقتله خليفكم، أن الله بلطفه وحسن صنيعه أتاح لعلي بن أبي طالب رجلاً من عباده فاغتناله وقتله، وترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرفهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم فقد أصبتم بحمد الله الثأر وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان والسلام عليكم ورحمة الله»^(٢)

١. شرح النهج/ ابن أبي الحديد نقلاً عن سيرة الأئمة/ الحسيني ج ١/ص: ٥٥٨

٢. سيرة الأئمة/ الحسيني ج ١/ص: ٥٦٧

فاجتمعت اليه الوفود من كل الجهات وسار بهم باتجاه العراق، وعندما سمع الامام الحسن (ع) نبأ الحشود وخبر وصوله الى جسر (منبج) تحرك فوراً، وكتب الى عماله يدعوهم للتحرك السريع وطلب من مناديه ان يدعو المسلمين الى اجتماع في المسجد فأقبل الناس حتى امتلأ به فداء المسجد، وخطب بهم الامام (ع) قائلاً:

«لقد كتب الله الجهاد على خلقه وسماه كرهاً، واوصى المجاهدين بالصبر ووعدهم النصر وجزيل الأجر.. الى ان قال: وقد بلغني ان معاوية كان قد بلغه أننا زمعنا على المسير اليه فتحرك نحونا بجنده فأخرجوا رحمكم الله الى معسكركم النخيلة حتى ننظر وتنظرون ونرى وترون»

بعد ان انهى الامام خطابه، كان رد فعل الجمهور اغتشد هو الوجوم والسكوت المطبق دون ان يتكلم منهم احد بحرف لأن حالة الشك وقفت حائلاً دون استجابة نداء امامهم (ع) لقرار قتال معاوية، حتى قام الصحابي الجليل عدي بن حاتم مخاطباً الحاضرين بقوله:

«انا ابن حاتم، سبحانه الله ما أقبح هذا المقام، الاتحيبون امامكم وابن بنت نبيكم. اين خطباء مضر الذين السنهم كالمخارب في الدعة فاذا جد الجد فرواغون كالثعالب، اما تخافون مقت الله وعيها وعارها»
ثم استقبل عدي بن حاتم الامام (ع) بوجهه مخاطباً اياد قائلاً:

«لقد اصاب الله بك المرشد وجبتك النكاره ووفقك لما تحمد لقد سمعنا مقاتلك وانتهينا الى امرك، وأطعناك فيما قلت، وهذا وجهي الى معسكرك فن أحب ان يوافقتني فليواف».. ثم خرج من المسجد وركب دابته متجهاً الى معسكر النخيلة، وكان اول من خرج من جيش الامام الى الجهاد وتبعه الف من عشرته»

ثم قام فيس بن سعد بن عبادة لانصارى، ومعقل بن قيس الرياحي، وزباد بن صعصعة التميمي، فأثبوا الناس ولاموهم على تحاذلهم وحرصوهم على الخروج وكلموا الامام (ع) بمثل كلام عدي بن حاتم، وقد جاءهم الامام الحسن (ع) قائلاً:

«صدقكم رحمكم الله ما زلت اعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة

والنصيحة فجزاكم الله خيراً»^(١)

وخرج الناس بعد ذلك الى معسكر النخيلة، فلما تكامل عددهم لحق بهم الامام (ع) واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل ابن عبدالمطلب وهو (ابن عم الامام) وطلب منه ان يعمل على تعبئة باقي القرى ويحثهم على الخروج والا لتحاق بالجيش فلم يستجب له احد، فاضطر (ع) ان يرجع بنفسه الى الكوفة، وحاول ان يعبئ جيشا اخر بلغ عدده - اثني عشر الفا - من فرسان العرب ودعا عبيدالله بن العباس وقال له:

«يا ابن العم اني باعث معك هذا الجيش فسر بهم على الشاطئ حتى تقطع الفرات وتنتهي الى - مسكن - وامض منها حتى تستقبل معاوية فأئن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وافرش لهم جناحك وادنهم من مجلسك فإنهم من ثقة امير المؤمنين، فإن أنت لقيت معاوية فاحبسه حتى آتيك فأني على اثرك وشيكاً، وليكن خبرك عندي كل يوم»

وارسل معه قائدين من خيرة المسلمين اخلاصاً وجهاداً وتضحية وهما قيس بن سعد بن عباد، وسعيد بن قيس الحمداني وأمره ان لا يقطع امراً دونها وان يستشيرهما في جميع الامور وقال له:

«إذا انت لقيت معاوية فلا تقاتله، حتى يكون هو البادئ في القتال فأن اصبحت فقيس بن سعد على الناس، وان اصاب فبالقيادة من بعده لسعيد بن قيس»
وسار عبيدالله بالناس الى الفلوجة ومنها الى مسكن وكان معاوية قد نزل عليها وفي اليوم الثاني وجه معاوية بخيل اغارت على جيش عبيدالله، فوقفوا لها وردوها على اعقابها، وايقن معاوية بأن الحسن (ع) عازم على مواصلة القتال وتصفيته سياسياً بعد ان رفض كل عروضه السابقة، فحاول معاوية ان يسلك طريق الاغراء والترغيب والتخويف وكان شعاره قائلاً:

«والله لا ستميلن بالدنيا ثقة علي ولأقسمن فيهم الاموال حتى تغلب دنياى آخرته».

وفعلًا استطاع معاوية بأسلوبه الماكر ان يستميل اليه عددا من جند الامام وقادته. ويذكر المؤرخون بهذا الصدد بأن عبيد الله بن العباس انسل من قاعدته ودخل معسكر معاوية ومعه بضعة آلاف ممن كانوا معه فوق له بما وعده فاضطر قيس بن سعد ان يخطب فيهم أمراً جيشه بالصبر والثبات ومناهضة معاوية مهما كانت النتائج، فأجابوه لذلك، ومضى لقتال معاوية، وفي هذه الاثناء لجأ معاوية بخبثه ودهائه الى بث اشاعة كاذبة مفادها ان اميرهم عبيد الله مع معاوية في خيائه وان الحسن (ع) قد وافق على الصلح فعلاهم تقتلون انفسكم.. وهنا يدعي المؤرخون بأن الانفعال قد استبد بقيس بن سعد مخاطبا جيشه، قائلا:

«اختاروا احدي اثنتين اما القتال بدون امام، واما أن تباعوا بيعة ضلال فقالوا بأجمعهم، بل نقاتل بدون امام، ثم اشتبك الفريقان، وكانت معركة ضارية وكانت نتائجها لصالحهم»

فالموقف الخياني الذي وقفه عبيد الله بن العباس، والاشاعة الكاذبة، وتصرف قائد الجيش مع جنده، كل هذه المواقف كانت من العوامل المؤثرة التي تسببت بتفكك جيش الامام وانزاعه نفسيا امام معاوية، مما فتح ابواب الغدر والخيانة والتسلل الجماعي. وقد تناولت مواقف خيانية أخرى في صفوف جيش الامام (ع) وكان بطلها هذه المرة شخص (من قبيلة مرة) حيث اغراه معاوية بالمال وقد قرّ هو ومع صفوة من جنده، مما اضطر الامام، ان يرسل، قائدا آخر على الفور مع اربعة آلاف مقاتل ليحل محله، ويضيف المؤرخون بأن هذا القائد الجديد هو الآخر، وقبل وصوله الى مسكن حاول الفرار بمن معه الى معاوية.

هذه المواقف الخيانية المتلاحقة المصحوبة بالإشاعة الكاذبة، ادت فعلها البليغ والمشوّم في نفوس بقية جيش الامام (ع)، وقد تسرّ بغدرهم وخیانتهم جميع الطامعين والخنوة — من اهل العراق — ونشط انصار معاوية في نشر وبث التهيب والترغيب في صفوف جيش الامام (ع) محاولين استمالة رؤساء ربيعة الذين كانوا حصنا للامام علي (ع) في صفين وغيرها من المواقف، وقد راسله خالد بن معمر احد زعمائها البارزين وباعه نيابة عن ربيعة كلها، كما راسله وباعه عثمان بن شرحبيل احد زعماء بني تميم، حتى شاعت

الخيانة وتفاقت ظاهرتها بين جميع كتائب الجيش وقبائل الكوفة، وقد صارحهم الامام (ع) بالواقع قائلاً:

«يا أهل الكوفة انتم الذين اكرهتم ابي على القتال والحكومة ثم اختلفتم عليه وقد اتاني أن أهل الشرف منكم قد اتوا معاوية وبايعوه، فحسبي منكم لا تغروني في ديني ونفسي»^(١)

وفي هذه اللحظات العصبية والحاسمة، كان وفد من ثلاثة أنفار يرأسه نوبة بن شعبة يتقدم لمفاوضة الامام (ع) باسم معاوية لطلب الصلح — وقد حملوا معهم رسالة من معاوية مرفقة بمجموعة من رسائل (الخيانة) التي وصلت معاوية من اصحابه (ع) يعلنون فيها استعدادهم للسمع والطاعة ويظهرون تعاونهم لتسليم الامام الحسن (ع) في أي وقت يشاء. وفي نفس الوقت، نشاهد ان معاوية يوجه رسالة مفتوحة الى جيش الامام (ع) يخاطب فيها الامام (ع) بقوله:

«ان شئت ان تحقن الدماء، وتوقف القتال على ان يكون الامر لك من بعدى» ولكن الامام (ع) بعد أن اطلع على الرسائل وفرغ من قراءة مضمونها واطلع على مرفقاتها، اتجه الى الوفد، محاولاً عظمتهم ونصحهم مذكراً اياهم بثواب الله وعقابه واياام الله شارحاً لهم بأن هذه اللحظات التي يعيشونها هي امتحان للمؤمنين، وهي جزء قصير جداً من عمرهم، الذي يجب ان يقيموه ويفهوه على اساس شوط — طويل — يعيشونه.

بهذا الموقف الناصح، حاول ان يتجاهل (ع) مضمون الرسالة والرد عليها، ثم سكنت برهة (ع) دون ان يعطي الوفد المفاوض أي جواب واضح، لأنه اراد ان يجرب آخر محاولة مع قواعده الموالية لكي يتيقن قدرتها واستعدادها على مواصلة خط الجهاد الطويل.

وقد انتهى الاجتماع، وقد غادر الوفد المكان، وكان جيش الامام يتابع نتائجها بفارغ انصب، وفي اثناء مغادرة الوفد مكان الاجتماع حاول ان يمرر اشاعة كاذبة في صفوف جيش الامام مشيعين عن نتائج اجتماعهم بالامام (ع)

«بأن الله قد فرج عن هذه الامة

وقد حققت الدماء بابن بنت رسول الله، وإن الامام قد استجاب لطلب معاوية في الصبح»

وما إن سرت هذه الاشاعة (اللعينة) — حيث كان لها مفعول النار في الهشيم — الا وعملت عملها في تخريب وثني العزائم، وفي توسيع دفعة حالة الشك والتعيب. وعقيب هذه الاشاعة المدمرة مباشرة، خرج الامام (ع) — دون ان يعرف عنها شيئاً — وقف خطيباً بين قواعده وجنده، محاولاً استبطن نواياهم في مواصلة الجهاد ضد معاوية، قائلاً لهم:

«إن معاوية دعانا الى ما لا يكون منه خيرنا ولا خيركم، فإذا انتم فاعلون، فصاحوا بصوت واحد، الصبح، الصبح» وهم تحت تأثير الاشاعة.

وما إن سمع الامام (ع) هذا ائتاف الجماعي، احس بأن بقاء التجربة السياسية بقيادته أصبحت شيئاً متعذراً، مع شعوره بالعجز الكامل على حسم المعركة عسكرياً، بحيش يعيش حالة انشك والتردد والرغبة الجاشئة في موادة العدو ومهادنته.

ولقد أدرك الامام بوعيه (المعصوم) بأن انحسار تجربته مؤقتاً عن الميدان السياسي أصبحت ضرورة اسلامية وتغييرية من اجل حماية مستقبل الاسلام، لأن التجربة السياسية للحكم لا يمكن لها ان تعيش وتستمر مع وجود حالة الشك المتنامية.

ومن هنا جاء تقدير الامام (ع) بضرورة معالجة الاسباب والقضاء عليها، ومن ثم العمل على استئناف التجربة السياسية من جديد.

وكانت خطته العلاجية (ع) هو ان يتيح الفرصة لأن تتكشف اهداف واطروحة معاوية — الجاهلية — امام الناس، ليحسها المسلمون بأمر أعينهم — ويدركوا بأن المعركة التي قادها الامام علي (ع) مع معاوية هي معركة الاسلام مع الجاهلية (ابناء الطلقاء)، لامعركة شخص مع شخص.

فكان لابد — في منطق تجربة الامام الحسن (ع) ان يعالج انشك بقبوله الصلح — وبعدها يعمل على إعادة تجربته السياسية.

وبهذا الصدد يصرح الامام الحسن (ع) بقوله:

«ان من ابتغاء الخير اتقاء الشر»

لأنه ليس بإمكان أى تجربة رسالية ان تنجح ما لم تكتسب مسبقا قناعة الامة بصحة اهداف الرسالة واطروحتها، ولم يكن من المتيسر لتجربة الامام (ع) ان تكتسب هذه القناعة وهي تواصل القتال في ميدان الصراع الدامي.

خلاصة البحث: اصبح من الضروري ان يصلح الامام (ع) معاوية وان ينحسر ظاهريا عن ميدان الحكم حتى ينكشف معاوية بأطروحته الجاهلية، ليلمس المسلمون البسطاء ذلك بأنفسهم، بأن الأطروحة التي جاهد في سبيلها الامام علي (ع) هي اطروحة كرامتهم ووجودهم ومصالحهم الحقيقية، وبعدها يكون ممكنا استئناف بناء الوجود السياسي من جديد، وذلك على اساس قناعات واعية تحملها القواعد الشعبية اتجاها قائدها وامامها.

هل كان صلح الحسن مع معاوية تخاذلا؟!

الظروف الموضوعية التي احاطت بحكم الامام الحسن (ع) وملابسات التعقيد والشك — والتي برزت على شكل معوقات وتناقضات في حياته السياسية (ع) والتي صارت فيما بعد سببا في مضاعفة (حالة الشك) من طاقة سلبية ذات اثر محدود الى طاقة ايجابية متنامية امتدت الى نطاق واسع في وسط الامة، كل هذه العوامل والظروف عقدت موقف الامام من مسألة الحكم وبات الامام (ع) امام خيارات اربع لاختامس لها.

الخيار الأول: وهو اغراء الزعامات واصحاب النفوذ باعطائهم الاموال ووعدهم بمناصب لاستمالتهم الى جانبه، وهذا الخيار اقترحه البعض من اصحابه (ع)، لكنه رفضه رفضا قاطعا وبمبدئية حاسمة بقوله:

«اتريدون أن اطلب النصر بالجور، فوالله ما كان ذلك ابدا».

الخيار الثاني: وهو ان يتجه الامام الى الصلح، من اول الأمر مادامت الامة قد أنست بحياة الدعة والاستسلام ومادامت زعاماتها قد بدأت تتصل بمعاوية متعاونة معه الى حد تسليمه حيا اوميتا، وان يوقف العمل بالخيار العسكري، نزولا للأمر الواقع ولكن الامام (ع) استبعد العمل بأحد هذين الخيارين نهائيا لعدم جدواهما — كما سيأتي تحليله — وبقي عليه أن يفتش في الخيارين الأخيرين.

الخيار الثالث: وهو ان يواصل العمل في الساحة العسكرية حتى يستشهد، كما استشهد اخوه الحسين في ميدان القتال ب كربلاء، وان يخوض معركة يائسة يستشهد فيها هو وجماعته.

الخيار الرابع: وهو ان يصالح معاوية بعد ان يستنفذ أطول وقت ممكن ليسجل المواقف وليبين للناس من يثبت ومن ينحرف.

كان لابد للامام (ع) وهو يدرس هذين الخيارين أن يضع في حسابه كل اعتباراته وما يتمثل بوجوده من الامور التالية:

اولا: باعتباره امينا على اطروحة — النظرية الاسلامية — وعلى صيغتها الكاملة للحياة، بوصفها الخط الفكري والروحي الذي يجب ان يمتد متجذرا الى اكبر قدر ممكن من قلوب الناس وعقولها.

ثانيا: باعتباره أمينا على التجربة السياسية، والتي جسدت تلك الأطروحة في واقع الحكم.

فهو امين على النظرية والتطبيق معا، ووارث للمفهوم والخط الفكري والتجسيد العملي للنظرية في واقع الحياة.

ثالثا: باعتباره امينا على (الوجود الشيعي) الذي بذره النبي (ص) للحفاظ على مستقبل الدعوة، ونمائه ورعاؤه قائد الدعوة الثاني الامام علي (ع)، وكان من المفروض ان يواصل على يديه ويد خفافته نموه الثوري وان يواصل امتداداته عبر التاريخ الاسلامي.

هذه الاعتبارات وغيرها كانت موضع اهتمام وتقييم الامام (ع) وهو يدرس ويوازن افضل الخيارين، خيار التضحية والاستشهاد الفاجع او خيار تجميد التجربة والحركة مؤقتا، الامام يستبعد الاعتبارات العاطفية.

بقيت نقطة نود ان نتعرض اليها باختصار وهي ان الامام (ع) عندما كان ينظر الى خياراته على ضوء تلك الاعتبارات الموضوعية، كان يدرك في نفس الوقت بأن هناك اعتبارات عاطفية، كان عليه ان لا يوجد لها طريقا لحساباته وموازناته فهي لا ترتبط من بعيد أو قريب بمصالح الرسالة ومستقبلها، وذلك من قبيل تخوفه أو ملاحظته لتقولات الناس، ان

يقال له بأنه جبان «وغير مستعد لمصارعة اعدائه»^(١) او انه لا يأتى الضيم كأخيه الحسين(ع)^(٢) «وانه لم يكن كفواً للموقف ليُله الى السلم»^(٣) «وانه كانت تنقصه القوة المعنوية والقبالية القيادية»^(٤) «وانه لم يكن رجل الموقف فانزوى عن الخلافة مكتفياً بهبة سنوية منحه اياها معاوية»^(٥)

هذه المشاعر هي من قبيل الاعتبارات العاطفية التي من الممكن ان تؤثر على موقف بعض القادة، ولكن لا يمكن ان تأخذ طريقها الى قلب القائد الذي يريد ان يرسم طريقه على اساس من الاعتبارات الموضوعية والرسالية فقط. فاعطاء صفة (ابي الضيم) عند المؤرخين للإمام الحسين(ع) وصفة مذل المؤمنين للحسن(ع) يمكن مناقشتها ورددها عندما نعرف بأن هذا الالباء يجب ان يراد به حينما ينسب لموقف الحسين(ع) بكر بلا دون الحسن(ع) اباء ورفضاً عندما تنتهك حرمة الرسالة ويراد اذلالها، او ان تفقد الرسالة مكسباً كان بالامكان ان يتحقق بالنسبة لهذه الرسالة.

وأما المفهوم (العاطفي) الشائع بين الناس لالباء الضيم فهو مفهوم جاهلي لا يقره الاسلام، فإن موقف قبول الضيم يجب ان يكون عندما تقتضي الرسالة من القائد ان يمتحن بتحمل هذا الضيم، فمثل هذا الالباء والرفض يكون موقفاً غير رسالي وغير انساني بل هو موقف اناني، كما ان العكس صحيح ايضا.

فأى اعتبار عاطفي لا ينبع من اهداف وقيم الرسالة يجب ان لا يدخل في حساب الانسان (الرسالي) وأى انسان احق بهذا الوصف من هؤلاء القادة العظام من ائمة اهل بيت الرسول(ص).

اما الحسن(ع) فكانت اعتباراته في اختيار الموقف ذات ابعاد رسالية قائمة على الاعتبارات الموضوعية الثلاثة لأئمة الذكر، والتي سنتناولها بالتحليل والنقاش فيما يلي:

١. راجع اقوال ثلثة من المؤرخين المستشرقين في هذا المجال في كتاب سيرة الائمة/الحسين/ج ١/ص: ٦٠٢

٢. الحسين واليساري الاسلام/أحمد عباس صالح/ص: ١٤٢

٣. المستشرق هوكل/سيرة الائمة/ص: ٦٠٣

٤. رولاندسن في كتابه عقدة الشعة الامامية.

٥. صانعو التاريخ العربي/فيليب حتي.

مناقشة الاعتبارات الموضوعية

اولاً: اما على الاعتبار الاول، بوصفه امينا على الاطروحة النظرية بصيغتها الكاملة للحياة فقد برزت على هذا الصعيد بعض المفارقات في الحياة الاجتماعية عندما رأينا ان هذه الصيغة الاسلامية (الكاملة للحياة) وهي تعيش التطبيق العملي في تجربة سياسية حاكمة كيف انها اضطرت ان تغادر الساحة السياسية بعد ان انحسرت في قلوب واقتناع القواعد الشعبية بالتدريج، ولم يكن سبب الانحسار لأن وصول التجربة الى المرحلة الحكيمة كشف عن قصور او انحراف او سلوك غير منطبق على النظرية او غير منسجم مع قيمها واهدافها بل ان القاعدة الشعبية التي اعتمدها الامام في تسيير دفة الحكم لم تكن تستطيع مواكبة حياة الكفاح والجهاد الا الى مرحلة قصيرة من شوط حياتها الجهادي.

ولذا نرى ان الامام علي (ع) حينما مارس تطبيق نظريته على كل مستويات الحياة الاسلامية اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا واخلاقيا بدأت المتاعب والملايسات، وبدأ الناس بالشك والتعجب، لأنهم ارهقوا بتكاليف هذه النظرية وتمعث قناعاته بالتدريج بصحة هذه النظرية.

ومن هنا جاء قرار الامام الحسن (ع) باعطاء الاولوية الى استرجاع ثقة واقتناع الامة بالنظرية لأنه ادرك بأن النظرية الكاملة لكي تعيش في نفوس الامة، لا بد من اتخاذ قرار اخلاء الميدان السياسي لمعاوية وافساح المجال (لابناء الطلقاء) وقواها المتمثلة بخط السقيفة، تستولي على العالم الاسلامي لكي تتكشف بواقعه الجاهلي المقتنع واطروحته المبرقة بالاسلام معرفا هؤلاء المسلمين — البسطاء — والذين لم يكونوا يعرفون الا ما يرون باعينهم وحواسهم من هو معاوية.. وما هو واقعه وواقع حكمه واهدافه في الحياة، ومن كان علي بن ابي طالب، ومادا كانت تعني اطروحته العادية.

وهنا يلح علينا سؤال يتطلب منا معالجته بعجالة، هو هل ان كل نظرية صالحة، حينما تأخذ مجراها للتطبيق تفقد ثقة واقتناع قواعدها الشعبية بها بالتدريج وهي لكي تبدأ من جديد تضطر ان تتخلى عن تجربة الحكم مفسحة المجال لتجربة منافسة تمارس الحكم على اساس نظرية جاهلية منحرفة حتى يكون ذلك سببا لتحريك الامة ومنبها لها بصحة نظريتها الاولى؟ وهل ان هذا الخل هو قدر حتمي للنظرية الاسلامية دائما؟

وجوابنا هو ان هذا الحل ليس هو قدر النظرية الاسلامية وانما هذا قدر لازم على النظرية الاسلامية عندما تمنى بتلك الظروف والملازمات التي مر بها حكم الامام علي (ع) فعندما بدأ الامام علي (ع) حكمه وممارسته لتطبيق نظريته بشكل كامل غير منقوص، جاء معتمدا على قواعد شعبية لم تتفاعل بوعي كامل وحقيقي مع اطروحاته ولهذا لم توات هذه القواعد فرصة التفاعل بكل وجودها ولم تبذل معه جهدا كافيا في سبيل حماية هذا التطبيق. ومن الجدير بالذكر أن قواعد الامام علي (ع) المولية لحكمه كانوا من شعب العراق وبالرغم من انهم كانوا يبدون من اكثر الشعوب الاسلامية اخلاصا وتفانيا للامام (ع): الا ان استجابتهم واستجابة شعوب أخرى في مصر وجزيرة العربية كانت استجابة قائمة على اعتبارات عاطفية مبنية على الرصيد التاريخي الكبير الذي كان يتمتع به الامام علي (ع) في اذهانهم ونفوسهم.

فهؤلاء المسلمون الذين شاهدوا محنة انحراف عثمان بن عفان عن كتاب الله وسنة نبيه (ص) وبعدها شاهدوا مقتله، احسوا بمشاكل كبيرة تتحدى طاقة الانسان العادي مما حملهم هذا الاحساس بالتوجه صوب صحابي كبير مقتدر يستطيع بما يحمل من تراث محمد (ص) ان يتغلب على هذه المشاكل ويملأهم الفراغ السياسي بعد مقتل خليفتهم ويعيد الامور الى وضعها الطبيعي، فوقع اختيار الكثير منهم على شخص الامام علي (ع)، لأنه كان ابرز الصحابة على المسرح السياسي والاجتماعي، تدعمه صفات نادرة وتجربة تاريخية ثرة لا يتمتع بها أى صحابي آخر.

فكانت استجابة الناس منذ البدء استجابة عاطفية قائمة على اساس الشهرة والتقدير الذاتي، لاعلى اساس التفاعل الواعي او التربية المباشرة من قبل الامام علي (ع) لذا كان من بدهة الامور ان تأتي استجابتهم فجأة ذات شوط قصير، اخذت بالتبع والذوبان تدريجيا، بعد ان اصطدمت بأعباء الجهاد ومسؤولياتها الجسام، اما حينما تحيى النظرية الاسلامية الى الحياة على اثر تفاعل واسع النطاق في الامة متفاعلة بوعي مع مضمونها تفاعلا واعيا وصحيحا، ففي هذه الحالة سوف لن تحتاج هذه النظرية مرة أخرى الى اى تنازل عن قيمومتها للحكم او الانحاء للمعا صفة — ولكن الذى حدث ان الظروف الموضوعية — والتي سبق الكلام عنها — هي التي فرضت ظاهرة الانحسار وتلاشي التجربة السياسية والتنازل

عنها لاسترجاع قناعة الامة ثانية وكسب ثقتها، وهي ولدت ضرورة اسلوب فسخ المجال لأعداء الاسلام (من ابناء الطلقاء) لكي يعبروا ويفصحوا عن ذواتهم الجاهلية امام المسلمين البسطاء— بشكل حسي مباشر— ولقد ارتكبتها بالفعل معاوية عندما صعد المنبر امام حشد من المسلمين لكي يخاطبهم بكل صلف ووقاحة قائلاً لهم:

«اني لم احاربكم لكي تصلوا او تصوموا او تحجوا او تركوا، بل حاربتمكم لكي تأمر عليكم وقد اعطاني الله ذلك وانتم كذلك كارهون»

وفي هذا المجال يمكن ان نفترض طريقين في تعيين انحسار تجربة الامام السياسية وفسح المجال لاعدائه بالانكشاف على المسرح الاجتماعي والسياسي امام المسلمين وذلك:

أ/ ان يواصل الامام معركته المسلحة حتى يستشهد في ميدان الجهاد، ثم يفسح المجال لمعاوية ليحكم من بعده.

ب/ ان يجمد تجربته السياسية بقبول الصلح (المشروط) وايقاف العمل العسكري ضد معاوية.

والسؤال الآن لماذا لم يختار الامام (ع) احد هذين الطريقين، وخصوصا ان كلا الطريقين يحققان حاجة الرسالة بالانسحاب المؤقت حتى تسترجع القيادة ثقة الامة بها وبأطروحتها ويزداد الحاح هذا السؤال في ذهن القارئ حينما يقارن موقف الحسن (ع) بموقف الحسين (ع) الذي واجه هذين الخيارين، فاختار طريق الشهادة دون ان يختار طريق ايقاف الجهاد ولو مؤقتا.

ويمكن ان نصل الى الجواب بادراك الفارق الاساسي بين موقف الامامين (ع) وذلك بالبحث في الظروف الموضوعية لواقعهما، وأخذ الاعتبارات الموضوعية الثلاثة (السابقة) بنظر الاعتبار.

فعل صعيد الاعتبار الاول حينما جاء اختيار الحسين (ع) لطريق الشهادة وذلك لأن الامة في زمنه لم تكن تعيش حالة الشك لأنها شفيت منه ولكنها ابتليت الامة بحالة مرضية جديدة هي حالة «فقدان الارادة».

وهناك فرق موضوعي كبير بين المرضين، فرض الشك كان يعني ان الامة قد فقدت ايمانها واعتقادها الواعي برسالية المعركة، ولو ان الحسن (ع) واصل خوض معركة

يائسة وخره صريعا في ساحة الجهاد لما حقق أى مكسب او فعل للإسلام كما حققه دم الحسين (ع) المراق بكر بلاء، لأن استشهاد الامام (ع) سوف يتم في ظل شك الجماهير برسالية معركته.

ومن هذا الواقع المرير جاء لوم كثير — من المؤرخين — للامام الحسن (ع) منددين بتكاسله وضعفه (الزعوم) وتنازله عن حقه حسبا للموقف وقبوله لحياة الدعة والراحة. ولكننا نرفض هذه الادعاءات والأفتراءات، مؤكداً بأن خوض الامام (ع) ودخوله في معركة يائسة سلفا، سوف لن يحرك ضميرا في الامة ولن يغير من اوضاعها شيئا ولربما انت معركته (ع) في نظر كثير من المسلمين بمستوى المعركة التي خاضها عبد الله بن الزبير الذي كانت له وقفة مع جيش عبد الملك بن مروان، حيث واصل حربه وقتاله حتى خر صريعا في الميدان وقتل معه كل اصحابه الخواص واهل بيته.

ولكننا نسأل، هل ان احدا من المسلمين فكر بابن الزبير؟ وهل ان معركته التي خاضها تركت اثرا في ضمير الامة الاسلامية؟ وهل حركت مشاعرهم؟ وهل حققت مكسبا حقيقيا للإسلام أو قدمت زحما جديدا للعمل؟

ونرى من جانب آخر ان عثمان بن عفان واصل تجربة الحكم اثناء خلافته وطلب منه معارضوه بالاستقالة والتناحي عن الحكم وقد اجابهم عثمان بأنه غير مستعد لذلك، لأن الخلافة في مفهومه «هي ثوب البسة الله اياه» حتى كان نتيجة اصراره بواصلة الحكم، الثورة ثم مقتله...

وكلنا يعلم لو ان عثمان استقال لما قتل، اذاً هل يمكن ان نقول بأن عثمان كان شجاعا في اصراره على تمسكه بالحكم حتى قتل بيد المعارضة، فقد بذل عثمان دمه ونفسه في سبيل الحكم، ولكن نسأل بدورنا هل هناك انسان يتجاوب مع امثال هذه الشجاعة هل استطاعت هذه الشجاعة (القصيرة النظر) ان تهز ضمير الامة الاسلامية او ان تحرك شيئا من اوضاعه؟

الجواب: لا.. ولكن لماذا؟ لأن ابن الزبير او عثمان أو أى شخص آخر من هذا القبيل، كان الناس يعيشون اتجاهاً مفهوماً واضحاً، فهم في نظرهم خاضوا المعركة نزعاً منهم الشخصية ضد المعارضة، ولم تكن معركتهم من اجل انقاذ الرسالة او حماية الاسلام او تعديل

الحكم المنحرف، فالامة كانت تعيش حالة شك بأهدافهم.

فهل كان استسلام عبدالله ابن الزبير او عثمان بن عفان للموت لأنها رفضا الضيم ورفضاً أن يطأطأ رأسها امام الاعداء؟ ام انها واصلا القتال من اجل المظلومين والمسحوقين الذين اذنها حكم عبدالملك بن مروان.

ولكن حقيقة الأمر أن الامة لم تملك قناعة بالنسبة لأهداف ابن الزبير او عثمان وامثالها ولهذا ذهب مقتلها دون ان يحدث اي اثر حقيقي في محتوى الامة النفسي والفكري ونروحي.

فنفس هذه الحالة من الشك — بل بدرجة اقوى — قد وجدت عند الجماهير التي عاشت مع الحسن (ع) كانت تجعلهم ينظرون الى استماتة الحسن (ع) من لون استماتة اي شخص آخر يأبى الضيم والركوع امام عدوه، فهي من قبيل الدوافع العاطفية، ولو ان الحسن (ع) اختار طريق مواصلة القتال حتى الاستشهاد لما حرك معه شيئا في نفوس واطماع المسلمين.

وهناك ارقام تاريخية كثيرة، تؤكد لنا أن الامام (ع) كان مدركا لموقفه وعارفا ان معركته مع معاوية مستحيلة الانتصار مع وجود ظاهرة الشك في الجماهير.

والامام الحسن (ع) ببياناته التاريخية يرسم لنا ابعاد سياسته بوضوح في معالجته الوعية لأزمة الوضع مع اصحابه وفي مقارنته لاعدائه في بيان سياسي مؤثر نلاحظ فيه عمق المراءة وبلغ الرفض ليؤكد من خلال كل كلمة من كلماته الحق الذي اطمأن اليه، ونحن نعطي دورا لايضاح والبيان للامام (ع) ليكلمنا بكل شي عن مجتمعه وموقفه من مشاكل زمانه وعن الحلول التي خرج بها لحسم المشكلة.

«عرفت اهل الكوفة وتلونهم، ولا يصلح لي منهم ما كان فاسدا، انهم لا وفاء لهم ولا ذمة في قول ولا فعل انهم مختلفون ويقولون أن قلوبهم معنا وان سيوفهم شهورة علينا»

«غررتموني، كما غررتم من كان، من قبلي مع اي امام تقاتلون بعدى، مع الكافر الظالم الذي لا يؤمن بالله ولا برسوله قط»

وفي مجال آخر يشير الامام (ع) الى استحالة خوض معركة منتصرة، وهو في هذا الجو

من الشك ، وقلة الاعوان المخلصين.

«والله اني ماسلمت الأمر الا لأني لم أجد انصارا، ولو وجدت انصارا لقاتلته ليلى ونهارى حتى يحكم الله بيني وبينه»

«ان معاوية نازعني حقا هو لي دونه، فنظرت لصلاح الامة وقطع الفتنة فرأيت أن اسالم معاوية وأضع الحرب بيني وبينه وقد رأيت أن احقن الدماء خيرا من سفكها ولم أر الا صلاحكم، وان ادرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين»
فكل الحقائق تشير بأن أية معركة يخوضها الامام لا تؤدي الى أى نتيجة على الإطلاق ولن تؤدي مفعولا على مستوى أهداف الامام (ع) من التغيير الذى تتطلبه الرسالة كحضارة وممارسة حياتية لكل الاجيال وعلى مدى العصور.

ولابد من التساؤل في هذا المجال عن اهداف هذه المعركة خصوصا وان الامة تعيش ظروف محنة الشك وقوة المواجهة واستحالة النصر.

ماهي اهدافها؟ وماهي طبيعتها؟ اهي مجرد عناد ام هي رسالة وأمانة؟ يقول الامام (ع) بهذا الصدد:

«إن من ابتغاء اخيرا لقاء الشر»

ويجيب (ع) سائلا في معرض رده وتفسيره لفهوم الجهل قائلا:

«سرعة الوثوب على الفرصة قبل الاستمكان منها، والامتناع عن الجواب ونعم العون الصمت في مواطن كثيرة وان كنت فصيحاً»

وفي حديث آخر يبين لنا الأمر بشكل اوضح عندما يسأل عن معنى العقل قائلا:

«التجرع للغصة حتى تنال الفرصة»

وعلى ضوء هذا الحقائق التاريخية يحق لنا أن نطمئن الى النتيجة القائلة لو ان الحسن (ع) خاض المعركة الياثية لكانت معركته تشبه الى درجة كبيرة — معركة عبدالله بن الزبير او عثمان بن عفان، الياثية التي لم تكن لتقدم اى عطاء للاسلام ولرسالته الخالدة.

وبناء على هذه الحقائق استجاب الامام لدعوة الصلح في وقت اصبحت فيه الاستجابة نصرا على معاوية وفضحا لسياسته المخادعة، وكشفا لخلقه امام الجماهير فقد كان

معاوية في ذلك الوقت يتلبس وجه من يريد حقن دماء المسلمين بعد أن ادرك أن نتائج الحرب ستكون لصالحه وهو يرى تصليب الحسن (ع) وإصراره على خوض المعركة، فأراد أن يبرز كمحِب للصُلح ولحقن دماء المسلمين، ولكن سرعان ما فاجأته استجابة الامام (ع) لعقد الصلح، فشعر بخيبة وإخفاق في تحقيق سياسته الماكرة خاصة أن بنود الصلح ألزمتهم بأمر لم يكن له بد إلا القبول بها^(٥) وقد نجحت خطة الامام الحسن (ع) وبدأ معاوية يساهم إلى درجة كبيرة بكشف نفسه وواقعه المنحرف ولم ينتظر الوقائع والظروف لتساهم بكشف حقيقته بل أعلن منذ اليوم الأول عن مضمون أطروحاته وأخذ يواصل الإعلان عنها وفي مختلف المجالات السياسية وبكل استهتار قائلاً:

«والله اني ماقاتلتكم لتصلوا ولتصوموا ولتحجوا ولا لتزكوا، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد اعطاني الله ذلك وانتم لها كارهون»
 اما اختيار الحسين (ع) لطريق الشهادة جاء لأن الامة في زمنه كانت قد تخلصت

٥. مايلي بنود صلح الحسن (ع) مأخوذ عن كتاب - صلح الحسن - للشيخ راضي آل ياسين/ص: ٢٥٩ - ٢٦١
 المادة الاولى: تسليم الأمر الى معاوية على ان يعمل بكتاب الله وبسنة رسوله (ص) وبسيرة الخلفاء الصالحين.

المادة الثانية: ان يكون الأمر للحسن من بعده، فأُنْ حدث به حدث فلاخيه الحسين، وليس لمعاوية ان يعهد به الى أحد.

المادة الثالثة: أن يترك سب امير المؤمنين والفقوت عليه بالصلاة وان لا يذكر عليا الا بخير.
 المادة الرابعة: استثناء ما في بيت مال الكوفة، وهو خمسة آلاف ألف فلايشمله تسليم الأمر، وعلى معاوية أن يحمل الى الحسين كل عام ألفي ألف درهم وأن يفضل بني هاشم في العطاء والصلوات على بني عبد شمس، وأن يفرق في اولاد من قتل مع امير المؤمنين يوم الجمل واولاد من قتل معه بصفيين ألف ألف درهم، وأن يجعل ذلك من خراج دار (البحر) ولاية بفارس على حدود الاهواز.

المادة الخامسة: الناس آمنون حيث كانوا من ارض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم وبينهم، وأن يؤمن الاسود والأحمر وان يحتمل معاوية ما يكون من هفواتهم وان لا يتبع احدا بما مضى، وأن لا يأخذ اهل العراق باحنة وان لا يئان أحد من شيعة علي يكرهه وان اصحاب علي وشيعته آمنون على انفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وان لا يتعقب عليهم شيئا ولا يتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل الى كل ذي حق حقه وعلى ما أصاب اصحاب علي حيث كانوا، وعلى ان لا يغيب للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من اهل بيت رسول الله غائلة، سرا ولا جهرا، ولا يخيف احدا منهم في افق من الآفاق. انتهى

وشفيت من مرض (الشك) بعد انكشاف واقع الأمويين وافتضاح واقع اطروحة معاوية وشعورهم بأنها ماهي الا امتداد للجاهلية، وغدت تجربة الامام علي (ع) في الحكم املا وحلما في نظر الجماهير، واخذت تدرك وتعي بأن الامام علي كان يحارب في معاوية ابن ابي سفيان جاهلية الأصنام والاوثان، ولم يحاربه قبيلة او شخصا.

فالأئمة قد شفيت من مرض (الشك) ولكنها منيت بمرض آخر وهو مرض (فقدان الارادة) وقد اصبحت الأمة لا تملك ارادتها في الرفض والاحتجاج، بل اصبحت يدها ولسانها منكأ لشهواتها، فقد فقدت ارادة التغيير لأوضاعها الفاسدة «قلوبهم مع الامام ولكن سيوفهم عليه» كما قال الشاعر الفرزدق.

لقد اصبحت الامة تدرك وتعي بأن الامام علي (ع) هو طريق الجهاد والخلاص وهو المثل الاعلى للحكم العادل، حتى غدا شعار «لأنريد الاحكم علي» شعارا جماهيريا شائعا على السنة الثائرين.

ولكن مع كل هذا الوضوح في المواقف كان هؤلاء لا يتلکون ارادتهم لقد استكانوا وهانت عليهم قيمهم ومثلهم حيث انطفأت فيهم شعلة الجهاد وكانوا يشعرون بالذل والتبعية لجلادهم من الحكام ولم يعودوا ليحملوا هم الرسالة بقدر اهتمامهم بمصالحهم واعطياتهم وشؤونهم الفردية، لقد نسوا همومهم الرسالية وتضاءلت بالتدريج لتحل محلها تلك الهموم الطارئة الحاضرة.

ففي هذه الحالة كان لابد من شخص أن يرجع للأمة ارادتها، فكان خيار الثورة وانجابه العنيفة اسلوبا موضوعيا تبعه الامام الحسين (ع) في معالجة مرض (فقدان الارادة) عند المجتمع الاسلامي.

اما الحسن (ع) فكان موقفه موقف المهادن المصالح ليفسح المجال لمعاوية في ان يكشف ويفضح واقعه وواقع اطروحته الجاهلية ليسترجع من خلالها ثقة الامة واقتناعها بموضوعية وأحقية اطروحة الامام علي (ع) في الحكم.

وهذا الفارق نكون قد اجلينا - للقارئ الكريم - الفرق الموضوعي بين الظرف الذي عاشه الحسن (ع)، والظرف الذي عاشه - بعد عشرين سنة - الحسين (ع)، وقد تجلى هذا الفرق في نوعية مرض الأمة، وكان لابد لعلاج مرض (فقدان الارادة) من اختيار

الطريق الاول، بينما مرض (الشك) لم يكن علاجه الا بانحسار التجربة السياسية، وقبل
النصلح المشروط.

ثانيا: اما الاعتبار الثاني بوصفه امينا علي التجربة السياسية فكان من الواضح ان
مواصلة تجربة الامام السياسية اصبحت صعبة ومستحيلة وعاجزة عن الاستمرار والمضي في
الحكم والمعروف، ان الدولة العقائدية — ذات الأطروحة الرسالية — تعيش بمستوى اكبر
من مستوى مصالح الأفراد ووجوداتهم الذاتية، ولما كانت هذه التجربة لا يمكن ان تواصل
وجودها مستقبلا الا اذا اكتسبت وحظيت بقناعة عقائدية واعية من قبل قواعدها (الموالية)
حتى تتمكن ان تحمل ابعاد التجربة وتحملها من اعدائها وتحمل التضحية من اجلها،
وعندما تفقد التجربة هذا الاقتناع تصبح التجربة عاجزة عن الفعل والعمل، غير قادرة عن
الدفاع عن ذاتها وكيانها.

فالدولة العقائدية يجب أن تدخل في وعي وقناعات قطاعات عريضة من الامة
وتستهوهم فكريا وروحيا، واذا افتقدت الدولة اقتناع الامة بها، فبماذا تستهوى جماهيرها؟!
هل تستهوهم بالمصالح الفردية الخاصة ولذائذها الرخيصة؟!

نعم كان بالامكان ان يستهوهم الامام ويستدرجهم الى حكمه عن طريق دغدغة
مصالحهم الخاصة، ويدخل نفس المداخل التي دخلها معاوية، يشتري ضمائرهم، يكتب الى
رؤسائهم في "شام والعراق، وبخاند، وبماطل، ويوزع الاموال والاعطيات!!
ونكن كل هذه الممارسات (اللا أخلاقية) كانت خروجاً صريحاً ومبتذلاً على
مضمون رسالة الامام (ع)، لأن ديمومة اى تجربة سياسية (عقائدية) تعتمد اساساً على اقتناع
القواعد الشعبية بها.

هذه القناعة لم تكن موجودة — في ظروف الشك والتعقيد التي عاشها الحسن (ع)
لذا انتهت تجربته السياسية في الحكم الى ما انتهت اليه.^(١)

ونشير الى فارق آخر ميز موقف الحسن عن موقف اخيه الحسين (ع)، فالحسين لم يكن
قائداً لتجربة سياسية ولم يكن اميناً على حكم قائم (كما الحسن (ع))، وانما كان شخصاً

١. راجع نفس الكتاب الظروف الموضوعية التي مر بها حكم الامام الحسن (ع).

محكوما ومضطهدا ولم يكن معه الا أصحابه المتعاطفين مع اطروحاته.

اما الحسن (ع) فكان حاكما ووجودا سياسيا قائما بالفعل، وقد تمثل وجوده السياسي بأجهزة الدولة ومؤسساتها المختلفة، هذا الوجود السياسي هو الذى دعا معاوية لأن يفكر ويخطط بطريقة مناسبة لمواجهةها. أيواجهها بطريقة الحيلة ام ان سيف لأن معاوية كان متخوفا من نتائج اختياره لأحد الموقعين وعدم تحقيقها لأهدافه واحلامه في التوسع والزعامة. ولكن بالرغم من قيام هذا الوجود السياسي الضخم الا انه كان كيانا سياسيا (هشا) مشتتا من الداخل الا ان هذا الوجود كان يضمن على الحسن (ع) قوة وعزة وهيبة، مما دعا الامام ان يدخل مع معاوية في تحقيق اكبر قدر ممكن من المكاسب لتجربته واهدافها السياسية في الحكم.

اما الحسين (ع) بوصفه فردا عاديا ومحكوما من قبل سلطة الدولة لم يكن بإمكانه ان يدخل في تحقيق مكاسب لرسالته عن طريق المفاوضات السياسية مع يزيد ابن معاوية بينما الحسن (ع) كان زعيما لجبهة سياسية عريضة، كان بإمكانه ان يفرض على معاوية بعض التنازلات في مقابل ايقاف العمل مؤقتا بتجربته السياسية في الحكم، فكان في صالح التجربة ان تتوقف مؤقتا، مع اخذ الضمانات الكافية برجعها رسميا وقانونيا^(١) من ان تنتهي انتهاء ساحقا، وذلك نتيجة لاصرار الامام الحسن (ع) على خيار استمرار الاقتتال حتى الشهادة، بل يدخل مفاوضا ومصالحا معاوية، ليستبقى ما يمكن استبقاؤه من مكاسب لتجربته السياسية.

وعلى ضوء هذه الحقيقة جاء اختيار امامنا الحسن (ع) للطريق الثاني، مؤكداً بأن كل من يعيش ظروف وملابسات حكم الامام الحسن (ع) لابد ان يختار ما اختار. والملفت للنظر — عندما ندقق في بنود وشروط الصلح نرى بأن الحسن (ع) اشترط على نفسه لمعاوية ان ينسحب عن ميدان الحكم، ولكنه لم يشر او ينص — لامن قريب او من بعيد — على اى نوع من البيعة لمعاوية او اظهار التبعة السياسية له، وخصوصا بالمعنى الذى كان موجودا لعل (ع) بالنسبة لخلافة ابي بكر وعمر وعثمان، وانما كل شرطه مع معاوية، هو ايقاف العمل بتجربته السياسية مادام معاوية على قيد الحياة، وبمقابل ايقاف المعركة،

١. راجع نفس لكتب/ بنود وشروط صلح الحسن (ع).

اشترط الحسن (ع) على معاوية كثيرا من الشروط والتعهدات، بعض هذه التعهدات ضمانات امنية تخص كيان (شعبة اهل البيت) والبعض الآخر، كانت تتعلق بتجربته وكيانه السياسي، حيث اشترط على معاوية بأن لا يوصي من بعده لأحد غير الامام الحسن (ع) وهذا الشرط يوضح بأن تنازل الحسن (ع) عن الحكم كان من اجل ان يسترجع ثقة الامة واقتناعها بصحة اطروحاته لكي ترجع تجربته السياسية مرة ثانية الى سدة الحكم.

ثانيا: اما الاعتبار الثالث بوصفه قائدا وزعيما للكتلة التي بذرها النبي (ص) ونماها ورعاها الامام علي (ع)، هذه الكتلة التي كانت تمثل الجزء الطليعي الواعي من الامة الاسلامية آنذاك، والتي كان من المفروض ان تواصل امتدادها عبر التاريخ، حاملة للأجيال امانة الاسلام بكامل صيغته ومضمونه. هذا الاعتبار كان في حساب اختيار افضل الطريقين.

وعلى ضوء هذا الاعتبار يظهر فرق آخريين موقف الحسن واخيه الحسين (ع) في اختيار كل منهم لطريق مختلف.

ربّ قائل يقول ان الامامين متساويين في هذا الاعتبار لأن الحسين كأخيه الحسن (ع) كان ايضا هو الزعيم والامام الثالث لهذه الكتلة والامين عليها في مرحلتها التاريخية اللاحقة، الا ان بينهما فرقا جليا، وحاصل هذا الفرق هو ان الحسن (ع) كان يستقطب كل هذه الكتلة بينا الحسين (ع) لم يكن يستقطبهم جميعا، فالحسن (ع) عندما كان يحارب كانت كتلة (الشعبة) تدخل ضمن اطار سيادة دولته، ولم يكن معقولا ان يحارب عدوا ويتوقف عن قتاله الا بعد ان يستنفذ كل قواه وطاقاته وكل رصيده الشعبي حتى يسقط شهيدا في ساحة المعركة.

اما الحسين (ع) فلم يستشهد الا بعد ان استنفذ طاقة قواته (الصغيرة) والتي تمشت حينذاك بتلك المجموعة الطاهرة حيث خروا صرعى ثم خرا الحسين بعدهم صريعا. ومعنى قولنا هذا ان الامام الحسن (ع) لو اراد أن يواصل قتاله حتى الموت كان لا بد له ان يستنفذ كل طاقاته، من قواعده الشعبية وكل ما يملك من موالين. ومعنى هذا انه سوف لن يبقى هناك وجود اسلامي قادر على ان يسترجع ذلك الاقتناع المفقود باطروحة الاسلام الحقّة.

ومن هنا جاء مفترق الطريق، حيث قدر للإمام الحسن(ع) ان يسلك طريق الصلح — الذى تمثلت فيه أقصى الوان التحدى والقسوة للنفس البشرية التوافقة لأقامة العدل، ولكن الحسن(ع) لم يتردد لحظة في ان يتحمل كل هذا الاذى والضيم في سبيل ان يحقق أقصى درجة ممكنة من المكاسب للاعتبارات الثلاثة التي ذكرناها سابقا.

* * *

ولقد نجحت خطة الامام الحسن(ع) بقبوله بشروط الصلح لكي يمنح معاوية فرصة باظهار نواياه الجاهلية، وفعلا بدأ معاوية يساهم الى درجة كبيرة بكشف نفسه وواقعه المنحرف وقد أعلن منذ اليوم الأول من استقلاله بالحكم عن مضمون اطروحاته، وأخذ يواصل الاعلان عنها وفي مختلف المجالات ضاربا عرض الحائط شروطه مع الحسن(ع) قائلا بكل تحد وصلف:

«الا واني كنت منيت الحسن واعطيته اشياء وجميعها تحت قدمي، لا أني بشيء منها»

وعندما اخل معاوية علانية بشروط الصلح المتفق عليها امام نظر واسماع المسلمين متحديا بذلك مشاعرهم، اخذ كثير من المسلمين يطالبون الامام(ع) بفسخ الهدنة ومواجهة معاوية من جديد، ولكن الامام(ع) كان يجيبهم بقوله:

«ان لكل شيء أجل، ولكل شيء حساب»

«ولعله فتنة لكم ومنازع الى حين»

ولم يكن الامام(ع) يرفض بشكل مطلق فكرة نقض الهدنة ولكن كان يؤجلها بالمنطق الذي يجعل لكل شيء أجلا ولكل شيء حسابا، لأنه كان يريد أن تتكشف شخصية معاوية بشكل اوضح، وان تكون اهدافه الجاهلية قد بانت لكل انسان.

الا ان معاوية احس بخطة الامام(ع) وعرف ان الحسن(ع) سيكشفه امام الملا ويبيع ورقته بنجاح امام الجماهير المسلمة وعند ذلك ينفضح امره للجميع، ولهذا بادر معاوية لتحسين نفسه ضد هذه الفضيحة والعمل على فساد خطة الامام حتى لا يكون مصيره مصير عثمان.

ولما كان معاوية يريد التمتع بالدنيا من خلال ملكه الى أقصى مايمكن ان يتمتع به

الملك فهو لابد اذن أن ينكشف للناس، فعمد الى اخفاء فضيحته بالعمل والتخطيط الدائب الى اماتة ومصادرة ضمير الأمة وارادتها وقابليتها بتحدى الظالمين، فكانت سياسته على مدى عشرين سنة، تخطيطا دائبا لتميع ضمير الأمة وارادتها بأن يجعلهم ينصرفون عن التفكير في الهموم الكبيرة وينقطعون الى همومهم اليومية الصغيرة وينصرفون بها عن الاهداف التي حلوها مع نبيهم العظيم في تحطيم جاهليات العالم الى الاهتمام بعيشهم ومصالحهم الشخصية وإلى اعطيائهم التي يتقاضونها من بيت المال.

وفعلا افلحت بعض خطط معاوية في تحطيم معنويات بعض المسلمين، حتى اصبح المسلم الذي كان يفكر بتحطيم عروش الظالمين في بلاد كسرى وقيصر أصبح الآن لا يفكر الا بعبثاته الرخيص وحياته المبتذلة.

وقد وصل الحال — كما مرشرحه — بشيوخ بعض قبائل الكوفة أن أصبحوا جواسيس لمعاوية بالرغم من تشيعهم لامير المؤمنين (ع) وأخذوا ينقلون الأخبار أولا بأول عن أى بادرة تحرك او تمرد من قبل رجال قبائلهم ثم تأتي شرطة الحكومة وتلقي القبض عليهم وتحقق انقاس المعارضة.

هذه الأعوام العشرون التي حكمها معاوية قد تكون من أخزى وأحرج الفترات التاريخية التي مرت على الامة الاسلامية اصبح خلالها الانسان المسلم يحس احساسا مدمرا بأنه مظلوم وامته اصبحت مهددة بخطر الفناء، وان احكام الشريعة يتلاعب بها، واصبح الفئى والسواد بستانا لقريش والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني امية.

كلمة اخيرة عن الامام (ع)

مع الأسف أن كثيرا من مؤرخي التاريخ العام يؤكدون تصورا شائعا حول قيادة الامام الحسن (ع) وضعفها وتراجعها امام ضغط الاحداث، او انه تنازل عن حقه راضيا حسما للفتنة او انه خان الاسلام وسلم تجربتها السياسية دون قتال الى معاوية عدو الاسلام ركونا للدعة والراحة.. هكذا وبكل بساطة!!

وبخصوص هذه النزاع والتقولات الرخيصة فقد تكفلت الدراسة السابقة بالرد عليها وتفنيد مزاعمها، ولكن الذى نريد ان نؤكدته الآن بأن هذا الاعتقاد الشائع — اغلب

الظن سببه — اعتقاد هؤلاء المؤرخين بأن دور الأئمة في حياتهم كان دورا سلبيا على الاغلب بسبب اقصائهم عن الحكم وهذا التفكير بالرغم من انه خاطئ الا انه يدل على جهل هؤلاء المؤرخين بظروف وتأريخ حياة الأئمة (ع).

فالأئمة بالرغم من اقصائهم من مسؤولية الحكم كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الاسلامية و تحصيلها ضد التردى الى هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلخا تاما.

فالامام الحسن (ع) — كما مرفصلا — عندما هادن معاوية وتنازل عن الحكم اتجه الى تغيير الأئمة وتحصيلها من الأخطار التي كانت تهددها والاشراف على القاعدة الشعبية وتوعيتها بمتطلبات الشخصية الاسلامية وتعبئتها بمحتوى التغيير الرسالي للاسلام ولبعث الامة من جديد.

هذا الدور الايجابي للامام (ع) وتحركه الفاعل على مسرح الاحداث كلفه الكثير من الرقابة والحصار ومحاولات اغتيال متكررة، وهذه المحاولات ان دلت على شيء فأنها تدل بكل وضوح الى مخاوف السلطة من تواجد الامام (ع) كقوة معبرة عن عواطف الامة ووعيا المتنامي، ولربما حملت معها خطر الثورة ضد ظلم بني امية.

واغتيال الامام في سنة ٤٩ هـ بالسهم دليل صارخ بتواجهه عملا ونشاطا دائما في بعث الأئمة وانهاضا من جديد.

فالامام لم ينزل ولم يتخاذل عن قيادة الامة ومتطلباتها في الكفاح. ومعاوية أدرك ذلك جيدا بأن الامام (ع) هو صاحب رسالة ومبدأ فلا بد انه عامل لاعطاء رسالته من جهده وعرقه سيادة الحكم من جديد بما يبذله من اساليب العمل والتغيير.

((مصادر الكتاب))

حرف الألف

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - أعيان الشيعة محسن الامين العاملي
- ٣ - أسد الغابة علي بن محمد بن الأثير
- ٤ - احياء العلوم محمد ابوحامد الغزالي
- ٥ - الاضواء مجلة. النجف الاشرف
- ٦ - الاحتجاج الطبرسي
- ٧ - اعلام الورى باعلام الهدى الطبرسي
- ٨ - الانتصار عبدالرحمن بن محمد الخياط
- ٩ - انساب الاشراف البلاذرى
- ١٠ - الامامة والسياسة ابن قتيبة الدينورى
- ١١ - الاسلام ومنطق القوة السيد محمد حسين فضل الله
- ١٢ - الاسلام يقود الحياة السيد محمد باقر الصدر
- ١٣ - الامامة في التشريع الاسلامي محمد مهدي الآصفي
- ١٤ - الاجتهاد والتقليد ميرزا غلام رضا
- ١٥ - اميرالمؤمنين لجنة التأليف في دارالتوحيد

- ١٦ - اهل البيت توفيق ابو علم
 ١٧ - الائمة الاثني عشر، دراسة تحليلية عادل الاديب

حرف الباء

- ١٨ - بحث حول الولاية السيد محمد باقر الصدر
 ١٩ - البحار - محمد باقر المجلسي

حرف التاء

- ٢٠ - تأريخ اليعقوبي احمد بن ابي يعقوب
 ٢١ - تأريخ الطبري محمد بن جرير
 ٢٢ - تاريخ ابن الاثير علي بن محمد الجزري
 ٢٣ - تاريخ ابي الفداء اسماعيل بن علي بن محمود
 ٢٤ - تاريخ الخطيب البغدادي احمد بن علي
 ٢٥ - تفسير الطبري محمد بن جرير
 ٢٦ - تفسير الثعلبي احمد بن محمد
 ٢٧ - تفسير الكشاف محمود بن عمر جار الله الزمخشري
 ٢٨ - تهذيب التهذيب ابن حجر احمد بن علي
 ٢٩ - تذكرة الخواص سبط ابن الجوزي

حرف الثاء

- ٣٠ - ثورة الحسين، ظروفها الاجتماعية وآثارها النفسية محمد مهدي شمس الدين

حرف الحاء

- ٣١ - الحكمة مجلة، لبنان
 ٣٢ - حياة الامام الحسين لجنة التأليف في دارالتوحيد

حرف الدال

- ٣٣ — دائرة المعارف الاسلامية الشيعية حسن الامين
 ٣٤ — الدر المنثور عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي
 ٣٥ — دراسات في نهج البلاغة محمد مهدي شمس الدين
 ٣٦ — الدولة العربية الى نهاية الدولة الاموية الاموية يوليوس فلهاوزن

حرف الراء

- ٣٧ — روح المعاني محمود الألوسي

حرف السين

- ٣٨ — سلم الوصول الى علم الاصول عمر عبد الله
 ٣٩ — سيرة الرسول ابن هشام
 ٤٠ — السقيفة محمد رضا المظفر
 ٤١ — سيرة الائمة الاثنا عشر هاشم معروف الحسني

حرف الشين

- ٤٢ — شرح نهج البلاغة عبد الحميد ابن ابي الحديد

حرف الصاد

- ٤٣ — صفين نصر بن مزاحم
 ٤٤ — صانعو التاريخ العربي د. فيليب حتى
 ٤٥ — صحيح مسلم مسلم بن الحجاج القشيري
 ٤٦ — صحيح البخاري محمد بن اسماعيل

حرف الطاء

- ٤٧ — طبقات ابن سعد ابن سعد

حرف العين

- ٤٨ — عقيدة الشعية الامامية دونالدسن
 ٤٩ — عثمان طه حسين
 ٥٠ — علي بن ابي طالب، نظرة عصرية جديدة د. محمد احمد خلف الله
 ٥١ — العدالة الاجتماعية سيد قطب

حرف الفاء

- ٥٢ — الفصول المهمة ابن الصباغ المالكي
 ٥٣ — فضائل الخمسة من الصالح الستة مرتضى الفيروزي آبادي
 ٥٤ — الفتنة الكبرى طه حسين

حرف الكاف

- ٥٥ — كشف الغمة علي بن عيسى الأربلي
 ٥٦ — الكامل ابن الاثير

حرف اللام

- ٥٧ — اللمعة الدمشقية العاملي

حرف الميم

- ٥٨ — مسند الامام أحمد احمد بن حنبل
 ٥٩ — مستدرک الحاكم الحاكم النيشابوري
 ٦٠ — المراجعات عبدالحسين شرف الدين

- ٦١ - مجمع البيان علي بن الحسين الطبرسي
 ٦٢ - الملل والنحل محمد بن عبدالكريم الشهرستاني
 ٦٣ - مفاهيم اسلامية عامة محمد حسين فضل الله
 ٦٤ - المختار الاسلامي مجلة، مصر
 ٦٥ - من حياة اهل البيت التسخيري

حرف آلنن

- ٦٦ - النجف مجلة، كلية الفقه - النجف
 ٦٧ - النزاع والتخاصم المقريزي
 ٦٨ - النظم الاسلامية، نشأتها وتطورها د. صبحي الصالح

حرف الواو

- ٦٩ - وجهة العالم الاسلامي مالك بن نبي

حرف الياء

- ٧٠ - اليمين واليسار في الاسلام د. احمد عباس صالح